مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الرابعة عشر / العـــدد السابع والخمسون / لسنـــة ١٤٤٥هـ

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العراق . النجف الأشرف

مركز الهدى للدراسات

مؤسسة فكريّةٌ تنشطُ في ميدانِ البحثِ والمساهمةِ في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر؛ إيماناً منها بقدرة الإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام على تقديم البديل الحضاري للإنسان، وتُعنى بالدّراسات الفكريّة والسياسية والتاريخية لحوزتي النجف الأشرف وقم المقدّسة؛ رغبةً منها في ترسيخ الثوابت، والوقوف بوجه الفكر الدّخيل.

مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الرابعة عشر / العدد السابع والخمسون / لسنة ١٤٤٥هـ

الهيئة الإستشارية

◄ السيد يوسف الحلو
• أستاذ حوزة النجف الأشرف

◄ الدكتور علاء محسن الكناني
• جامعة بغداد

◄ الدكتور سلام خسرو
• جامعة المستنصرية

◄ الشيخ حسين السعيدي
• أستاذ في الحوزة العلمية

◄ الدكتور علي عبد الأمير
• جامعة بغداد

◄ الدكتور سمير الأسدي
• جامعة بابل

◄ الدكتور علي فياض
• جامعة طهران

◄ الدكتور صفاء السويعدي

◄ الدكتور باسم الكناني

الإخراج الفني

الإشراف العام
قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير
أ. عباس النوري

التنسق والمتابعة
محمد حميد الهاشمي
عصام الساعدي

معد الترجمة الفارسية
حسن علي مطر

هيئة التحرير

◄ أ. سمير العطواني
◄ أ. هادي بدر الكعبي
◄ أ. ضياء كاظم الهاشمي
◄ أ. عمار الولائي
◄ أ. حيدر آل وشاح
◄ أ. إبراهيم الأسدي

مجلة الهدى

العدد السابع والخمسون/ السنة الرابعة عشر / ١٤٤٥

الناشر: مركز الهدى للدراسات الحوزوية

المطبعة: الصنوبر

قطع الورق: ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات: ٣٢٠ صفحة

التصميم والاخراج الفني: أحمد الهاشمي

سنة الطبع: ٢٠٢٣ - ١٤٤٥هـ

❖ البحوث الواردة في مجلة المنهج تعبّر عن رأي كاتبها.

❖ ترتيب البحوث خاضع لاعتبارات فنيَّة

هَوِيَّةُ المَجَلَّة:

مجلَّة [الهدى] فصلية علمية تعنى بالشـــؤون الحوزوية والمعرفة الدينيـــة، تصدرُ عن مركز الهدى للدراســـات الحوزوية، تعنى بالفكر الإســـلاميِّ المســـتنير وما يتَّصل به من المجالاتِ والتخصُّصات، في الشـــريعةِ والتأريخِ والقانونِ والفلســـفةِ وعلم الـــكلام الجديدِ والعلوم الإنسانيَّة المختلفة، مضافاً للفكري الحوزوي وتاريخ المرجعية والفكر المقاوم.

شُرُوطُ الكِتَابَة:

١. يتراوح حجمُ البحث بين (١٠ ـ ٢٥) صفحةً بحجم (A4).
٢. ينضَّـــد البحثُ على قرصٍ مدمـــجٍ (CD)، أما التصحيحُ اللغويُّ فتتكفَّل به المجلَّة.
٣. يجب أن لا تكون البحوثُ منشورةً سابقاً، في الصحف أو الدوريات أو مواقع الإنترنت على الإطلاق، وأن يتعهَّد الكاتب بعدم نشـــره في مكانٍ آخر إلا بعد أخذ الموافقة من المركز.
٤. تخضع البحوث لتسلســـلٍ فنيٍّ في النشر، ولا يحقُّ للكتّاب الإعتراضُ على تأخير نشر المادَّة، لأنه أمرٌ تابعٌ لهيأة التحرير حصراً.
٥. تُقبل البحوثُ والدراساتُ المكتوبة بلغةٍ ثقافية مميزة، أما البحوث الضعيفةُ فتهمل ولا تعادُ إلى أصحابها.
٦. المجلَّة ليســـت ملزمةً بإرجاع الموادِّ إلى أصحابها، سواءٌ نشرت أم لم تنشر.
٧. يرفق الباحث ملخصاً مع البحث لا يزيد على نصف صفحة.
٨. تكون الهوامش متسلسلة في الصفحة نفسها لا في نهاية البحث.

المحتويات

٩ **كلمة الإمام الخامنئي**

أتوجه بخالص الشكر
إلى الإخوة والأخوات العراقيين
الذين استقبلوا واستضافوا أكثر من ٢٢ مليون زائر
خلال عدة أيام، وبذلوا كل ما لديهم

١١ **افتتاحية العدد**

١١ قراءة في جدلية الثقافة والمجتمع عند الإمام الخامنئي
السيد محمد صادق الهاشمي

٢١ **ملف الأربعين الحسيني: مسيرة العشق والولاء والتحدي**

٢١ زيارة الاربعين والتمهيد للظهور المهدوي
الشيخ مشتاق الساعدي

٥٣ الخطاب العاشورائي وإصلاح الأمة وتوحيدها
أ. م.د. أمل سهيل عبد الحسيني

٩٣ الأطر السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في زيارة الاربعين
أ.حسن خاك رند

١١٧ التجليات العقدية في كلمات نساء الركب الحسيني
م. خديجة محمد علي العكري

١٥٨ توظيف زيارة الاربعين قوة ناعمة تجاه دول مجلس التعاون الخليجي
أ.د. جاسم يونس الحريري

ملف الجندر والعداء للدين والإنسانية ١٨١

تكامل الذكر والانثى في الحياة ... القسم الاول ١٨١
آية الله السيد محمد باقر السيستاني

الحرب الناعمة والشذوذ الجنسي ٢٠٨
آية الله السيد منير الخباز القطيفي

محاربة الله والدين بعنوان الجندر أو النوع الاجتماعي ٢٢٥
اية الله الشيخ حسن الجواهري

مطارحات فكرية ٢٣٧

نقد الالحاد الغربي في أعمال الشيخ محمد رضا الأصفهاني ٢٣٧
أ. سامر توفيق

معالم الإحياء الحضاري الإسلامي ... ٢٧٨
السيد هاشم الميلاني

الإمام الخامنئي:

أتوجه بخالص الشكر إلى الإخوة والأخوات العراقيين الذين استقبلوا واستضافوا أكثر من ٢٢ مليون زائر خلال عدة أيام، وبذلوا كل ما لديهم

أعرب الإمام السيد علي الخامنئي "دام ظله «، اليوم الاثنين (١١ أيلول ٢٠٢٣) عن شكره لحكومة وشعب العراق على استضافة زوار الأربعين الإمام الحسين عليه السلام.

وخلال استقباله اليوم الاثنين حشدًا من أهالي محافظتي «سيستان وبلوشستان» و«خراسان الجنوبية»، في حسينية الإمام الخميني رحمه الله بطهران، قال سماحته: أشعر أنه من الضروري أن أشكر شعب العراق على استقباله وكرم ضيافته خلال أيام الأربعين».

وأضاف الإمام الخامنئي «إنها ليست مزحة، العراقيون استقبلوا واستضافوا

أكثر من ٢٢ مليون حاج بين النجف وكربلاء خلال عدة أيام، بذلوا كل ما لديهم، هذا شيء يستحق الشكر حقاً. وأتوجه بخالص الشكر إلى الإخوة والأخوات العراقيين».

وتابع سماحته «أشكر السلطات العراقية، وخاصة الحشد الشعبي، وقوات الشرطة العراقية، والحكومة العراقية التي فرضت الأمن».

إفتتاحيَّة العدد

السيد محمد صادق الهاشمي
مدير مركز الهدى للدرسات

قراءة في جدلية (الثقافة ـ المجتمع) عند الإمام الخامنئي دام ظله

تصبّ جميع الروافد المعرفيّة الصانعة لرؤية الولي الفقيه تجاه المجتمع في مجموعة من الركائز الثابتة؛ ومنها: إسلامية المجتمع لا بمعنى تدينه وعبادته فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى كون الإسلام هو الهوية التعريفية لهذا المجتمع[1]، وبالتالي فإنّ الهوية ليست وصفاً عارضاً يقبل الزوال، وإنما هو الجوهر الخالد الذي عليه تدور بقية التفصيلات، وكذلك يُركز الإمام الخامنئي في كلماته على أن العزة والاقتدار الاجتماعيين ليسا مكتسبين ينالهم المجتمع، إنهما حقيقتا وجوده، وديمومته وصموده، وبقائه، وفي هذا الخصوص يتحدّث الإمام الخامنئي قائلاً: (اما العامل الآخر فهو الانهزام النفسي لعناصر جبهتنا أمام الشخصيات الموجودة في جبهة

الأعداء، وذلك بسبب الشعور بالأفضلية الصنفية لتلك الشخصيات على شخصياتنا، وهذا أمر لا يمكن إنكاره.

تصوّروا، على سبيل المثال، حين يتقدّم فنان فخور متهوّر في هذه الجبهة، في فرع من فروع الفن مقدارا ما، وعندما يشعر في محطة بالتعب ويحاول التقاط أنفاسه، تقع عيناه على فنان من فرعه الفني في الجبهة المقابلة، سيرتعب منه. هو اصلا يرتعب من الجبهة المقابلة. وهذا الرعب أحيانا يكون صرفا وأحيانا نتيجة التأثر والانجذاب إلى الطرف المقابل)[٢].

ومقابل كل واحدٍ من هذين المبدأين تتوزع الخارطة الفكرية للمبادئ والأسس التي يطرحها الوليّ الفقيه في مبانيه الفقهية الداعمة لرؤاه الفكرية الاجتماعية، وما سنطرحه من آراء فقهية له ﷺ نابع من هذا الذي حدّدناه آنفاً.

فلنقل: إنّ قضية الوعي الثقافي للمجتمع الإسلامي مثلاً كانت نقطة حيوية عند الولي الفقيه للانتقال من مجتمع ما قبل الثورة الإسلامية إلى مجتمع ما بعد الثورة، وفي هذا الصدد يقول: (أرى أن العامل الأصلي والميكروب الأساس الذي أدّى بنا إلى الانحطاط والضياع الثقافي يكمن في أنهم أولاً أودعوا ماضينا - المنبعث من الإسلام والناشئ من تعاليمه وادي النسيان)[٣] هذا الضياع يمثل مسخاً للهوية الأصيلة[٤]، ولا بدّ لأعداء الإسلام في مثل هذه الخطوة من طرح البديل الزائف، يكمل الولي الفقيه قائلاً: (وثانياً في أنهم جلبوا الينا الأنظمة والمناهج الغربية المختلطة بالثقافة وبالحقبة البدائية الغربية)[٥].

يتحدث الشيخ عيسى قاسم عن علاقة الثورة الإسلامية ببناء المجتمع فَيعدّ الإنسان الركيزة الأهمّ في ذلك، فيقول: (**إنسان الدولة أهمّ من دولة بلا إنسان، أن يبني الإنسان الدولة التي يطمح لها، أهمّ من يقيم دولة بلا**

إنسان تلك الدولة)[٦] وبناء الانسان وفق مفاهيم الثورة الاسلامية يعتمد على رصد الثقافة الاصلية ونبذ الثقافة المعادية للمفاهيم الاسلامية.

بمعنى أكثر وضوحاً فإن الإمام الخامنئي يرصد في الثقافة البديلة عجزاً لا في كونها غريبة عن المجتمع الإسلامي فحسب، بل لأنها بدائية في جوهرها، ووجودها، ويضرب على ذلك مثالاً بربطة العنق، يقول: (**إن نفس ثقافة ربطة العنق الأوربية الحديثة التي هي في ظاهرها فاخرة وجميلة تحتوي في داخلها على عناصر واضحة تعود إلى الحقبة البدائية**)[٧]، وبذا يمكننا ملاحظة العلاقة الدالية القائمة بين (الفكر) من جهة، و(الفقه) من جهة أخرى؛ إذ أفتى سماحته بحرمة ارتداء ربطة العنق، فقد ورد في (س٢٩٤: ما هو حكم لبس ربطة العنق والقبّعة؟ وعلى فرض عدم الجواز، فهل يختص الحكم بمواطني الجمهورية الإسلامية، أم يعمّ غيرهم ممن يسكن في سائر البلاد من المسلمين؟

ج: لا يجوز لبس ربطة العنق وشبهها مما يكون من لباس وزيّ غير المسلمين، إذا كان يؤدي بنظر العرف الى نشر الثقافة الغربية المعادية. ولا يختص الحكم بمواطني الدولة الإسلامية)[٨].

أمران مهمان يمكننا ملاحظتهما في هذا الاستفتاء، وجواب الولي الفقيه عليه، وهما: **الأول** أنّه اشترط (نشر الثقافة الغربية المعادية) مقياساً ضابطاً للحرمة، ولم يجعله كما تعاهد الفقهاء من عبارة (التشبّه بالكفار)؛ ويبدو أن سماحته يُصنف الثقافة العالمية غير الإسلامية إلى معادية[٩]، وهي التي يحرم تقليدها والتأثر بها، وثقافة سلمية لا يرى سماحته خدشاً في التعامل معها.

والثاني أنه جعله أمراً ولائياً يتجاوز حدود الجمهورية الإسلامية الإيرانية، بما يضمن – وفق مبناه –

رؤية إسلامية مضادة، فاعلة ومؤثرة، مجابهة للرؤية الغربية المعادية في عقر دارها.

يطرح الإمام الخامنائي الرؤية الحضارية للمجتمع الثوري، وتتبلور في خمس مراحل، هي[١٠]:

١ـ مرحلة الثورة الإسلامية، وهي مرحلة التغيير الشامل للمجتمع في كلّ أجهزته الحاكمة، وقيمه السائدة.

٢ـ مرحلة التخطيط لإقامة النظام الإسلامي التي يراد بها مشروع هندسي كامل يطبّق في البلاد من خلال الدستور.

٣ـ إقامة الدولة الإسلامية بكلّ ما تتطلبه الدولة من تنظيم أجهزة الحكم وفق المشروع الإسلامي للجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٤ـ مرحلة إقامة المجتمع الإسلامي وبنائه أو تجديد بنائه كاملاً على أسس إسلامية من حيث الاقتصاد والسياسة والأخلاق والتربية والتعليم وغيرها من الأبعاد الفردية الاجتماعية، وهي أصعب المراحل وأطولها.

٥ـ مرحلة إقامة الحضارة الإسلامية، وهي أهم المراحل، وهي ثمرة المراحل السابقة كلها.

ولا بدّ حينئذٍ من محاولة الربط المنطقي لتسلسل هذه المراحل وفق رؤيته؛ إذ لا يمكن القول: إنّ المراحل الأولى قد تحققت من دون الوعي الثقافي نفسه؛ لأنها ثورة فكرية، وليست حدثاً سياسياً محضاً كما في بقية الثورات التي شهدها العالم يومذاك، فالذي نراه أنّ المراحل الخمسة تتّكئ على المرجعية الثقافية السابقة للنخبة، والشعب على حدّ سواءٍ، الثورة ليست ذات بعد تراكمي يتزايد بتزايد القوة الضاغطة، كلا، إذ يضع الولي الفقيه في المرحلة الأولى صفة التغيير الشامل، ومردّ هذا لطبيعة المجتمع المسلم الذي يمتلك – على مستوى الفرد والجماعة – كمّاً حضارياً متنوعاً يؤهله لهذا التغيير.

ويربط الإمام الخامنئي بين المجتمع والثقافة، ولا يرى إمكان تناول المجتمع ودراسة مشكلاته بعيداً عن الثقافة، يقول: (**إنّ الكثير من المشاكل التي تبدو في نظرنا اجتماعية، اقتصادية، أو سياسية إذا بحثنا فيها نجد إنها ترجع إلى المشاكل الثقافية**)[11].

ويرى الإمام الخامنئي أن الثقافة هي الشريان الحقيقي لديمومة المجتمع الإسلامي فنراه يُشخّص السياسة الخاطئة للحكومات الظالمة وللغربيين تجاه المجتمع بانتزاع هويته الثقافية، يقول: (**إن الثقافة الإسلامية هي ثقافة قيمية تحمل لأي مجتمع أو جماعة أعلى القيم ويمكنها في الحقيقة أن ترتقي بعزة أيّ مجتمع وتؤمّن سعادته وتقدمه وازدهاره؛ غاية الأمر أننا ولقرون متمادية لم نعمل بهذه الثقافة الإسلامية. وقد أخذنا من الإسلام مجموعة من التعاليم الفردية ـ التي اختلط بعضها بأشياء خاطئة كان بعضها خرافيّا أحيانا – وقد كان مسؤولو هذه البلاد ومديروها في تلك العهود من أتباع الشهوات والملذات، مستغرقين في الفساد والجهالة. وإذا كان لهم من انجازات فهي تلك التي تزيد من سيطرتهم**)[12].

يتحدّث الولي الفقيه عن قيمة العامل الثقافي في حركة التطور الاجتماعي، وتقدّم المجتمع الإسلامي، فيقول: (**دور العامل الثقافي في تقدم المجتمعات فيا ترى كم هي نسبة مساهمة العامل الثقافي في تحقيق ذلك؟ هذا هو السؤال الذي شغل ذهني كثيراً**[13])[14].

وفي واحدٍ من خطاباته ﷾ يتحدث عن قيمة التقدم في ضوء الدين، والمعنويات يذكر الشبابَ بأهمية السعي لتحقيق التقدم العلمي والحضاري إلّا إنّه يتابع ذلك بشرط الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع، يقول: (فهذه أمور لا بدّ منها، شرطية أن تُنجزَ على أحسن وجه، ولكنْ إذا كان هناك غياب لجذوة الفضيلة

والمعنويات الدينية ستفقد جميع هذه الامور قيمتها، بل ستتحوّل إلى أمور مخالفة للقيم)[١٥]، ويختزل الامام الخامنئي (الفضيلة) و(المعنويات الدينية) بالوعي الثقافي، ويوضح سماحته المقصود بالعامل الثقافي، قائلاً: **(وعندما نقول العامل الثقافي، نعني ما يقابل العوامل الأخرى كالمال والعلم والصناعة وأمثالها وإنني أتصور بالاعتماد ليس على أرقام وإحصائية علمية دقيقة، لكن طبقاً للمعايير الفكرية - أن للعامل الثقافي نسبة عالية من التأثير)**[١٦].

وفي تقدير سماحته فأن نسبة تأثير العامل الثقافي ٧٥٪، وأن ٢٥٪ الباقية لجميع العوامل الاخرى، وهو يرى في العامل الثقافي ضمانة المستقبل الذي يحافظ على مكتسبات المجتمع، يقول: **(العامل الثقافي هو الضمانة لهذه العوامل، وإلا فلا يمكن للثروات الموجودة في باطن الأرض ولا حتى الصناعة من عمل شيء، كذلك لا يمكن للحضارة الحالية عمل شيء؛ لأنه لولا السند الثقافي والضمانة الثقافية للحضارة لتلاشت الحضارة، ولأن ضعف العامل الثقافي كان سبباً في سقوط الحضارات وزوال المدنيات)**[١٧].

ويرى زكي الميلاد ان تطور المجتمع وحداثته يقع بيد المجتمع نفسه منطلقا من الفرد الى المجتمع يقول: **(التقدم لا يتحقق الا بوصفه انجازا اجتماعيا، قد يبدأ من الفرد او النخبة، او السلطة، لكنه لا يتحول من القوة الى الفعل الا بحركة المجتمع وذلك حين يكون المجتمع مستوعبا لفلسفة التقدم وساعيا لتحقيق هذه الفلسفة على الارض)**[١٨].

ويربط دينس كوش بين مفهومي (الثقافة)، و(الهوية) في نمطها الاجتماعي، يقول: (كثيراً ما تُحيل الاستفهامات الكبرى بصدد الهوية، اليوم إلى مسألة الثقافة. هناك رغبة في أن نرى الثقافة في كلّ مكان، وأن نجد الهوية لكلّ الناس. أزمات الثقافة

تُدان كما تُدان أزمات الهوية)[١٩]، فالعلاقة الرابطة بين المفهومين علاقة جدلية قائمة على الوجود.

ومن هذا الفهم يمكننا القول: إنّ مقاربات الوعي الولائي، وأفكار الولي الفقيه تجاه المجتمع تنطلق من هذه الرؤية، الرؤية التي تجعل الثقافة الجوهر الذي لا يمكن قيام المجتمع ونهوضه من دونه، وبالتالي فإنّ الرؤية الفقهية الاجتماعية ستكون وليدة هذه المقاربات.

يقول الامام الخامنئي ﷾: (**الأهم من ذلك هو الاستقلال الثقافي، فأن ثقافة الاستقلال هي الاعتقاد، والايمان بالاستقلال، ومن الضروري مكافحة جميع انواع التبعية اذا بلغت الامة ذلك فلن تواجه أي مشكلة**)[٢٠]. وبمعنى آخر فإنّ الرؤية الفقهية للولي الفقيه تتجاوز الحدود المتعارف عليها لدى الفقهاء إلى نمط جديد من الاستنتاجات الفقهية التي تعتمد الخوض بطريقة مختلفة، طريقة واقعية فعلية تخوض غمار التحليل الفقهي بمراعاة الفهم (الاجتماعي – السياسي) في آن واحد، فحدود المسؤولية تتجاوز الإرشاد، والرعاية الأبوية – وهي فكرة تجزيئية مهما كانت معمّقة ودقيقة – إلى نظرة ذات أبعاد استراتيجية معقّدة في الرصد والتخطيط والمتابعة والأمر، وهو واحد من عيّنات التعامل الفقهي لدى الولي الفقيه.

ويتّسق ما يذكره الإمام الخامنئي ﷾ مع ما يُحدّده الإمام الخميني ﷺ المستوى الفردي، وأهميته في صنع الأنموذج الأمثل للمجتمع الإسلامي، و(إن على جميع البلدان أن يعرفوا قابلياتهم وقدراتهم، وأن يحتفظوا بثقافتهم، ولا ينخدعوا بالثقافة الغربية والاجنبية)[٢١].

الهوامش:

[١] تحدّث شهيد المحراب آية الله محمد باقر الحكيم ﷺ عن المرتكز الأساسي لفكرة الجماعة الصالحة - المجتمع الذي نطمح إلى رقيه - وفق الروايات المتضافرة عن أهل البيت عليهم السلام، وجعلها على ستة أركان؛ هي: (العقيدة الصحيحة)، و(الأخلاق وحركة المجتمع)، و(نظام الجماعة وركائزه)، وقد حدّد ﷺ فيه الضوابط المؤطرة لبناء الجماعة الصالحة، و(التاريخ وحركة الإنسان)، و(الخطط والمواقف)، و(العلاقات)، للتفصيل، ينظر: المنهاج الثقافي السياسي الاجتماعي، آية الله الشهيد محمد باقر الحكيم ﷺ، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم ﷺ، الرائد للطباعة والتصميم، النجف الأشرف، ط١/، د. ت: ١٠-١٥.

[٢] الهواجس الثقافية في المشروع الحضاري المعاصر (شرح مزجي لإحدى الخطب المحورية التي تفضل بها الإمام الخامنئي حفظه الله ١٣٧٣ عام هـ. ش. بالاستفادة من خطب أخرى له في تواريخ مختلفة)، جمع وتنظيم النصّ: مركز صهبا، تر: علي الحاج حسن، مراجعة الترجمة: عباس نور الدين وعزة فرحات، دار المعارف الحكمية، بيروت - لبنان، ط٢، ٢٠١٥ م - ١٤٣٦ هـ، ٥٢.

[٣] الثقافة: ماهيتها، مسارها، وتحوّلاتها، الإمام الخامنئي (حفظه الله)، تر: عباس نور الدين، دار المعارف الحكمية، بيروت - لبنان، ط/١، ٢٠١٦ م- ١٤٣٧هـ: ٦٦-٦٧

[٤] الهوية هنا تعني (مجموعة الميزات والسلوكيات التي تميّز الشخص عن غيره، فالهوية الإسلامية هي السلوكيات والسمات التي تميّز المسلمين عن غيرهم، وتساهم في بناء ذواتهم والتعريف بهم، وترتكز الهوية على عدّة مقدمات أهمها العقيدة والتاريخ، والهوية لها مظاهرها العقائدية والعبادية والاجتماعية والاقتصادية إلى غير ذلك ويعتبر الحجاب الإسلامي أحد أهم سمات الهوية عند المرأة المسلمة، وتعبر الهوية عن ذاتها من خلال مظاهر عبادية كالصلاة والشعائر الدينية، ومن خلال المظاهر الاجتماعية كالتزاور وأدب السلام)، تأثير القيم الأخلاقية في حفظ هوية ومكانة المرأة المسلمة في موجة الصحوة الإسلامية (بحث)، كفاح الحداد، دراسات الصحوة الإسلامية، س١، ع١، ربيع ٢٠١٢ م — ١٤٣٣ هـ، ١٠٨.

[٥] الثقافة: ماهيتها، مسارها، وتحوّلاتها، ٦٧.

يتحدّث العلّامة الشهيد مطهري عن تلك الجدلية القائمة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ويرى أن مشكلة الصراع تكمن في البدائل فمتى ما كنّا قادرين على طرح البدائل الناضجة فنحن في موقع الانتصار، يقول: (يؤمن الإسلام أن الاشتغال تصفية التناقضات على الساحة الاجتماعية بصيغها التشريعية مع ترك ذلك المعين الذي يفرز الجدل والتناقضات على حاله هو نصف العملية، هو النصف المبتور من العملية. إذ سرعان ما يفرز ذلك صيغاً أخرى وفق هذه العملية التي سوف تستأصل بها الصيغ السابقة) ليكمل قائلاً: (لا بدّ للرسالة التي تريد أن تضع الحل الموضوعي

للمشكلة أن تعمل على كلا المستويين أن تؤمن بجهادين: بالجهاد الأكبر كما سمّاه الإسلام، وهو الجهاد لتصفية ذلك التناقض الرئيسي، ولحل ذلك الجدل الداخلي. وجهاد آخر في وجه كل صيغ التناقض الاجتماعي، في وجه كل ألوان استئثار القوي للضعيف من دون أن نحصر أنفسنا في نطاق صيغة معينة من صيغ هذا الاستئثار، لأن الاستئثار جوهره واحد مهما اختلفت صيغه)، المجتمع والتاريخ، الشهيد مرتضى مطهري، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط١، ٢٠١٢م- ١٤٣٣هـ، ٣١٢.

[٦] الإمام الخميني وثورته، سماحة آية الله المجاهد الشيخ عيسى أحمد قاسم، مركز المصطفى للترجمة والنشر، قم المقدسة، ايران، ١٤٣٧ ه. ق - ١٣٩٦ ه. ش: ١٥٦.

[٧] الثقافة: ماهيتها، مسارها، وتحوّلاتها، ٦٧.

[٨] أجوبة الاستفتاءات،

[٩] تكرّر في استفتاءات سماحته هذا الوصف (المعادية) أكثر من مرة، وكان السبب للحرمة حسب فتواه ففي جواب (س٢٩٦: لمواجهة الغزو الثقافي على مجتمعنا الإسلامي، ما هو واجب المرأة في الوقت الحاضر؟) قال: ج: أحد أهم واجباتها هو الاحتفاظ بالحجاب الإسلامي وترويجه، والتحرّز عن الملابس التي تعدّ تقليداً للثقافة المعادية)، وكذلك في جواب (س٢٩٣: هل يجوز للنساء المشاركة في مراسم الاستقبال والترحيب التي تقوم بها الوزارات والإدارات الحكومية وغيرها، للترحيب وتقديم الزهور للوفود؟ وهل يصح تبرير استقبال النساء للوفود الأجنبية، بأننا نريد أن نُظهر للبلاد غير الإسلامية حرية واحترام المرأة في المجتمع الإسلامي؟

ج: لا وجه لدعوة النساء للمشاركة في مراسم الاستقبال والترحيب بالوفود الأجنبية، ولا يجوز ذلك إذا كان موجباً للمفاسد ونشر الثقافة غير الإسلامية المعادية للمسلمين)، أجوبة الاستفتاءات.

[١٠] ينظر: التجديد والاجتهاد الفكري عند الإمام الخامنئي، دار المعارف الحكمية، بيروت - لبنان، ط/٢، ٢٠١١ م، ٥٤-٥٥.

[١١] أسس النهضة الاجتماعية، عباس نور الدين، بيت الكاتب للطباعة والنشر والتوزيع، كركز باء للدراسات، بيروت — لبنان، ط/١، ٢٠١٠ م، ٦٥.

[١٢] تحديد الأهداف الثقافية، الإمام الخامنئي، تر: عباس نور الدين، دار المعارف الحكمية، بيروت - لبنان، ط/١، ٢٠١٦ م - ١٤٣٨ هـ، ٢٠.

[١٣] القضية تتخذ في ذهن الولي الفقيه نمطاً من القلق الفكري المنتج؛ المتمثّل بالرصد الواقعي للمشكلة الثقافية، وما يتبع ذلك من ضرورة البحث عن تفسيرات واقعية ومقبولة، وافتراضات تمليها على سماحته الولاية العامة بما تحمله من هواجس قيادية غرضها الوصول للأفضل في القضاء على المشاكل، وزرع البدائل.

[١٤] الثقافة وبناء المجتمع، في ضوء إرشادات سماحة القائد (حفظه الله)، إعداد ونشر: دار الولاية للثقافة والإعلام، قم المقدسة،

الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ط/١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ١٩.
[١٥] مفاهيم الثورة على ضوء مواقف الإمام الخامنئي فيما يتعلّق بالثورة الإسلامية، تعريب: حسن علي حسن، مركز الهدى للدراسات الحوزوية، النجف الأشرف، مطبعة الصنوبر، ط/١، ١٤٣٣ ه — ٢٠١٢ م: ج٣ /٥٧.
[١٦] الثقافة وبناء المجتمع، في ضوء إرشادات سماحة القائد (حفظه الله): ١٩.
[١٧] المصدر نفسه: ١٩.
[١٨] الإسلام والحداثة، من صدمة الحداثة إلى البحث عن الحداثة الإسلامية، زكي الميلاد، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت — لبنان، ط١، ٢٠١٠ م: ٢١.
[١٩] مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، دينس كوش، تر: منير السعيداني، مراجعة: الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، ط/١، بيروت، ٢٠٠٧ م: ١٤٧.
[٢٠] الثورة مظهر لتحرك الدين بوجه الطواغيت، السيد علي الخامنئي (دام ظله)، تهذيب وتعليق: علي عاشور، مؤسسة التاريخ الغربي، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٧ م، ١٤٢٨ه: ٦٠.
[٢١] مدخل في النظرية السياسية للإمام الخميني ﷺ، د. محمد رضا دهشيري، مركز الهدى للدراسات الحوزوية بالتعاون مع المستشارية الثقافية الإيرانية في بغداد، ط/١، ٢٠١٣ م- ١٤٣٤ هـ: ١٠٥.

ملف الأربعين الحسيني: مسيرة العشق والولاء والتحدي

الشيخ مشتاق الساعدي
أستاذ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف

زيارة الأربعين والتمهيد للظهور المهدوي

من أهمّ الأرصدة المعنوية الماضية التي يمتلكها أتباع مذهب آل البيت عليهم السلام هو وجود إمام ثائر عندهم، كانت وما زالت ثورته نبراس الثورات، وتضحيته أُمُّ التضحيات، وحرارة مقتله من أشدّ المهيِّجات، فتولَّد لديهم ببركة ثورته ما لم يتولَّد عند غيرهم، وهو عنصر الإصلاح لا لمصلحة دنيوية ولو كلَّف ذلك الحياة، وإنَّ الذلَّة لا وجود لها في صفحة الحياة...، إيماناً منهم بتضحياته وبكلماته...، والتي منها: «ما خرجت أشراً ولا بطراً وإنَّما لطلب الإصلاح»[1]، وأيضا «... هيهاتَ منّا الذلَّة»[2]

وكذلك «... لا أُعطي بيدي إعطاء الذليل ولا أقرُّ لكم إقرار العبيد[3]»، «... مثلي لا يبايع لمثله»[4].

ومن الأرصدة المعنوية المستقبلية التي يمتلكها أتباع مذهب آل البيت عليهم السلام الإيمان بالإمام الغائب المنقذ الذي يملؤها قسطاً وعدلاً بعد ما مُلِئَت ظلماً وجوراً، وأنَّه إمامهم الثاني عشر. وهذا الإيمان هو ممَّا يُحفِّزهم على العمل الجادِّ في التمهيد لظهوره، والاستعداد للانخراط تحت قيادته، والانتظار لفرجه. فإنَّ الانتظار للإمام المنقذ عليه السلام من أهم المحفِّزات على العمل الديني والاجتماعي والإعداد لذلك من أهمّ الطاعات. فبين تراث الماضي وأمل المستقبل تكوّن الحاضر الايماني والتعبوي لدى أتباع الحقِّ، وتولَّدت حالة معنوية عالية تمخَّض منها عدَّة فعّاليات وعبادات وتحرّكات منها:.

الروح الجهادية والقتالية التي يمتلكها الأتباع دون غيرهم، ونموذج الحشد الشعبي شاهد على ذلك، وهذا يحتاج إلى إفراد أبحاث مستقلَّة للوقوف على هذه الظاهرة. عدم الانصياع للحكومات الظالمة، وعدم الارتباط بها من كلِّ النواحي. الاستقلالية في إدارة المذهب فكرياً واقتصادياً، وعدم الارتباط بأيِّ أجندة... وغيرها العشرات

ومن هذه الفعّاليات العبادية المهمَّة فعّالية الزيارة الأربعينية المقدَّسة، فهذه الفعَّالية تميَّزت بربط الماضي الحسيني بالمستقبل المهدوي لتوليد حاضر يفرض علينا واقعاً يجعلنا نُنظِّم أنفسنا من كلِّ النواحي استعداداً وتمهيداً لدولة الحقِّ.

فالذي يطَّلع على وقائع زيارة الأربعين وما يراه من تجمهر عشرات الملايين زماناً ومكاناً وبلغات وقوميات وتوجّهات شتّى - يجمعهم رجل واحد اسمه الحسين عليه السلام، وينادون بنداء واحد هو: (**اللَّهُمَّ عجِّل لوليِّك الفرج، وسهِّل له المخرج**) - يرى بوضوح أنَّ تلك الزيارة من أهمّ ممهِّدات الظهور

وفي هذا البحث المختصر نقف

على أهمّ تلك المعطيات التي لها دور في الظهور، وسنغضُّ النظر عن ما للزيارة من أهمّية واضحة ومعطيات جمَّة في شتّى المجالات، لأنَّ هدفنا هو التركيز على هذه المفردة العظيمة، وهو دور الأربعين في التمهيد للظهور وصناعة الشخصية المهدوية. فالتمهيد وانتظار الفرج أهمّ المفردات التي تُشغِل ذهن البشرية المؤمنة، فالعمل عليه ومعرفة ما يقرب الظهور ويرفع الموانع من أهمّ العبادات في الغيبة كما ورد في الروايات: «أفضل الأعمال انتظار الفرج»، ففي الإمامة والتبصرة من الحيرة: «**إنَّ النَّبِيَّ قَالَ: أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي انْتِظَارُ الْفَرَجِ، وَلَا يَزَالُ شِيعَتُنَا فِي حُزْنٍ حَتَّى يَظْهَرَ وَلَدِيَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ أَنَّهُ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطاً، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً**»[٥]، ولكن ليس كلُّ انتظار هو ممدوح، وإنَّما الانتظار مع الإيمان والعمل الجادِّ في التمهيد للإمام عليه السلام، والعمل طبقاً لمراد الشريعة، لا الانتظار مع الخمول واليأس وارتكاب المحرَّمات والتسليم للظلم والظالمين.

وهناك جملة من الأعمال تُمهِّد للظهور وترفع بعض موانعه وهي تقع على عاتق المؤمنين، منها: إكمال عدَّة (٣١٣)[٦]، الذين يُشكِّلون النواة القيادية الأُولى حول الإمام عليه السلام، ومنها: الدعاء له بالفرج، وغيرها، ففي الرواية: «**فَإِذَا اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْعِدَّةُ مِنْ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ أَظْهَرَ أَمْرَهُ**»[٧]، فظاهر الرواية أنَّ اجتماع العدَّة (٣١٣) شرط لإظهار أمره. ومن جملة الممهِّدات والمربّيات لمجتمع الظهور هي زيارة الأربعين لما لها من أبعاد مختلفة وعديدة، نحاول التركيز عليها وبيانها وتطويرها والدفع بالمؤمنين نحو جعلها من الطرق العبادية التي يُتمسَّك بها لبناء شخصية الظهور. ونطرح دور الأربعين في البناء للظهور في محاور هذا مجملها:

البناء المعنوي والروحي.

البناء الاقتصادي.

البناء التعبوي

البناء الاجتماعي

البناء الفكري والعلمي

البناء الأمني البناء الأخلاقي.

المحور العسكري.

المحور الإعلامي.

المحور التمريني والتدريبي.

المحور التكافلي.

البناء السياسي.

المحور الأوّل: البناء المعنوي والروحي:

من أهمّ ما يساهم في التمهيد للظهور هو بناء شخصية معنوية وروحية لدى المؤمن تُؤهِّله لنصرة القيام المهدوي، وهناك آليات عديدة لبناء الشخصية الإسلاميَّة عموماً، ولعلَّ أهمّ تلك الآليات هو اتِّخاذ القدوة الحسنة والسير على نهجها والتزوّد بالعلم والمعرفة وغيرها. وبناء هكذا شخصية يجعل الإنسان قويّاً عند الشدائد، صبوراً عند النوائب، عزيزاً يأبى الذلَّ، شجاعاً لا يعرف الجبن، صادقاً لا يكذب، أميناً لا يخون... الخ. ومن الآليات المهمَّة أيضاً هو انتهاج السلوك العبادي واتِّخاذه وسيلةً للتقرّب لله وبناء ملكات وفضائل وكسر الشهوات ومحو الرذائل، فالصلاة – مثلاً – لها آثارها المعنوية الكبيرة كما نطقت الآيات والروايات، فهي تُعطي حصانةً للإنسان عن الوقوع في الفحشاء والمنكر ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وهي وسيلة للتقرّب للساحة الإلهيَّة والابتعاد عن الخطط الشيطانية «الصلاة قربان كلِّ تقي»[٨]، وهي سبيل للعروج إلى الربِّ «**الصلاة ميزان أُمَّتي**»[٩]، إلى غير ذلك من الآثار. وهكذا الصوم والحجّ والجهاد وأداء الحقوق الشرعية وغيرها كلٌّ له آثاره وبناءه لشخصية الإنسان المؤمن وتربيتها تربية إسلاميَّة. وزيارة الأربعين –

وبالخصوص مشياً - تُمثِّل ممارسة عبادية متنوّعة وطويلة الأمد زماناً ومسافةً - تشابه إلى حدٍّ ما موسم الحجِّ من حيث التنوّع العبادي والجهد المعنوي والتعبوي، فيمارس فيها مجموعة من العبادات كالزيارة والصلاة - وخصوصاً صلاة الجماعة - والتسبيح والوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء والمشي - بناءً على عباديته - وغيرها.

وهذه الممارسات العبادية المتنوّعة تخلق - خصوصاً مع طول أمدها واستمراريتها - جوّاً روحياً عالياً من خلال ما يحصده المؤمن من حسنات ومحو للسيِّئات ورفع للدرجات وتوطين النفس على الصعوبات، وخصوصاً المشي مع تحمّل المتاعب والحرِّ والبرد وتورّم الأقدام وتغيّر اللون وذبول الشفاه والجوع والخوف - كما في زمن الطغاة -، وغيرها من الصعوبات. وهذا يخلق شخصية دينية صلبة الإيمان كي تكون مؤهَّلة ومستعدَّة لنصرة الإمام الحجَّة عليه السلام، ممَّا يُوفِّر أحد مقتضيات تعجيل الظهور، وهو وجود الموارد البشرية الناضجة والمستعدَّة استعداداً حقّاً لنصرة المنقذ سواء من عدَّة (٣١٣) أو من عدَّة (١٠,٠٠٠) كما نطقت الروايات، منها: «... **فَإِذَا أُكْمِلَ لَهُ الْعَقْدُ وَهِيَ عَشَرَةُ آلاف [آلَافٍ] رَجُلٍ خَرَجَ بِإِذْنِ اللهِ، فَلَا يَزَالُ يَقْتُلُ أَعْدَاءَ اللهِ حَتَّى يَرْضَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»[١٠]، فإكمال العِدَّة يُمثِّل أحد المقتضيات المهمَّة للظهور، فلا يبقى إلَّا بعض المقتضيات الأُخرى وزوال المانع.

وهناك بعض روايات المشي وأجرها: لذا وردت روايات في المشي وأهمّيته العبادية، نذكر منها وهي مستفيضة، بل متواترة، وفيها الصحاح، فلا حاجة لبحث سندها، منها:

عن أبي الصامت، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**مَنْ أَتَى قَبْرَ الْحُسَيْنِ مَاشِياً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ**

لَـهُ أَلْـفَ دَرَجَـةٍ»[11]. عـن عـليٍّ بـن ميمون الصائغ، عـن أبي عبـد الله عليه السلام، قال: «يَا عَلِيُّ، زُرِ الْحُسَيْنَ وَلَا تَدَعْـهُ»، قَالَ: قُلْتُ: مَا لِمَنْ أَتَاهُ مِـنَ الثَّـوَابِ؟ قَالَ: «مَنْ أَتَاهُ مَاشِياً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُـلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةً، وَمَحَى عَنْهُ سَـيِّئَةً، وَرَفَـعَ لَهُ دَرَجَةً، فَإِذَا أَتَاهُ وَكَّلَ اللهُ بِـهِ مَلَكَـيْنِ يَكْتُبَانِ مَا خَرَجَ مِنْ فِيهِ مِـنْ خَـيْرٍ، وَلَا يَكْتُبَانِ مَا يَخْرُجُ مِـنْ فِيـهِ مِـنْ شَرٍّ، وَلَا غَـيْرَ ذَلِـكَ، فَـإِذَا انْصَـرَفَ وَدَّعُـوهُ، وَقَالُوا: يَا وَلِيَّ اللهِ، مَغْفُوراً لَـكَ، أَنْـتَ مِنْ حِزْبِ اللهِ وَحِزْبِ رَسُولِهِ وَحِـزْبِ أَهْلِ بَيْتِ رَسُـولِهِ، وَاللهِ لَا تَـرَى النَّـارَ بِعَيْنِكَ أَبَـداً، وَلَا تَـرَاكَ، وَلَا تَطْعَمُـكَ أَبَداً»[12] عن بشـير الـدهّان، عـن أبي عبـد الله عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُـلَ لَيَخْـرُجُ إِلَى قَبْرِ الْحُسَيْنِ فَلَهُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِهِ بِأَوَّلِ خُطْوَةٍ مَغْفِرَةُ ذُنُوبِهِ، ثُمَّ لَمْ يَـزَلْ يُقَـدَّسُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَتَّى يَأْتِيَهُ، فَإِذَا أَتَاهُ نَاجَـاهُ اللهُ تَعَالَى فَقَالَ: عَبْدِي سَـلْنِي أُعْطِـكَ، اُدْعُنِي أُجِبْـكَ، اُطْلُـبْ مِنِّـي أُعْطِـكَ، سَلْنِي حَاجَةً أَقْضِيها»[13].

فالروايات واضحة في دور المشـي لزيـارة الحسـين عليه السلام في البنـاء المعنـوي وتحصـيل الأجـر الرافـع للـدرجات، وهـو ممَّـا تحتاجـه الشخصـية الممهِّـدة للإمام الحجَّة عليه السلام خصوصاً مع اقـتران الزيارة بالدعاء بالفرج مـن قِبَـل هـذا الزائر الذي يقول له الله تعالى - كما في الرواية الماضية -: «اُدعني أجبك».

المحور الثاني: البناء الاقتصادي:

إنَّ القوَّة الاقتصادية وتأمين الوضـع المالي مـن أهـمّ مقوّمـات نجـاح الأُمـم والحركـات بعـد المـوارد البشـرية، وكذلك معرفة كيفية إدارة المـال وعـدم الإسراف به والتبذير وحسن الاقتصـاد بالصـرف يُشـكِّل قوامـة اقتصـادية أُخرى.

فالمال والاقتصاد له أهمّية في البنـاء الاجتماعي والفـردي، ودوره مهـمٌّ في خلـق حيـاة سـعيدة وأُسرة صـالحة وحياة آمنة - كونه أحـد مقوّماتهـا -، ولا يعني ذلـك أنَّـه علَّـة تامَّـة لتلـك

الأُمور، بل قد يكون وبالاً على الإنسان إذا لم يُحسِن التصرّف، فهو سلاح ذو حدّين. والقرآن في اللحظة التي يُبيِّن أنَّ المال زينة ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (الكهف: ٤٦)، يُبيِّن أنَّ المال فتنة ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ (التغابن: ١٥)، فهو زينة ومفاد إيجابي إذا صانه ووضعه في موضعه واتَّخذه وسيلةً للآخرة وكفى به نفسه وعياله ومجتمعه وأُمَّته الإسلاميَّة وقضى حوائجهم، وهو فتنة وعذاب إذا ما ضيَّعه وبذَّره وجعله وسيلةً للدنيا والشهوة والحرام وانتهاك الأعراض وقتل النفوس.

وكذلك الروايات بيَّنت هذه الحقيقة ومدحت المال مع الدين وذمَّت المال إذا كان وسيلةً للعصيان، ووازنت بين النظرتين[١٤]. ومن الممارسات الإيجابية للمال والاقتصاد هو ما تقوم به الجموع المؤمنة من ممارسات عبادية في الأربعين، وتوظيف القوَّة المالية في إحياء هذه المناسبة - من خلال الصرف المالي على المواكب وإطعام الطعام الذي تمارسه المواكب لملايين الزائرين -، وهذا ما يُمثِّل قوَّة اقتصادية كامنة في الأُمَّة الحسينية التي هي أُمَّة الإمام المهدي عليه السلام وناصرته، فلا ميزانية مالية ولا دعم دولة ولا حزب وإنَّما هي تمويل من شعب الحسين لزوّار الحسين عليه السلام، وهذا التمويل الهائل ما هو إلَّا ممارسة وتدريب اقتصادي على الصرف المالي المنضبط الذي يمارسه المهِّدون للظهور، وثقافة متقنة على الصرف والبذل في سبيل الدين وإنجاح الثورة المهدوية. وهذه الممارسة والاستعداد للصرف، بل والصرف الفعلي لم يكن لولا هذه الزيارة المباركة، فإذا كان عصر الظهور فلا يجد المؤمن حرجاً في الصرف المالي بعد أن مارس الصرف لعشرات السنين على جمهور الحسين عليه السلام.

خصوصاً وأنَّ بعض المؤمنين يقاسم زوّار الحسين عليه السلام قوت عياله ومؤنته السنوية، لكي يُنفِقها في موسم

الزيارة، بل بعضهم - كما سمعت ورأيت بأُمِّ عيني - يبيع بيته أو سيّارته ويشتري ما هو أقلّ منهما إذا لم يكفِ ما جمعه للموسم.

فهكذا عمل يصدر من هكذا شعب حسيني يُؤهِّلهم لتكوين مجتمع مهدوي يقود الأُمَّة إلى برِّ الأمان، ويبني اقتصاداً رصيناً يكفُّ حاجة الأُمَّة.

المحور الثالث: البناء التعبوي:

من المفاهيم المهمَّة في عالم الدعوة وتجميع الجماهير والأنصار هو مفهوم التعبئة، وهي قوَّة شعبية كامنة أو ظاهرة لها حضورها في كلِّ نواحي الحياة لخدمة قضيَّة ما تهمُّ الوطن أو المواطن، وهي على أنواع، فقد تكون تعبئة عسكرية أو إعلامية أو اجتماعية أو غيرها. ومن أهمّ أنواعها هو التعبئة الاجتماعية، وهي تحريك واستنفار المجتمع بكلِّ قطاعاته للمشاركة الإيجابية لتحقيق الأهداف المطلوبة. ولا بدَّ أن تشمل التعبئة الاجتماعية جميع قطاعات المجتمع من المسؤولين الرسميين والسياسيين، قادة الرأي، القادة المحلّيين وجموع المواطنين (نساء، رجال، بل الأطفال من مدارسهم) وهذا ما يحصل فعلاً في زيارة الأربعين، فإنَّ هناك تعبئة جماهيرية عامَّة لتحقيق هدف ديني هامّ في حياة الفرد والمجتمع.

فمن أهمّ ما تحتاجه كلُّ دعوة سماوية كانت أم أرضية هو وجود قوَّة معنوية أو مادّية أو شخصية قيادية تمتلك (كاريزما) عالية تستطيع أن تخلق جمهوراً وأتباعاً من خلال التعبئة الجماهيرية الواسعة التي تُقدِّم الولاء والخدمة مجّاناً وبلا مقابل. والذي يلاحظ زيارة الأربعين لا يجد أيّ مجهود في التعبئة الجماهيرية، بل الجمهور مقبل على الزيارة وعلى الخدمات بلا نظير، بل كثير من الجماهير يُنفِق أموالاً وجهداً مضاعفاً في تلك الأيّام ويبتهج بذلك الصرف وبهذا الجهد.

وهذا العمل التطوّعي العظيم لا تجد له نظيراً في كلِّ العالم، وهو مفخرة يتميَّز بها أتباع آل البيت عليهم السلام، وهو من ثمرات الثورة الحسينية الخالدة. وهذه التعبئة الجماهيرية في الزيارة إنَّما هي صورة من صور التعبئة للإمام المهدي عليه السلام حال قيامه بالثورة العالمية المباركة. فالجمهور الحسيني معبَّأ للحركة المهدوية ومستعدّ لها على أحسن ما يكون، فلا نحتاج أن نعدَّ برامجاً تعبوية كثيرة لأجل الحركة المهدوية – من هذه الجهة – لأنَّها معدَّة إعداداً واضحاً وبخبرة تمتدُّ مئات السنين، نعم نحتاج إلى برامج مهدوية أُخرى من جهات أُخرى. فدور زيارة الأربعين في تعبئة المؤمنين تعبئة مهدوية واضحة وفعّالة من خلال الحرارة التي تكوَّنت في قلبهم بمقتل الحسين عليه السلام.

المحور الرابع: البناء الاجتماعي:

من أهمّ ما يُميِّز المجتمع الناجح والصالح هو قوَّة الترابط الاجتماعي بين أفراده وعملهم كخليَّة النحل الواحدة لإنجاز مهامّهم المناطة بهم، ممَّا يساعد على البناء السليم لكلِّ مفاصل الحياة سواء كانت فردية أو اجتماعية ويساعد على أن ينال كلُّ فرد فرصته في الحياة. لذا نجد الروايات اهتمَّت كثيراً بالترابط الاجتماعي بين كلِّ أفراد المجتمع سواء كانوا من الأرحام أم لا، ومن هذه الروايات: عن مرازم، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، إنَّه لا بدَّ لكم من الناس، إنَّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لا بدَّ لبعضهم من بعض»[١٥].

وعن حبيب الخثعمي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «عليكم بالورع والاجتهاد، واشهدوا الجنائز، وعودوا المرضى، واحضروا مع قومكم مساجدكم، وأحبّوا للناس ما تُحِبُّون لأنفسكم، أمَا يستحيي الرجل منكم أن يعرف جاره حقّه ولا يعرف حقّ جاره»[١٦]، وعن زيد الشحّام، عن أبي

عبد الله عليه السلام: «... صِلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإنَّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدّى الأمانة وحسن خُلُقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فيسرّني ذلك، ويدخل عليَّ منه السرور»[17] إلى غيرها من الروايات وآداب التعاشر والترابط الاجتماعي[18].

وبالمقابل من أهمّ ما يُدمِّر المجتمع هو كثرة النزاعات والخلافات والتحزّبات وتحوّله إلى شِيَع يتلاعب به الظلمة ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (القصص: ٤)، وهذه سُنَّة قائمة يتَّخذها الظالمون لإضعاف المجتمع. كما أنَّ التنازع سبب واضح لهدر الطاقات وضياع الفُرَص والتراجع الفردي والاجتماعي على كلِّ المستويات.

لذا يحرص علماء الاجتماع في البلدان على خلق جوٍّ اجتماعي بين أفراد مجتمعاتهم بعيداً عن الخلافات والصراعات والشتات، والحرص على خلق روح التعاون والمحبَّة وتقوية الروابط الاجتماعية والأُسرية. والذي يلاحظ الزيارة الأربعينية يرى قوَّة الترابط بين أفراد الزائرين كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً أثرياء وفقراء رؤساء ومرؤوسين، فلا تميّز بين غني أو فقير ولا بين مشهور أو مغمور... الخ.

فالكلُّ سواسية، بل في بعض الأحيان ينقلب الميزان وترى الكبير يخدم الصغير، أو المشهور يخدم المغمور، أو الرئيس يخدم المرؤوس، وهكذا. فترى الترابط الاجتماعي بأعلى صورة وبأجمل ما يكون، وكأنَّك تسير في مجتمع ملائكي، وهذا البناء إنَّما هو بناء نابع من هذه الزيارة المباركة. وهذا الترابط الاجتماعي ليس بين مدينة ومدينة، بل بين دولة ودولة، بل بين دول ودول وشعوب وشعوب، فإنَّ هناك جماهير من

عشرات الدول تلتقي فيما بينها فتكوّن أواصر ووشائج قويَّة.

وهذا فضلاً عن أنَّ هناك حواجز اجتماعية ونفسية وثقافية بين شعوب بعض البلدان والبلدان الأُخرى بسبب حروب أو غيرها، ولكنَّنا نراها قد ذابت بسبب هذا الملتقى العامّ الحاصل في زيارة الأربعين. فزيارة الأربعين تجعل الترابط الاجتماعي ليس بين أبناء بلد ما فحسب، بل بين الشعوب والبلدان الأُخرى ممَّا يُعزِّز خلق نسيج اجتماعي كبير يربط دولاً وشعوباً فيما بينها بالرغم من اختلافها باللغة أو اللون أو الثقافة أو غيرها، لخلق مجتمع مهدوي منسجم فيما بينه ممَّا يسهم في الظهور. إنَّ زيارة الأربعين تلغي الطبقية، وتلغي القطرية، وتلغي العرقية، وتلغي القومية، وتلغي العنصرية، وتخلق مجتمعاً مترابطاً يرتبط بمنقذ عالمي اسمه المهدي عليه السلام.

فزيارة الأربعين تُعمِّق الوجود التعارفي الذي خُلِقَ له الإنسان كما عبَّرت الآية: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣) إنَّ زيارة الأربعين فرصة كبيرة للانفتاح الحضاري بين أُمَّة الإيمان، ومجال لحوار الحضارات على أُسس دينية تدعونا إلى الانتظار للإمام والإعداد له كلٌّ من دولته ولغته وعرقه وقوميته، فيكون ذلك تمهيداً ودعوة إلى عالمية دولة الإمام الحجَّة عليه السلام.

المحور الخامس: البناء الفكري والعلمي:

إنَّ تحصين الأُمَّة فكرياً وعلمياً من أهمّ الواجبات التي تقع على عاتق المؤسَّسات الدينية، ولعلَّ تسويق المعلومة إلى الجمهور يُعَدُّ من أهمّ المشكلات التي تواجه المبلِّغ. لذا يجب

علينا استثمار المواسم التي يسهل فيها تسويق المعلومات إلى الجمهور، والمتابع لسيرة النبيِّ وآل البيت عليهم السلام يرى أنَّهم يدأبون على استثمار المواسم العبادية لإيصال صوتهم للجماهير كما في مواسم الحجِّ والعمرة وصلاة العيد والجمعة والجماعة والمجالس والمآتم الحسينية. لذا كانت لهم خطب وكلمات ومواقف في تلك المواسم سجَّلها التاريخ ونقلتها الأحاديث. ولعلَّ شعائر الحسين عليه السلام عموماً وزيارة الأربعين خصوصاً من أهمّ ما يُسوِّق المعلومات الدينية للجمهور في هذه الأيّام. إنَّ خلق مجتمع متعلِّم على سبيل النجاة يُعَدُّ من أهمّ ركائز البناء الديني للفرد والمجتمع، بل هو قوام للدين والدنيا، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قوام الدين والدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلَّم»[19].

ومن جملة البناء الديني المهمّ في عقيدة المؤمن هو بنائه مهدوياً، وذلك من خلال استثمار ذلك الموسم لتبليغ القضيَّة المهدوية للناس وتعريفهم بتفاصيلها وتحصينهم فكرياً ضدَّ الدجّالين والمدَّعين والمشوّهين. فيكون موسم الزيارة موسم تبليغ وترويج لقضيَّة الإمام المهدي عليه السلام، ويقع هذا التبليغ على عاتق الجميع - خصوصاً أهل التخصّص بالقضيَّة المهدوية - من خلال المحاضرات والإرشادات والنشرات والكتب وغيرها. فالزيارة فرصة كبيرة لتسويق القضيَّة المهدوية للعالم ككلٍّ، وتوعية الجماهير بها، والتركيز على عنصر الانتظار، والاستعداد للظهور، وبناء الدولة العالمية الإلهية المنقذة لكلِّ الشعوب المظلومة، ومن نماذج ذلك:

العمل على إزالة الشبهات التي تثار حول قضيَّة الإمام المهدي عليه السلام كولادته، وطول عمره، وفائدته في زمن الغيبة، وإرهاصات ظهوره، وغيرها ردُّ الشبهات المعاصرة كشبهة ابن گويطع وغيره بطرق علمية

مبسَّطة. تشخيص القضايا المهدوية المهمَّة وبيانها للمجتمع بطرق سهلة ومناسبة. ويتمُّ ذلك من خلال: عقد الندوات والبرامج المهدوية في وسائل الإعلام وخصوصاً المرئية. إجراء المسابقات العامَّة للاستكتاب في قضايا معاصرة تخصُّ القضيَّة المهدوية. إجراء المسابقات العامَّة بين المؤمنين من خلال طرح أسئلة والإجابة عنها. الكتابة بالصحف والمجلّات العامَّة وخصوصاً المجلّات العالمية وبلغات مختلفة لإيصال القضيَّة المهدوية للعالم. إرسال المبلِّغين المتخصّصين إلى المجتمع لتبليغ القضيَّة المهدوية واستثمار المواسم العامَّة لذلك. حثُّ الخطباء عموماً وخطباء المنبر الحسيني خصوصاً على طرح القضيَّة المهدوية وكتابة محاضرات تخصّصية لهم في ذلك. إنشاء مراكز تخصّصية علمية وبحثية في الإمام المهدي عليه السلام وأبعاد حركته. إنشاء مؤسَّسات تهتمُّ بإقامة فعّاليات ميدانية وكشّافة ومخيَّمات ودورات للجامعيين وطلّاب المدارس تُعرِّفهم بالإمام المهدي عليه السلام وحركته. وغيرها من الوسائل[٢٠]. المحور السادس: البناء الأمني:

تُشكِّل الحصانة الأمنية للشعوب والدول ركيزة أساسية في البناء السليم لها ودفع المخاطر عنها، لذلك تقاس قوَّة الدول وقدرتها على مقاومة المخاطر بقوَّة نظامها الأمني العامّ. إنَّ التحصين الأمني يُعَدُّ اليوم من أهمّ مقوّمات النجاح لأيِّ حركة تريد الإصلاح والتغيير، وهذا التحصين الأمني لا ينفع كثيراً إذا لم يخرج من النظرية إلى التطبيق، فلا يُكتفى بمعرفة البناء الأمني والمباني الأمنية من دون أن تُحوَّل تلك المعرفة إلى تطبيق عملي على أرض الواقع. وآل البيت عليهم السلام جعلوا نظاماً أمنياً كبيراً - يستحقُّ دراسات مستقلَّة - في كيفية التعامل مع الصديق والعدوِّ، ولعلَّ أهمّ مفاصله روايات التقيَّة[٢١] وروايات

كشف الأسرار والإذاعة[٢٢]، فهي تُؤسِّس لنظام أمني مركَّز في التعامل العامّ وكيفية تحصين الأُمَّة المؤمنة. وزيارة الأربعين هي بناء وتدريب أمني معمَّق لعموم المكلَّفين وبالأخصّ لأصحاب المسؤولية في المواكب والزيارة. فهم يعملون على عدم السماح بالاختراق لأيِّ شخص غريب أو غير معرَّف سواء داخل الموكب أو أثناء المسير أو ممَّن يُوزِّع الطعام أو غيرها من الخدمات، وحتَّى من يُشتَبه به يبقى تحت المراقبة والاختبار حتَّى يرفع اللبس عنه ويتبيَّن أمره.

وهذا ملاحظ بشكل كثير خصوصاً من له تجربة عملية مع أصحاب المواكب والخدمات والزائرين، فهم يلاحظون حركات وتصرّفات وسكنات الزائر وتوجّهاته وحتَّى كلامه ومواقفه، ويسهرون إلى الصباح للحفاظ على أمن الزائر وممتلكاته وحرمته. خصوصاً أمن الزائرات المؤمنات، لذا ترى أنَّ المرأة تعيش أيّام الزيارة حالة من الأمن من كلِّ النواحي، فلا تخاف على عرضها ولا على مالها ولا على حياتها ما دامت سائرة في هذا الطريق المبارك، وحتَّى الزائرات الأجنبيات عن العراق يسرن لوحدهنَّ، بل أحياناً امرأة منفردة لوحدها تسير بلا خوف.

وهذا كلُّه بسبب النظام الأمني العالي الذي يكتنف الزيارة، وهو يفوق أيَّ نظام أمني في العالم وفي أعظم الدول الأمنية، فلا تجد مشاكل ولا تعدّياً ولا غير ذلك، وهذا لا يحصل في أعظم المجتمعات بسبب الاحتكاك والاختلاط. وفي هذا الصدد نقل لي أحد أساتذتي عن أحد السياسيين العراقيين أنَّ أحد القادة الأمنيين الأمريكيين رأى زيارة الأربعين - إبّان الاحتلال الأمريكي للعراق -، وأنَّ هذا الأمريكي كان يقول: «إنّي أتعجَّب من الشعور بالأمن طوال زيارة الأربعين، وعدم

وجود المشاكل بين الزائرين، وعدم التعدّي على حرمة الزائرات طوال وقت الزيارة، والحال أنَّنا في أمريكا لو أصبح خلل في الطاقة الكهربائية في واشنطن أو نيويورك لكانت مئات حالات الاغتصاب والتعدّي والسرقة والخ»، ثمّ قال لي: «أيُّ شخص ربّى هكذا مجتمع؟»، فقلت: «**إنَّ الذي ربّاه شخص اسمه الحسين** عليه السلام». فهذا البناء العملي الأمني يعطينا دروساً عملية تنفعنا كثيراً في التمهيد للحركة المهدوية المباركة، والحفاظ عليها، ومراقبة من يسير فيها.

المحور السابع: البناء الأخلاقي:

من أهمّ المبادئ التي ركَّز عليها التشريع هو خلق ملكات أخلاقية وصفات نفسانية في الفرد والمجتمع، وقد دأب المشرِّع على التنظير لذلك بعشرات الآيات ومئات الروايات من جهة، وأرسل أئمَّة وأنبياء بمكارم الأخلاق العظيمة عملياً من جهة أُخرى. وزيارة الأربعين تُعتَبر من الدروس الأخلاقية العملية التي تكون ملكات أخلاقية من جهة، وتكشف عملياً عن مستوانا الأخلاقي ودرجته من جهة أُخرى. ففي زيارة الحسين عليه السلام مشياً عدَّة معطيات أخلاقية نذكرها إجمالاً:

الصبر: فإنَّ الصبر قيمة أخلاقية عالية أكَّدت عليها الآيات والروايات، وإليك جملة منها: أمَّا الآيات كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ * أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٥ – ١٥٧).

أمَّا الروايات فمنها ما عن أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «... الصَّبْرُ يُعْقِبُ خَيْراً،

فَاصْبِرُوا وَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ تُوجَرُوا»[٢٣]. وعن حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قَالَ: «**الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالمَكَارِهِ وَالصَّبْرِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى المَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَجَهَنَّمُ مَحْفُوفَةٌ بِاللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَمَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ لَذَّتَهَا وَشَهْوَتَهَا دَخَلَ النَّارَ**»[٢٤]، وعن أَبِي سَيَّارٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ المُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ كَانَتِ الصَّلَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَالْبِرُّ مُطِلٌّ عَلَيْهِ، وَيَتَنَحَّى الصَّبْرُ نَاحِيَةً، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ المَلَكَانِ اللَّذَانِ يَلِيَانِ مُسَاءَلَتَهُ قَالَ الصَّبْرُ لِلصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ: دُونَكُمْ صَاحِبَكُمْ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ فَأَنَا دُونَهُ**»[٢٥]، فتبيَّن أنَّ الصبر له قيمة معنوية عالية، وله أجر عظيم، وأثر بالغ في الدنيا والبرزخ والآخرة. والمشي في الأربعين وتحمّل عناء السفر ووعثائه وما يحدث من صعاب لهو من المصاديق الواضحة للصبر، وخصوصاً المشي من أماكن بعيدة مع كثرة الزحام والابتلاءات. فزيارة الأربعين تعطينا دروساً عملية في الصبر على ما نكره من تحمّل الأذى أو الجوع أو الألم أو غيرها، والصبر على ما نُحِبُّ من طاعات.

التواضع: إنَّ سمة التواضع من أهمّ سمات وفضائل المؤمن، وهي تقع في قبال رذيلة التكبّر، وقد وقع التواضع موضوعاً للمدح في العديد من الآيات والروايات. فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً**﴾ (الفرقان: ٦٣)، وقوله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الحجر: ٨٨).

ومن الروايات نذكر رواية واحدة، في مستدرك الوسائل عن مِصْبَاحِ الشَّرِيعَةِ، قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «التَّوَاضُعُ أَصْلُ كُلِّ شَرَفٍ وَخَيْرٍ وَنَفِيسٍ، وَمَرْتَبَةٍ رَفِيعَةٍ، وَلَوْ كَانَ لِلتَّوَاضُعِ لُغَةٌ يَفْهَمُهَا الْخَلْقُ لَنَطَقَ عَنْ

حَقَائِقِ مَا فِي مَخْفِيَّاتِ الْعَوَاقِبِ، وَالتَّوَاضُعُ مَا يَكُونُ للهِ وَفِي اللهِ، وَمَا سِوَاهُ مَكْرٌ، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ شَرَّفَهُ اللهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَلِأَهْلِ التَّوَاضُعِ سِيمَاءُ يَعْرِفُهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ مِنَ المَلَائِكَةِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ مِنَ الْعَارِفِينَ، قَالَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿**وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ**﴾، وَقَالَ أَيْضاً: ﴿**مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ**﴾، وَأَصْلُ التَّوَاضُعِ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ وَهَيْبَتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَلَيْسَ للهِ (عَزَّ وَجَلَّ) عِبَادَةٌ يَقْبَلُهَا وَيَرْضَاهَا إِلَّا وَبَابُهَا التَّوَاضُعُ، وَلَا يَعْرِفُ مَا فِي مَعْنَى حَقِيقَةِ التَّوَاضُعِ إِلَّا الْمُقَرَّبُونَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّصِلُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، قَالَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) ﴿**وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً**﴾، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) أَعَزَّ خَلْقِهِ وَسَيِّدَ بَرِيَّتِهِ مُحَمَّداً بِالتَّوَاضُعِ فَقَالَ (عَزَّ وَجَلَّ) ﴿**وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وَالتَّوَاضُعُ مَزْرَعَةُ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَشْيَةِ وَالْحَيَاءِ، وَإِنَّهُنَّ لَا يَنْبُتْنَ إِلَّا مِنْهَا وَفِيهَا، وَلَا يَسْلَمُ الشَّوْقُ التَّامُّ الْحَقِيقِيُّ إِلَّا لِلْمُتَوَاضِعِ فِي ذَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». (٢٦)

وفي المشي إلى كربلاء يمرُّ الماشي بتمارين واضحة في التواضع والبساطة، فقد يبيت على فراش غير لائق، أو يمشي في الطرق الوعرة، أو يخدم غيره من الزوّار، أو يبتدأ بالسلام على من يلاقيه، وهذه كلّها من علامات التواضع كما في الرواية، ففي مشكاة الأنوار، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ رَأْسِ التَّوَاضُعِ أَنْ تَبْدَأَ بِالسَّلَامِ عَلَى مَنْ لَقِيتَ، وَتَرُدَّ عَلَى مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ، وَأَنْ تَرْضَى بِالدُّونِ مِنَ المَجْلِسِ، وَلَا تُحِبَّ الْمِدْحَةَ وَالتَّزْكِيَةَ» (٢٧). وكما أنَّ ما يُقدِّمه أصحاب الموكب هو من أعظم صور التواضع، فيقومون بفرش الفراش للزوّار، وإطعامهم، والسهر على

خدمتهم، وتوفير كلِّ الأُمور لهم تواضعاً لله وخدمةً لعنوان قد تعنونوا به وهو عنوان: (زائر الحسين).

الإيثار: من الكمالات التي تكشف عن رقيِّ نفس الإنسان اتِّصافه بالإيثار، وهو «تقديم الطرف الآخر لمصلحته وتفضيله على النفس مراعاةً له وتقديمه بمادَّة - مال مثلاً - أو منفعة أو حقّ من الحقوق»[٢٨].

وقد جاءت الآيات والروايات مادحة لهذه الصفة. فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (الحشر: ٩)، وقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ**﴾ البقرة: ٢٠٧ (، ومن الروايات ما عن عَلِيِّ بْنِ سُوَيْدٍ السَّائِيِّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: «آمُرُكَ بِتَقْوَى الله»، ثُمَّ سَكَتَ، فَشَكَوْتُ إِلَيْهِ قِلَّةَ ذَاتِ يَدِي، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَقَدْ عَرِيتُ حَتَّى بَلَغَ مِنْ عُرْيِي أَنَّ أَبَا فُلَانٍ نَزَعَ ثَوْبَيْنِ كَانَا عَلَيْهِ فَكَسَانِيهِمَا، فَقَالَ: «صُمْ وَتَصَدَّقْ»، فَقُلْتُ: أَتَصَدَّقُ مِمَّا وَصَلَنِي بِهِ إِخْوَانِي وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا؟ قَالَ: «تَصَدَّقْ بِمَا رَزَقَكَ اللهُ وَلَوْ آثَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[٢٩]، عن أبان بن تغلب، قَالَ: كُنْتُ أَطُوفُ مَعَ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فَعَرَضَ لِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا كَانَ سَأَلَنِي الذَّهَابَ مَعَهُ فِي حَاجَةٍ، فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام وَأَذْهَبَ إِلَيْهِ، فَبَيْنَا أَنَا أَطُوفُ إِذْ أَشَارَ إِلَيَّ أَيْضاً، فَرَآهُ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام فَقَالَ: «**يَا أَبَانُ، إِيَّاكَ يُرِيدُ هَذَا؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَمَنْ هُوَ؟**»، قُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا، قَالَ: «**هُوَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاذْهَبْ إِلَيْهِ**»، قُلْتُ: فَأَقْطَعُ الطَّوَافَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ طَوَافَ الْفَرِيضَةِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ مَعَهُ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ بَعْدُ، فَسَأَلْتُهُ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَانُ، دَعْهُ لَا تَرِدْهُ**»،

قُلْتُ: بَلَى جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَدِّدُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَانُ تُقَاسِمُهُ شَطْرَ مَالِكَ**»، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَرَأَى مَا دَخَلَنِي، فَقَالَ: «**يَا أَبَانُ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدْ ذَكَرَ الْمُؤْثِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؟**»، قُلْتُ: بَلَى جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَقَالَ: «**أَمَّا إِذَا أَنْتَ قَاسَمْتَهُ فَلَمْ تُؤْثِرْهُ بَعْدُ إِنَّمَا أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ إِنَّمَا تُؤْثِرُهُ إِذَا أَنْتَ أَعْطَيْتَهُ مِنَ النِّصْفِ الْآخَرِ**»[٣٠].

وفي الأربعين نجد مصاديق الإيثار واضحة، فإنَّ تقديم الآخرين على النفس من أعظم ما يقوم به السائر إلى الحسين والخادم في موكب الحسين، فيُقدِّم مصلحة الزائر على مصلحة نفسه، وراحة الزائر على راحة نفسه، ويُنفِق من ماله لكي لا ينفق الزائر من ماله، وهكذا، فيتعلَّم من الزيارة درساً عظيماً وهو الإيثار.

التضحية: فإنَّ الماشي إلى زيارة الحسين يُقدِّم الجهد الجهيد والتضحية بماله أو بوقته أو بنفسه تضحية منه لأجل هذه الشعيرة وهذا الدين، وفي ذلك تمرين على التضحية لأجل المبادئ والقيم السامية، وقد أشار الإمام الصادق إلى ذلك في دعائه لهم: «... اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَانِي وَزُوَّارِ قَبْرِ أَبِي الْحُسَيْنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْخَصُوا أَبْدَانَهُمْ رَغْبَةً فِي بِرِّنَا وَرَجَاءً لِمَا عِنْدَكَ فِي صِلَتِنَا وَسُرُوراً أَدْخَلُوهُ عَلَى نَبِيِّكَ وَإِجَابَةً مِنْهُمْ لِأَمْرِنَا وَغَيْظاً أَدْخَلُوهُ عَلَى عَدُوِّنَا...، وَأَعْطِهِمْ أَفْضَلَ مَا أَمَّلُوا مِنْكَ فِي غُرْبَتِهِمْ عَنْ أَوْطَانِهِمْ وَمَا آثَرُونَا بِهِ عَلَى أَبْنَائِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَقَرَابَاتِهِم»[٣١].

العفَّة: من الصفات التي ركَّزت عليها الشريعة صفة العفَّة في البطن والفرج، بل وصفت العفَّة بأنَّها من أفضل العبادات، وجاءت النصوص مبيِّنة لذلك فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ﴾ (المؤمنون: ٥)، وقوله تعالى: ﴿**وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ**﴾ (الأحزاب: ٣٥).

ومن الروايات ما عَنْ المُفَضَّلِ،

قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «إِيَّاكَ وَالسَّفِلَةَ فَإِنَّمَا شِيعَةُ عَلِيٍّ مَنْ عَفَّ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ، وَاشْتَدَّ جِهَادُهُ، وَعَمِلَ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوَابَهُ وَخَافَ عِقَابَهُ، فَإِذَا رَأَيْتَ أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ شِيعَةُ جَعْفَرٍ»[٣٢]. فإنَّ الزيارة فيها نحو من أنحاء الاختلاط، وهو وجود الزائرات والزائرين في مكان واحد، وهنا تبرز العفَّة في التعامل مع الجنس الآخر من خلال غضِّ البصر وحفظ اللسان وحفظ اليد والفرج عن التعدّي، ومنع النظرات المحرَّمة والتزام الحجاب الشرعي والتعامل مع الآخر بأنَّه من المحارم كما ورد في الروايات: صحيح صَفْوَانَ الْجَمَّالِ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: قَدْ عَرَفْتَنِي بِعَمَلِي تَأْتِينِي المَرْأَةُ أَعْرِفُهَا بِإِسْلَامِهَا وَحُبِّهَا إِيَّاكُمْ وَوَلَايَتِهَا لَكُمْ لَيْسَ لَهَا مَحْرَمٌ قَالَ: «إِذَا جَاءَتِ المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ فَاحْمِلْهَا فَإِنَّ المُؤْمِنَ مَحْرَمُ المُؤْمِنَةِ»[٣٣]، لذا ذهب الفقهاء إلى عدم اشتراط المحرم في الحجِّ والزيارة ما دامت المرأة مأمونة على نفسها كما بيَّنت ذلك في بحثٍ مستقلٍّ بعنوان «مشي النساء إلى كربلاء»[٣٤].

الشجاعة: فإنَّ الزيارة تُعلِّم الإنسان الشجاعة في اتِّخاذ الموقف، والصبر على الخوف، وقوَّة الإقدام خصوصاً مع المنع للزيارة كما كان يحصل أيّام الطاغية. ففيها توطين للنفس على المواجهة والتعدّي للموت والقتل والسجن والتعذيب، وما هذا إلَّا صور رائعة من صور الشجاعة والإقدام في سبيل المبادئ والقيم الدينية.

لذا وردت الروايات في الحثِّ على الزيارة حتَّى في مثل هكذا محن وشدائد. منها:

أجر من حُبِسَ في طريق الحسين عليه السلام: في الوسائل عن هشام بن سالم، قال: قُلْتُ للإمام الصادق عليه السلام: فَمَا لِمَنْ حُبِسَ فِي إِتْيَانِهِ؟ قَالَ: «لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ يُحْبَسُ وَيَغْتَمُّ فَرْحَةُ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ»[٣٥]. أجر من ضُرِبَ بطريق الحسين عليه السلام: في مستدرك الوسائل في حديث طويل لهشام عن الصادق، قُلْتُ: فَإِنْ ضُرِبَ بَعْدَ الْحَبْسِ فِي إِتْيَانِهِ؟ قَالَ: «لَهُ بِكُلِّ ضَرْبَةٍ حَوْرَاءُ، وَبِكُلِّ وَجَعٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِ أَلْفُ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَيُمْحَى بِهَا عَنْهُ أَلْفُ أَلْفِ سَيِّئَةٍ»[٣٦]. أجر من مات في طريق الحسين عليه السلام: في بحار الأنوار: «... فَإِنْ هَلَكَ فِي سَفَرِهِ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ فَغَسَّلَتْهُ، وَفُتِحَ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ رَوْحُهَا حَتَّى يُنْشَرَ، وَإِنْ سَلِمَ فُتِحَ الْبَابُ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ فَجُعِلَ لَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ أَنْفَقَهُ عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَذُخِرَ ذَلِكَ لَهُ، فَإِذَا حُشِرَ قِيلَ لَهُ: لَكَ بِكُلِّ دِرْهَمٍ عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَظَرَ لَكَ وَذَخَرَهَا لَكَ عِنْدَهُ»[٣٧]. أجر من قُتِلَ في طريق الحسين عليه السلام: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي حَدِيثٍ لَهُ طَوِيلٍ قَالَ: أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله، هَلْ يُزَارُ وَالِدُكَ؟ قَالَ: فَقَالَ: «نَعَمْ...»، إِلَى أَنْ قَالَ: قُلْتُ: فَمَا لِمَنْ قُتِلَ عِنْدَهُ جَارَ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ فَقَتَلَهُ؟ قَالَ: «أَوَّلُ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ يُغْفَرُ لَهُ بِهَا كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَتُغْسَلُ طِينَتُهُ الَّتِي مِنْهَا خُلِقَ المَلَائِكَةُ حَتَّى تَخْلُصَ كَمَا خَلَصَتْ لِلْأَنْبِيَاءِ المُخْلَصِينَ، وَيَذْهَبُ عَنْهَا مَا كَانَ خَالَطَهَا مِنْ أَجْنَاسِ طِينِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَيُغْسَلُ قَلْبُهُ، وَيُشْرَحُ صَدْرُهُ، وَيُمْلَأُ إِيمَاناً، فَيَلْقَى اللهَ وَهُوَ مُخْلَصٌ مِنْ كُلِّ مَا تُخَالِطُهُ الْأَبْدَانُ وَالْقُلُوبُ»[٣٨].

فإنَّ هذه مراكز تدريب ميدانية على الشجاعة والإقدام وعدم التهيّب من الأعداء والطغاة، فتكون من أهمّ وسائل الإعداد الجهادي لأنصار الإمام الحجَّة عليه السلام.

الموالاة والبراءة: من المفاهيم العقائدية التي ركَّزها آل البيت عليهم السلام في نفوس أتباعهم مفهوم الولاء لأولياء الله تعالى والبراءة من أعداء الله تعالى، وهو أن تجعل حبَّك ومودَّتك وطاعتك لأولياء الله تعالى وبغضك

وعصيانك لأعداء الله تعالى، وهذان المفهومان لهما تأثير على المستوى العقدي فلا إيمان حقيقي إلَّا بهما، وعلى المستوى العملي فلا قبول، بل لا صحَّة للعمل - على خلاف - إلَّا بهما، وهذا ما أشارت له الكثير من الآيات والروايات.

فمن الآيات وقوله تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً**﴾ (آل عمران: ٢٨).

ومن الروايات: عَنْ سَعِيدٍ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، قَالَ: «مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ، وَتُعْطِيَ فِي اللهِ، وَتَمْنَعَ فِي اللهِ»[٣٩]، وعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام، قَالَ: «كُلُّ مَنْ لَمْ يُحِبَّ عَلَى الدِّينِ وَلَمْ يُبْغِضْ عَلَى الدِّينِ فَلَا دِينَ لَهُ»[٤٠] وعن أَبِي مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ، عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَحْبِبْ فِي اللهِ، وَأَبْغِضْ فِي اللهِ، وَوَالِ فِي اللهِ، وَعَادِ فِي اللهِ، فَإِنَّهُ لَا تَنَالُ وَلَايَةَ اللهِ إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ مُوَاخَاةُ النَّاسِ يَوْمَكُمْ هَذَا أَكْثَرَهَا فِي الدُّنْيَا، عَلَيْهَا يَتَوَادُّونَ، وَعَلَيْهَا يَتَبَاغَضُونَ، وَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، فَقَالَ لَهُ: وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ أَنِّي قَدْ وَالَيْتُ وَعَادَيْتُ فِي اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ)؟ وَمَنْ وَلِيُّ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) حَتَّى أُوَالِيَهُ؟ وَمَنْ عَدُوُّهُ حَتَّى أُعَادِيَهُ؟ فَأَشَارَ لَهُ رَسُولُ اللهِ إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ: أَتَرَى هَذَا؟ فَقَالَ: بَلَى، قَالَ: وَلِيُّ هَذَا وَلِيُّ اللهِ فَوَالِهِ، وَعَدُوُّ هَذَا عَدُوُّ اللهِ فَعَادِهِ، وَالِ وَلِيَّ هَذَا وَلَوْ أَنَّهُ قَاتِلُ أَبِيكَ وَوَلَدِكَ، وَعَادِ عَدُوَّ هَذَا وَلَوْ أَنَّهُ أَبُوكَ وَوَلَدُكَ»[٤١].

وزيارة الأربعين مصداق واضح لتقوية الولاء لآل البيت عليهم السلام والبراءة من أعدائهم، وخصوصاً إذا اكتنفها الشعارات الدالّة على ذلك ممَّا يُعزِّز العنصرين المهمّين في عقيدة الإنسان الحقَّة وعمله المقبول، وهذا التولّي والتبرّي يفعله زوّار الحسين عليه السلام من خلال إحياء الشعائر التي يمارسونها في شعيرة الأربعين استجابةً لأمر آل البيت عليهم السلام وغاظّةً لأعدائهم، والروايات تشير لذلك، منها: عن معاوية بن وهب، عن الصادق عليه السلام: «... اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَانِي وَزُوَّارِ قَبْرِ أَبِيَ الْحُسَيْنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْخَصُوا أَبْدَانَهُمْ رَغْبَةً فِي بِرِّنَا وَرَجَاءً لِمَا عِنْدَكَ فِي صِلَتِنَا وَسُرُوراً أَدْخَلُوهُ عَلَى نَبِيِّكَ وَإِجَابَةً مِنْهُمْ لِأَمْرِنَا وَغَيْظاً أَدْخَلُوهُ عَلَى عَدُوِّنَا»[٤٢]. وفي هذه الصور الولائية البرائية عدَّة أُمور:

إيصال رسالة إلى العالم أجمع بأنَّنا سائرون على هذا النهج الذي رسمه آل البيت عليهم السلام وخصوصاً الإمام الحسين عليه السلام في رفض الظلم والدفاع عن عقيدة الأُمَّة وإصلاحها ولو كلَّف ذلك الحياة. إيصال رسالة بأنَّنا رافضون للنهج التكفيري والأُموي المستبيح للنفوس والأعراض والأموال لأغراض سلطوية ودنيوية، وأنَّ هذا النهج لا بدَّ أن يحارب كي لا يتكرَّر في التاريخ. إيصال رسالة للعالم بأنَّ مذهب آل البيت عليهم السلام هو مذهب الاعتدال والإنسانية والإصلاح، وأنَّ معيار موالاة أهل طاعة الله تعالى وبغض أهل معصية الله تعالى وسيلة لإصلاح العباد والبلاد وردع للظالمين وتقوية للمؤمنين، وأنَّ الناس لا تقاس على أساس العرق أو اللون أو القرابة وإنَّما على أساس الإيمان والتقوى والولاء لله تعالى وأولياءه والبراءة من الشيطان وأتباعه من الجنِّ والإنس، وغيرها. التدرّب على التعايش السلمي مع الآخر: من أهمّ الإشكاليات التي تواجه الأُمم والديانات هو التدرّب على التعايش

السلمي مع الآخرين، وكيفية التعامل معهم وعدم إلغائهم فكرياً أو معنوياً أو حتَّى مادّياً، وهذا ما تسعى لتحقيقه المنظَّمات الدولية وخصوصاً الأُمم المتَّحدة، وتجعل برامجاً لذلك، وتعمل على نفي الصراعات ونشوء حركات وتوجّهات تدعو للقتل والتقاتل كالحركات النازية أو الشعوبية أو الوهّابية أو ما تمخَّض عن ذلك كداعش والقاعدة والنصرة وأخواتهنَّ. وهذا ما جاء به الدين الحنيف من رسم علاقتك مع الآخر وإن اختلف معك في المذهب أو العرق أو الدين على أُسس لا قتل فيها إلَّا إذا بادرك للحرب والحرابة أو تعدّى على مقدَّساتك ومعتقداتك، بل الإسلام رسم لنا نمطاً في التعاطي مع الأعداء فضلاً عن غيرهم[٤٣]

فأمير المؤمنين عليه السلام حدَّد مجمل علاقتك بالناس من خلال العهد المبارك - عهد مالك الأشتر -، والذي هو برنامج أساسي للعلاقات الداخلية والخارجية، والذي منه: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِه وَصَفْحِه، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ»[٤٤]. والزيارة بهذه السعة المليونية تُعتَبر موسماً للانفتاح على حضارات ولغات وثقافات من كلِّ العالم، وذلك يجعلنا نكتسب خبرة عالية من التعامل مع الآخر حتَّى مع اختلافنا معه في اللون أو القومية أو الثقافة أو البلد أو المذهب أو حتَّى الدين.

إلغاء الطبقية والتعالي والتكبّر: فإنَّ من أخطر الأمراض التي تنسف بالمجتمعات هو بروز الطبقية بين

أفراده ممَّا ينتج التعالي والتكبّر واستعباد الآخرين بسبب السلطة أو المال أو الجاه، فيحتاج الإنسان ما يكسر جموح النفس ويُضعِف هذه الصفات، ولعلَّ أهمّ ما يعمل على ذلك هو التعاطي العملي والسيرة العملية مع أفراد المجتمع، وموسم الأربعين إنَّما هو درس عملي لإلغاء التكبّر والتعالي، خصوصاً ما يمارسه أصحاب المواكب من إلغاء الذات والتواضع وتقديم الخدمات بتفاني لكلِّ الناس، فترى الكبير يخدم الصغير والغنيّ يخدم الفقير، بل ورَبُّ العمل يخدم عمّاله كما أشرنا في ما مرَّ من نقطتي التواضع والإيثار. الشعور بالمسؤولية: إنَّ تحمّل المسؤوليات من أهمّ المقوّمات لصناعة الإنسان، وكلَّما كانت المسؤوليات أكبر كانت الصناعة أقوى، لأنَّها سوف تدخل في كبرى أنَّ الابتلاء مدرسة لصناعة العظماء.

فتبرز أمامنا مسؤولية عظمى نُسئَل عنها يوم القيامة، وهي نعيم آل البيت عليهم السلام الذي يجب علينا أداء حقِّه، وإبراز الصورة الحقيقية لما هم عليه من أخلاق وقيم ومعارف. ففي رواية المحاسن:... ذَكَرْتُ الْآيَةَ الَّتِي فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿**لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ (التكاثر: ٨)، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «لَا إِنَّمَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ»[٤٥].

وفي المحاسن أيضاً عن أَبِي حَمْزَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام جَمَاعَةً، فَدَعَا بِطَعَامٍ مَا لَنَا عَهْدٌ بِمِثْلِهِ لَذَاذَةً وَطِيباً حَتَّى تَمَلَّيْنَا، وَأُتِينَا بِتَمْرٍ يَنْظُرُ فِيهِ إِلَى وُجُوهِنَا مِنْ صَفَائِهِ وَحُسْنِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ: ﴿**لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ (التكاثر: ٨) عَنْ هَذَا النَّعِيمِ الَّذِي نُعِّمْتُمْ عِنْدَ ابْنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «اللهُ أَكْرَمُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يُطْعِمَكُمْ طَعَاماً فَيُسَوِّغَكُمُوهُ ثُمَّ يَسْأَلَكُمْ عَنْهُ، وَلَكِنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»[٤٦]. فإنَّ هذه الزيارة تدعونا إلى تحمّل المسؤولية الدينية في إيصال رسالة عامَّة لكلِّ

العالم بأنَّنا مجتمع يملك من الصفات والمقوّمات الحضارية والاجتماعية والتربوية والإدارية العالية. فهي فرصة لبيان الإسلام المحمّدي العلوي الناصع من خلال عكس الصورة الحقيقية للمذهب، لا كما ينقل بعض عن تخلّف الإسلام والمسلمين من خلال عكس صورة لأُناس يدَّعون انتحالهم للإسلام والإسلام براء منهم كبعض الحركات السلفية والوهّابية، وبعض الدول المتخلّفة دينياً وقيمياً والمتحلّلة أخلاقياً وتربوياً، وأنَّ تلك الفئات لا تُمثِّل الإسلام. والخلاصة: إنَّ هذه الصفات والمميّزات هي تدريب عملي وتمهيد حقيقي لخلق إنسان الظهور وما بعد الظهور، فالزيارة مدرسة أخلاقية كبيرة لشخصية الظهور المهدوي المبارك. خصوصاً وأنَّ هذا البناء ليس بناءً تنظيرياً فحسب، بل هو بناء عملي كبير يخلق روحاً سامية مؤهَّلة لمرحلة الظهور وما بعده.

المحور الثامن: المحور العسكري:

إنَّ المؤسَّسة العسكرية لا تُقاس بقوَّة تسليحها فقط، وإنَّما الأهمّ فيها هو وجود الموارد البشرية فيها، خصوصاً الموارد البشرية الشابَّة والتي لها استعداد عالي للتضحية والفداء والإباء. وزيارة الأربعين لهي من أهمّ موارد بناء الشباب المهدوي العسكري المقاوم والمضحّي، ولعلَّ تجربة مقاومة الاحتلال الأمريكي للعراق وتجربة الحشد الشعبي في العراق من أكبر الشواهد على ذلك، فإنَّ من أهمّ ما بنى هذه الشخصيات الشابَّة والمضحّية التي تتحدّى الصعاب وتواجه أشرس الأعداء مع قلَّة العدَّة والعدد هو حضور شخصية الحسين عليه السلام بين ظهرانينا، والتي تبرز في مواسم منها موسم الزيارة، فتكون الشخصية الحسينية صانعة لشخصية مهدوية. فما سطره الأبطال في ساحات القتال من تضحيات لم يكن وليد اللحظة، بل هو صناعة حسينية

بمستقبل مهدوي، لذا كانت شعاراتهم في المعركة هي شعارات الحسين والعبّاس والأكبر و...، وتحرّكاتهم وتطلّعاتهم تطلّعات مهدوية ثائرة تعدُّ لعصر الظهور. فالتضحية - بالنفس بالمال بالراحة - لأجل الغير ولأجل المبدأ ولأجل الدين ولأجل الإسلام ولأجل المقدَّسات ولأجل العزَّة إنَّما هي دروس تعلَّمناها من مدرسة الحسين ومن شعائر الحسين، ربطت بالموعود ومستقبل العالم الذي يقوده الإمام المهدي عليه السلام. فهناك جيش عالمي قد تمَّ إعداده سابقاً، وخاض التجارب في عدَّة دول، ونجح نجاحات باهرة قد يكون هو نواة من جيش المهدي المنتظر عليه السلام، وزيارة الأربعين هي الرافد الأساسي لهذا الجيش القادم الذي يقوده صاحب الأمر عليه السلام نحو تحقيق العدل والقسط والسلام

المحور التاسع: المحور الإعلامي:

من العادات الجارية لدى القوى السياسية أو غيرها استعراض جماهيرها من خلال مظاهرات أو تجمّعات أو احتفالات أو مناورات أو غيرها، وذلك لإيصال رسالة إلى الآخر بأنَّ لنا جماهير ونحن أقوياء من باب: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، كلٌّ بحسب موقعه وعمله وقدرته. والمؤمنون بالقضيَّة المهدوية لا بدَّ لهم من ذلك أيضاً، وما يحصل من تجمّع مليوني ليس له نظير وبشكل عفوي وبتنظيم ذاتي وبتمويل شخصي لهو أعظم صور الاستعراض الإعلامي للجمهور المؤمن، فالشعيرة الأربعينية ليست عبادة فردية فحسب، بل أصبحت ذات طابع يحوي عبادة جماعية كشعائر الحجِّ وصلاة الجمعة، وهذا يُعطي أهمّية كبرى وثراءً معنوياً وانفجاراً إعلامياً يوصل رسالة واضحة للجميع «بأنَّنا حسينيون، بأنَّنا

ممهِّدون، بأنَّنا مؤمنون، بأنَّنا أقوياء، بأنَّنا منظَّمون، بأنَّنا متكافلون، بأنَّنا مصلحون، وهكذا».

خصوصاً إذا عكسنا الصورة التي أراد لنا آل البيت عليهم السلام عكسها للإنسانية، وأنَّ الدين الإسلامي هو الخاتم، وأنَّ المهدي عليه السلام هو المخلِّص، وأنَّه لا نجاة إلَّا به. فيبرز لنا أُمور:

تحقيق منجز عددي وأنَّ جماهيرنا مليونية وبتزايد كلّ عام بحيث لا يسع المكان للجمهور. تحقيق منجز نوعي بأنَّ جماهيرنا مؤمنة وقويَّة ومخلصة ومطيعة لله ورسوله وآله. تحقيق منجز دولي بأنَّ زيارتنا دولية وليست إقليمية أو قطرية، إذ يأتيها الناس من كلِّ فجٍّ عميق. تحقيق منجز حضاري بأنَّنا منظَّمون ولا يتعدّى بعضنا على بعض طوال أيّام الزيارة. تحقيق منجز تعارفي بين لغات مختلفة وثقافات متعدّدة وقوميات متنوّعة لتبادل الخبرات والهموم والمشكلات ومعالجة الأوضاع والشعور بالآخر

المحور العاشر: المحور التمريني والتدريبي:

إنَّ الإنسان بطبعه يميل إلى الدعة والراحة وعدم الدخول بالصعاب، فإذا مرَّ بصعوبات قد يؤدّي به إلى الضعف أو الانهيار أو ترك المبادئ أو التخلّي عن بعضها، لذا يحتاج إلى دورة تدريبية لرفع ذلك. وموسم الزيارة مع طول المسافات وكثرة الصعوبات وشدَّة الابتلاءات - خصوصاً مع البرد القارص أو الحرّ الشديد أو الخوف من الظالم كما في عهد النظام المقبور بل وغيره - لهو مركز تدريبي عامّ وشامل لتحمّل أنواع الصعاب والمحن والثبات على المبدأ الذي رسمه آل البيت عليهم السلام.

فالزيارة تُمثِّل مركزاً لتدريب المؤمن للاستعداد والإعداد لعصر الظهور، فيدخل ذلك في الإعداد للمهدي عليه السلام والنهوض معه في ثورته العالمية وتحمّل الصعاب، فلا يتفاجئ إذا ما بُلي بصعوبة أو شدَّة، بل يواجهها بعزم

حسيني ومستقبل مهدوي. فهذه الصعوبات والزلازل والمحن التي يمرُّ بها المؤمن ما هي إلَّا تقويةً لصلبه وتمريناً له لمواجهة العدوِّ. فالزيارة الأربعينية ورشة عمل معمّقة لصناعة الشخصية المهدوية للظهور وما بعده.

المحور الحادي عشر: المحور التكافلي:

من العناصر المهمَّة في الشخصية الممهِّدة للظهور وجود روح التكافل والإيثار في تلك الشخصية، ومن أهمّ سُبُل تحقيق هذا البناء هو التدرّب على التكافل ومساعدة الآخرين وإيثار راحة الآخرين على راحة النفس حتَّى مع التعب والخصاصة، والمشي في زيارة الأربعين هو موسم تكافلي عظيم حيث إنَّ الخدمات تُقدَّم مجاناً بلا منَّة ولا ضجر، بل بفرحة وبهجة، ولعلَّ التكافل الذي يُقدِّمه أصحاب المواكب من أعظم صور التكافل والخدمة، وهذا واضح بالوجدان لكلِّ من مشى للزيارة، وكذلك روح الإيثار والمساعدة بين الزائرين وعطف الكبير على الصغير وتوقير الصغير للكبير ومساعدة الرجل للمرأة والعكس، وهكذا والتكافل والإيثار له صور، منها:

التكافل والإيثار بالطعام ولو على حساب نفسك التكافل والإيثار بالمبيت ولو بقيت سهراناً. التكافل والإيثار بالفراش والغطاء. التكافل والإيثار حال الرجوع من خلال إعطاء مقعدك لغيرك والبقاء واقفاً. التكافل والإيثار بتفضيل راحة الآخرين على راحة النفس. وهكذا غيرها من الصور. المحور الثاني عشر: البناء السياسي:

إنَّ زيارة الحسين عليه السلام موسم مهمّ لاستذكار مبادئ ثورته، ومنها المبدأ السياسي، وهو البراءة من الظالمين والثورة عليهم، وخلق إرادة سياسية صادقة لدى المؤمن للتغيير والخروج على الظالمين، والاستعداد لذلك تحت

قيادة الإمام الحجَّة عليه السلام كي يعزّ الأولياء ويذلّ الأعداء ويملئها قسطاً وعدلاً كما مُلِئَت ظلماً وجوراً، كما أنَّها رفض للاتِّجاه السياسي المستبدّ وإن تلبَّس بلبوس الدين وادَّعى النيابة عن المسلمين، وكذلك رفض للسياسة الداعية إلى الخضوع والتذلّل للقوى العالمية المستبدّة تحت ذريعة سياسة الأمر الواقع ومداهنة الأعداء ممَّا يُضيِّع معالم الدين والعباد والبلاد.

فاستذكار شعارات الحسين عليه السلام في الثورة كخطابه: «أَيُّهَا النَّاسُ! إنَّ رَسُولَ الله قَالَ: مَنْ رَأى سُلْطَانَاً جَائِراً مُسْتَحِلًّا لِحُرُمِ اللهِ، نَاكِثاً لِعَهْدِ اللهِ، مُخَالِفاً لِسُنَّةِ رَسُولِ الله، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللهِ بِالإثم وَالعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَله»[٤٧]. يكون حافزاً كبيراً للاستعداد السياسي والتمهيد السياسي للإمام الحجَّة عليه السلام من خلال نشر الأفكار الدالّة على أنَّ الإمام هو المخلِّص السياسي من ظلم الدول الجائرة.

وبذلك تنخلق إرادة سياسية لدى الأُمَّة المؤمنة تُحفِّز المؤمن للالتحاق بالشخصية المنقذة والبراءة من الأُمَّة الظالمة والقاتلة والراضية بذلك كما ورد في الزيارة: «لَعَنَ اللهُ أُمَّةً قَتَلَتْكَ، وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً ظَلَمَتْكَ، وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً خَذَلَتْكَ، وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً خَدَعَتْكَ»[٤٨]. وخصوصاً إذا كانت الزيارة مقترنة ببعض النصوص التي تشير إلى نصرة آل البيت وخاتمهم الإمام الحجة عليه السلام كما في الزيارة: «اللَّهُمَّ أَنْتَ مَنَنْتَ عَلَيَّ بِزِيَارَةِ مَوْلَايَ وَوَلَايَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، فَاجْعَلْنِي مِمَّنْ تَنْصُرُهُ وَتَنْصُرُ بِهِ [يُنْتَصَرُ بِهِ وَيَنْصُرُهُ]، وَمُنَّ عَلَيَّ بِنَصْرِكَ لِدِينِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»[٤٩]. وبالأخصّ الاستعداد للنصرة الوارد في زيارة عاشوراء: «فَأَسْأَلُ اللهَ الَّذِي أَكْرَمَ مَقَامَكَ أَنْ يُكْرِمَنِي بِكَ وَيَرْزُقَنِي طَلَبَ ثَارِكَ مَعَ إِمَامٍ مَنْصُورٍ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ»[٥٠]

فزيارة الأربعين كفيلة بهكذا بناء

سياسي للمجتمع المهدوي الذي يأبى الظلم والضيم ويثور على الظالمين والمعتدين ولا يداهن المنحرفين والمستبدّين وإن علوا وتغطرسوا. هذا ما أردنا ذكره من محاور، وهناك محاور أُخرى قد تظهر للمتتبّع لم نذكرها دفعاً للإطالة.

النتيجة:

إنَّ زيارة الأربعين فيها عظيم البركات في كلِّ المستويات المادّية والمعنوية، ومن أعظم البركات دور وأهمّية هذه الزيارة المليونية في الإعداد العملي للظهور وصناعة شخصيات الظهور ومجتمعه، فحريٌّ بنا أن نجعل تلك الزيارة مناراً لنا للتمهيد وانطلاقةً للانتظار الحقيقي الخالص للإمام عليه السلام، فنكون ممَّن أسهم في تعجيل الظهور المهدوي المقدَّس ببركة الزيارة الحسينية المقدَّسة، فنحظى بالنصر الإلهي التامّ على أعداء الله تعالى ورسوله وآله (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين)، ويأخذ المهدي عليه السلام بثأر جدِّه الحسين عليه السلام ممَّن قتلوه وسلبوه وسبوا عياله، ويعزُّ الأولياء ويذلُّ الأعداء ويُظهِر الدين ولو كره الكافرون، إنَّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً.

الهوامش:

[١] مثير الأحزان: ٤.
[٢] الاحتجاج ٢: ٣٠٠.
[٣] بحار الأنوار ٤٥: ٧.
[٤] مثير الأحزان: ٢٤.
[٥] الإمامة والتبصرة لابن بابويه: ٢١.
[٦] كفاية الأثر: ٢٨١.
[٧] المصدر السابق. وقد بحثت ذلك في بحث مستقلٍّ قد يُطبَع لاحقاً.
[٨] الكافي ٣: ٢٦٥.
[٩] الجعفريات: ٣٣.
[١٠] كفاية الأثر: ٢٨١.
[١١] كامل الزيارات: ١٣٢
[١٢] المصدر السابق.
[١٣] المصدر السابق.
[١٤] راجع: بحار الأنوار ٦٩: ٥٧.
[١٥] الكافي ٢: ٦٣٥.
[١٦] المصدر السابق.
[١٧] المصدر السابق ٢: ٦٣٦.

[١٨] راجع: آداب العشرة في الوسائل، أو غيرها من الموسوعات الحديثية.
[١٩] جامع أحاديث الشيعة ١٣: ٥٤٠.
[٢٠] للمزيد يراجع العدد (٢) من مجلّة الموعود (ص٢٩٥).
[٢١] وسائل الشيعة ١٦: ٢٠٣.
[٢٢] المصدر السابق ١٦: ٢٤٧.
[٢٣] الكافي ٢: ٨٩.
[٢٤] المصدر السابق.
[٢٥] المصدر السابق ٢: ٩٠.
[٢٦] مستدرك الوسائل ١١: ٢٩٨.
[٢٧] مشكاة الأنوار: ٢٠٠.
[٢٨] الإيثار في النظومة الخلقية (العبّاس نموذجاً)
[٢٩] الكافي ٤: ١٨.
[٣٠] المصدر السابق ٢: ١٧١.
[٣١] المصدر السابق ٤: ٥٨٢.
[٣٢] الكافي ٢: ٢٣٣.
[٣٣] من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٣٩.
[٣٤] مشي النساء إلى كربلاء/ مجلّة الإصلاح الحسيني/ العدد ٥.
[٣٥] وسائل الشيعة ١٤: ٤٤٢.
[٣٦] مستدرك الوسائل ١٠: ٢٧٩.
[٣٧] بحار الأنوار ٤٥: ١٧٢.
[٣٨] كامل الزيارات: ١٢٣.
[٣٩] الكافي ٢: ١٢٥.
[٤٠] المصدر السابق ٢: ١٢٧.
[٤١] بحار الأنوار ٦٦: ٢٣٦.
[٤٢] المصدر السابق ٤: ٥٨٢.
[٤٣] راجع بحث (نمط التعاطي مع الأعداء) بحث نشرته مجلّة المنهج العدد ٢.
[٤٤] نهج البلاغة/ عهد مالك الأشتر.
[٤٥] المحاسن ٢: ٤٠٠.
[٤٦] المصدر السابق.
[٤٧] بحار الانوار ٧٨: ١٢٨.
[٤٨] كامل الزيارت: ٤٣.
[٤٩] المصدر السابق: ٤٥.
[٥٠] المصدر السابق.

أ. م. د. أمل سهيل عبد الحسيني
جامعة الكوفة/كلّية التربية المختلطة/قسم علوم القرآن

الخطاب العاشورائي وإصلاح الأُمّة وتوحيدها الشباب أُنموذجاً

المقدّمة

صفحات التاريخ بخيرها وشرّها انطوت، إنّها مسؤولية الماضين، لا نُحاسب على سلبياتهم ولا نُكافئ على إيجابياتهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم: كيف يكون الموقف من التاريخ؟ هل نُدير الظهر لتاريخنا وتراثنا وفيهما من الغنى ما يُثري حاضرنا لمجرّد أنّ التاريخ مضى وانقضى؟

إنّ دروس التاريخ وعِبَره كثيرة، يمكن أن نستلهم منها أفكاراً وخبرات وتجارب جديدة، فقد أثبتت التجربة أنّ الذين أمعنوا النظر في التاريخ وتعمّقوا في دلالات أحداثه كانوا أقوياء في نظرتهم للواقع والمستقبل.

إنّ مسؤوليتنا التاريخية تتطلّب منّا أن نقرأ تاريخنا وتاريخ العالم بنظرة موضوعية غير انحيازية ولا متعصّبة

ولا متطرّفة، بين رفضٍ لكلّ ما فيه وبين قبول لكلّ ما فيه؛ لأنّه نتاج بشر مثلنا، وقد يكون فيه الصحيح وفيه السقيم، وقد يكون فيه الموضوع الدخيل الذي ليس منه بشيء، وهذا الأمر يستدعي عدم النظر إلى التاريخ على أنّه قرآن منزل، أو تراث مقدّس ـ وهذا ما وقع فيه غيرنا للأسف ـ وقد يقول بعض الشباب: نحن أبناء اليوم فما لنا وللماضي؟ ونحن هنا لا ندعو إلى الاستغراق في الماضي، ولكنّنا نأخذ من ماضينا لحاضرنا ما ينفع ويغني، وتلك دعوة القرآن إلينا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٢]، و﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[٣]، فهؤلاء الناس قد غادروا مسرح التاريخ، ولم يبقَ منهم سوى أفكارهم التي هي نتاج بحثٍ وتجربة، وأعمالهم التي يمكن أن نقتني بعضها ونطوّر بعضها الآخر، فكانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام ممّا يمكن أن نقتدي بها وننهل منها الكثير، وكانت حركته نهضة في تاريخ الإنسانية، ومحطّة من محطّات الصراع بين الحق والباطل، وهي حركة متّصلة اتّصالاً وثيقاً بأعظم الرسالات السماوية على الإطلاق، تلك هي رسالة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله مَن أحبّ حسيناً...»[٤].

وقد احتلّت سيرته المباركة عليه السلام وشهادته يوم الطف حيزاً كبيراً في التاريخ، وأخذت أشكالاً مختلفة من الاهتمام، تمثّل أحدها بالمجلس الحسيني، الذي يُعدّ من أهمّ الشعائر التي لا يزال إحياؤها قائماً منذ قرون مديدة.

فإحدى وظائف الخطيب الحسيني هي تعريف الناس بمفاهيم عاشوراء وتاريخ كربلاء، والتذكير بمحطّاتها المضيئة في حياة الإنسانية[٥]، وكان موضوع الشباب واحداً من تلك المحطّات المضيئة، والتي ما زالت

طريقاً يسلكه أحرار العالم اليوم لينهلوا من نميره العذب؛ لكي يحوّل الضعف إلى قوّة، والصبر على البأساء والضرّاء مسألة يحتاجها أبناء الإسلام كافّة مع موجة المواجهات مع دين الله.

كم هو بليغٌ الأثر حين نسمع زينب الحوراء عليها السلام قدوة البطولة تقول: «... ما رأيت إلّا جميلاً»؛ إذ إنّ كلّ مأساتها ما دامت في عين الله فهي تهون؛ فهي امتحان واختبار جميل؛ لأنّه لله وفي الله ومع الله.

من هنا؛ ندعو الإخوة القائمين على المناسبات الحسينية إلى استثمار ذكرى عاشوراء في توعية الشباب والشابّات بالقيم الأخلاقية العليا التي تحميهم من الانحراف والسقوط في الهاوية، لا سيما أنّ ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام واحدة من أهمّ المناسبات؛ لما لها من تأثير روحي واسع، فضلاً عن أنّ استثمارها على هذا النحو يعطي المناسبة بُعداً مضافاً يخدم معانيها العظيمة، لا سيما في هذه المرحلة العصيبة التي تمرّ بها أُمّتنا الإسلامية، على أن لا يكون اقتصارنا على البعد العاطفي لتلك الواقعة، بل يجب أن نأخذ حياة الإمام الحسين عليه السلام نبراساً؛ لأنّ حياته عليه السلام كلّها عبرة وعِظة؛ لأنّه رجل الأخلاق والمُثل العليا.

المبحث الأوّل: أثر النهضة الحسينية في توعية الأُمّة

إنّ أخطر ما يُبتلى به شعب هو أن يُقضى على روح النضال فيه، فإنّه حينئذٍ يفقد شخصيته، ويذوب في خِضمّ الفاتحين، كما قُدّر لشعوب كثيرة أن اضمحلّت وذابت وفقدت كيانها؛ لأنّها فقدت روح النضال، واستسلمت، وفقدت شخصيتها ومقوّمات وجودها المعنوي، فأذابها الفاتحون. وإنّ هذه الشعوب التي لم يحفظ لنا التاريخ إلّا أسماءها لم تأتِ من ضعفها العسكري أو الاقتصادي، وإنّما أتت من فلسفة الهزيمة والتواكل

والخنوع التي وجدت سبيلها إلى النفوس، بعد أن خَبت روح النضال في هذه النفوس.

ولو أنّها بقيت مؤمنة بشخصيتها وثقافتها ومقوّماتها، واحتفظت بروح النضال حيّة في أعماقها لما استطاع الغزاة إبادتها، ولشقّت لنفسها طريقاً جديداً في التاريخ، وهذا ما حقّقته ثورة الحسين عليه السلام.

لقد أجّجت هذه الثورة تلك الروح التي حاول الأُمويون إخمادها، وبقيت مستترة تُعبّر عن نفسها دائماً في انفجارات ثورية عاصفة ضدّ الحاكمين، مرّة هنا ومرّةً هناك، وكانت الثورات تفشل دائماً ولكنّها لم تخمد؛ لأنّ الروح النضالية كانت باقية تدفع الشعب المسلم إلى الثورة دائماً، وإلى التمرّد والتعبير عن نفسه قائلاً للطغاة: إنّني هنا[٦].

إذن؛ أهمّ إنجاز حقّقته الثورة الحسينية هو انبعاث الروح النضالية في الأُمّة؛ إذ لولا ثورة الإمام الحسين عليه السلام لنامت الأُمّة في سباتٍ عميق؛ لأنّ الأُمويين سلكوا مع الأُمّة مسالك عجيبة من أجل إذلالها وتحطيم شخصيتها المعنوية؛ لغرض السيطرة عليها وتمكين قبضتهم منها، وتصفية كلّ حالات المعارضة والتمرّد ضدّ نظام حكمها، يقول الوليد بن يزيد:[٧]

فدَع عنك ادّكارك آل سعدي
فنحن الأكثرون حصى ومالاً
ونحن المالكون الناس قسرا
نسومهم المذلّة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلاً
وما نألوهم إلّا خبالاً.

وهذه الأبيات تكشف بدقّة عن توجّه بني أُميّة السياسي في قهر الأُمة وإذلالها، وفرض نفوذهم وسلطانهم عليها.

ولا تحسب أنّ هذا التصوّر المتطرّف يخصّ الوليد بن يزيد من بين حكام بني أُميّة، فقد كان جلّ بني أُميّة

وعمّالهم يرون مثل هذا الرأي أو قريباً منه.

هذا بالنسبة للأُمّة بصورة عامّة، أمّا موقفهم من بني هاشم بصورة خاصّة، فقد كانوا منهم في موقف الحاسد؛ لأنّ الأُمّة والمسلمين عامّةً كانوا يرون الفارق الكبير والبون الشاسع بين أهل البيت عليهم السلام وبين بني أُميّة في الماضي والحاضر، وكان على بني أُميّة لكي يستقرّ حكمهم ونفوذهم أن يعملوا على القضاء التامّ على نفوذ أهل البيت عليهم السلام الروحي في المسلمين، وعلى تصفية شيعتهم والقضاء عليهم، وملاحقتهم ومطاردتهم؛ ليصفو لهم الجو السياسي في العالم الإسلامي، وبشكلٍ خاصّ في العراق والحجاز.

فالأُمويون عندما استولوا على الحكم حُرّفت الحقائق، وفقد الإيمان معناه الحقيقي؛ لذا كان من الواجب أن يكون هناك رادعٌ لهؤلاء، على أن لا تنام الأُمّة وتنتظر أن يرسل لها المولى عز وجل ملائكة من السماء تقاتل دونهم، فكانت الثورة الحسينية التي وقفت بوجه الأُمويين لتحوّل مجرى التاريخ؛ لذا قيل: إنّ الإسلام محمديّ الوجود حسينيّ البقاء.

فهذا الدين مَدين للإمام الحسين عليه السلام ببقائه، فلولاه لما بقي من الإسلام إلّا اسمه، فكانت الأهداف الحسينية تتحقّق واحداً تلو الآخر، ونستطيع حصرها بما يأتي:

١ـ تحرير إرادة الأُمّة

فالطواغيت متّفقون على استخدام سلاحَين مؤثِّرَين في وجه تحرك الأُمّة وتمرّدها ورفضها للظلم، «وهما: سلاح (الإرهاب)، و(الإفساد). ومن خصائص هذين السلاحين أنّهما يسلبان الأُمّة الإرادة والقدرة على التحرّك والوعي والإدراك»[٨].

وهذه سنّة الطغاة في كلّ عصرٍ ومصر ـ من باب التاريخ يُعيد نفسه ـ

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[9]. ففرعون قد سلب الأُمّة إرادتها ووعيها وقيمها بالإرهاب والإفساد، فمسخ الأُمّة بشخصها كاملاً، واستأصل كلّ قدرةٍ لها على التفكير، كذلك فعل بنو أُميّة، وقد وضعوا الأحاديث النبوية لإضلال الأُمّة وتخديرها وإطاعتها للحاكم الظالم إطاعةً عمياء، من ذلك أنّهم نسبوا إلى رسول الله ﷺ القول: «يكون بعدي أئمّة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسنّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، فقال السائل: كيف أصنع يا رسول الله؟ قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطِع»[10].

وهذا الفكر قد أعطى الحاكم حصانة حتى لو كان ظالماً؛ بحجّة أنّ الخروج عليه يؤدّي إلى مفسدة أكبر من السكوت على ظلمه، ودور العلماء ينحصر عند انحراف الحاكم بالذهاب إلى المساجد والدعاء له بالهداية.

وربّ سائل يسأل: لماذا اختار الحسين عليه السلام تلك الموتة الفجيعة على يد أُمّة ادّعت الانتماء للإسلام، واختار مشهداً أصبحت الأُمّة كلّها شاهداً عليه، مَدينةً بكسلها واستسلامها وخضوعها لدولة الانحراف؟

الجواب: لأنّ ذلك الأمر الوحيد الذي كان كفيلاً بإيقاظ الأُمّة وتنبيهها إلى خطر الانحراف المستشري، وكان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يهزّها ويعيدها إلى صوابها، وكان لا بدّ من مشهد مثل ذلك المشهد الذي جرى على أرض كربلاء، وأمام أنظار شريحة كبيرة من الأُمّة التي ادّعت ولاءها وحبّها للرسول ﷺ وآله عليهم السلام، ثمّ تخلّت عنهم، فهذه الأُمّة لا بدّ أن تنهض، ولا بدّ أن تثور كلّها بوجه النظام المنحرف، وبوجه كلّ نظام منحرف آخر[11] إلى يوم القيامة، ولا

تصدّق بحفنةٍ من الأحاديث الموضوعة التي وضعها حكّام الجور لأجل استمرار حكمهم وظلمهم للعباد.

٢ـ سلب الشرعية من النظام

أعطى الأُمويون لأنفسهم صبغةً شرعية، وكانوا يوحون للناس بطريقٍ وبآخر أنّ موقع الخلافة أقوى من موقع الرسالة، فيقول قائلهم: «إنّ خليفة أحدكم أفضل من رسوله»[١٢]، وقد أخذوا من إمارتهم أداةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، فكان هذا الموقع الشرعي الذي حرصوا عليه أكبر الأخطار التي تلحق أُمّة الإسلام، فقد كانت انحرافات أُمرائهم تنحدر إلى الناس من قصور الخلفاء في أُطر شرعية، وكانت حركته عليه السلام لكسر هذا الإطار الشرعي، وقد أعلن هذا الموقف علناً أمام الوليد بن عتبة، عندما دعاه لمبايعة يزيد، فقال له: «يزيد رجلٌ فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس، معلنٌ بالفسق، فمثلي لا يبايع مثله»[١٣].

وكان هذا الموقف، ثمّ بعده الخروج على حكم بني أُميّة وذلك بإعلان الحرب، كلّ هذه الأسباب كان لها الأثر الفاعل في إثارة سخط المسلمين ضدّ سلطان بني أُميّة، وبالتالي الخروج وإعلان التمرّد وذلك بتوسيع دائرة المعارضة إلى قيام ثورات عدّة كردّ فعل على ما حصل في كربلاء، وقد تحقّق هذا الهدف أيضاً.

٣ـ استعادة الدور القيادي والريادي للدولة الإسلامية

وقد تمثّل بتحمّل رسالة الإسلام بكلّ ما تتضمّنه كلمة الإسلام من معنى التوحيد الخالص لله تعالى، وجعلها أمينة على تحمّل هذه الرسالة؛ لتكون أُمّةً وسطاً، ويكون أفرادها المؤمنون شهداء على الناس بكلّ ما تتضمّنه هذه التعابير من مضامين عالية وغالية، الأمر الذي لا يتهيّأ لها

من دون تمثّلها لكل القيم التشريعية والعقائدية التي تضمّنتها عقيدة الإسلام فكراً وسلوكاً، وعلماً وعملاً، وعقيدةً وتشريعاً.

٤ ـ تعريف الإيمان وحقيقة العبودية

أراد الإمام الحسين عليه السلام بثورته الباسلة أن يُثبت للناس أنّ حبّ الله هو ضروري للإيمان، فكان مصداق قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾[١٤]، فقد ضحّى عليه السلام بعياله وأصحابه، ثمّ بنفسه الزكية، فهام في الحبّ الإلهي.

هذه أهمّ الأهداف التي يمكن استيفاؤها من الواقعة، ونحن نلقي نظرةً على وصيته لأخيه محمد بن الحنفية قبل الخروج من المدينة متوجّهاً إلى مكّة، والوصية هي كالآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي إلى أخيه محمد ابن الحنفية: أنّ الحسين يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عنده، وأنّ الجنة حقٌّ والنار حقٌّ، والساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور، وأنّي لم أخرج أشراً ولا بَطِراً ولا مُفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدي صلى الله عليه وآله، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمَن قبلني بقبول الحق فالله أوْلى بالحقّ، ومَن ردّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين»[١٥]، ثمّ طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى أخيه محمد.

فهذه الوصية تحمل معاني كثيرة وأهدافاً عالية للخروج على الحاكم الظالم، فإذا أضفنا إلى هذا رسالتَه إلى وجوه البصرة، والتي كان من ضمن كلماته: «أنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، فإنّ السنّة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي أهدِكم سبيل الرشاد»[١٦]، أضف إلى

ذلك كتابه الذي أرسله مع مسلم بن عقيل إلى أهل الكوفة، والذي حدّد فيه رسالته: «... فلعمري، ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائم بالحقّ، الحابس نفسه على ذات الله»[١٧]، ومن هذه الوصايا يمكن أن نستلهم أهدافاً أُخرى للثورة:

١ـ إحياء الإسلام.

٢ـ إحياء السنّة النبوية والسيرة العلوية، وإماتة البدعة.

٣ـ توفير القِسط والعدالة الاجتماعية، وتطبيق حكم الشريعة.

٤ـ إزالة البِدع والانحرافات.

٥ـ كسر عقدة الخوف من الحكّام الظلمة عند أبناء الأُمّة.

٦ـ إنشاء مدرسة تربوية رفيعة، وإعطاء المجتمع دوره وشخصيته.

ففي كلّ هذا وذاك كان هدفه السامي هو التغيير، والتغيير هنا ليس جانباً واحداً، بل تغييرٌ سياسيٌّ واجتماعيٌّ واقتصاديٌّ، فكانت ثورته عليه السلام فريدةً في نوعها، ولا نبالغ إذا قلنا: لا يوجد مثلها حتى في تاريخ الأنبياء وأوصياء الأنبياء، ولا توجد عملية أو حركة اجتماعية تشابه تلك العملية التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام، عملية فريدة في نفسها، ومختصّة بخصائص تميّزها عن غيرها؛ لذا صارت رسالة موجّهة إلى كلّ العالم، لا تخصّ طائفةً دون أُخرى، ولا قوميةً دون أُخرى، ولا ديناً دون آخر، بل أصبح جميع البشر مكلّفين بأن يأخذوا منها الدروس والعبر، ولا نتعجّب إن قال (غاندي) الهندوسي: «تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر»[١٨]، وكذلك ما قاله الرئيس الصيني (ماو تسي تونغ) لياسر عرفات ـ عندما طلب منه أن يعلّمه دروساً في التضحية من دروس الثورة الصينية ـ: «عندكم تجربة ثورية قائدها الحسين، وهي تجربة إنسانية فذّة، وتأتون إلينا لتأخذوا التجارب؟!»[١٩].

وقد حقّقت ثورة الإمام الحسين عليه السلام أهدافها، سواء كان ذلك على المديات القريبة أم البعيدة، فعلى المديات القريبة كانت أوّل ثورة بعد واقعة الطف هي ثورة سليمان ابن صرد الخزاعي، وبعدها ثورة المختار، ثمّ ثورة زيد بن علي عليهما السلام، وهكذا توالت الثورات «إلى أن سقط الحكم الأُموي، وليس المهم أن يسقط الحكم الأُموي أو لا يسقط، بمقدار أنّ المهم هو أنّ الشارع بقيَ محافظاً على القيم الإسلامية الأصيلة بدرجةٍ كبيرة، والعالم اليوم يهتزّ لحضارتنا ولأُمّتنا الحية المتقدّمة، من هنا من الشرق ومن العراق، ومن هذه المنطقة منطقة أتباع أهل البيت عليهم السلام»[٢٠].

أمّا على المديات البعيدة، فقد حقّقت الكثير الكثير، فما الصحوات في العالم الإسلامي إلّا ومضةٌ من تلك الومضات الربّانية، فالثورة الإسلامية التي قامت في إيران ما هي إلّا من إرهاصات تلك الثورة الحسينية، وما حصل في جنوب لبنان من دفع للعدو الصهيوني بعد ما كان يسرح ويمرح في لبنان إلّا شرارة من شرارات الحسين عليه السلام، وما حصل في العراق ويحصل اليوم من انتفاضة على الظلم والظالمين، وما سيحصل بعد آلاف السنين فهو من كربلاء، وقد صدق الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية الإيرانية عندما قال: «كلّ ما لدينا هو من عاشوراء»[٢١]، وصدقت المقولة المشهورة القائلة: «كلّ يوم عاشوراء، وكلّ أرض كربلاء»[٢٢]، فعاشوراء ليست واقعة، بل هي ثقافة، ثقافة الملحمة، ثقافة الشهادة، ثقافة الصمود والمقاومة، ثقافة الولاية، ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثقافة الحب، ثقافة الإيثار، ثقافة التحمّل، ثقافة البصيرة والتدبير، ثقافة التسليم لأمر الله، ثقافة الوفاء للقرآن والعترة، ثقافة العزة والرفعة، ثقافة عدم الاهتمام بزخارف الدنيا، وثقافة جميع الخيرات[٢٣]؛ لأنّ عاشوراء عبارة عن

مجابهة بين رؤيتين: رؤية الإسلام الأصيل ورؤية الإسلام الأُموي، عبارة عن اصطفاف مَن جذبتهم ملذات الدنيا أمام طلّاب الآخرة، هي ساحة اختبار الخواصّ والعوام، عاشوراء كانت حصيلة ضعف التبعية للقائد الذي اختاره الله، عاشوراء حصيلة انتشار الفساد والذنوب وعدم الالتزام في المجتمع وضعف الإيمان، إلى غير ذلك من حصائل[٢٤].

ولرُبَّ سائلٍ يسأل: ما هو سرّ انشداد الناس لثورة الحسين عليه السلام؟ أي: ما هي أسباب هذا التفاعل الوجداني لجماهير الناس مع نهضة الحسين عليه السلام؟ وإذا كنّا في مقام الإجابة فنقول: إنّ هذا الانشداد والتفاعل جاء من سببين:

الأول: مشيئة الله سبحانه وتعالى.

الثاني: أنّ جماهير الناس قد وجدت في عاشوراء شيئاً يتناغم مع ضمائرها وعقولها وعواطفها، كما وجدوا فيها ذاتهم وزادهم في المسير إلى الله تعالى[٢٥]، وقد وجد الناس في هذه الثورة الأُسوة في حياتهم.

وهكذا ستظلّ هذه الثورة مشعلاً للأحرار في بقاع الأرض إلى يوم القيامة.

المبحث الثاني: أثر المنابر الحسينية في توعية الأُمّة

المنبر الحسيني: هو ما يُطرح من أفكار وأحاديث ومفاهيم إسلامية، وفضائل قادة المسلمين، والبحث في مشاكل المسلمين، والسعي إلى إيجاد حلٍّ لها[٢٦]، وليس المقصود به هو الخشب الذي هُندس بطريقةٍ معيّنة.

إمّا الخطبة الحسينية، فهي: «الخطبة التي يُلقيها الخطيب الحسيني في المجلس الحسيني، وتمتاز بمواصفات خاصّة بها، منها: ذكر الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام وأنصاره، والإشادة بمواقفهم، ثمّ التخلّص بذكر مأساتهم ومصائبهم، وهي أيضاً الخطبة الكاملة

والمحاضرة النافعة التي تبعث الوعي في الأُمّة، وتنشر الثقافة في المجتمع؛ لما تحمله من مضمون علمي في مجالات المعرفة»[٢٧].

يُعدّ الإمام زين العابدين عليه السلام مؤسِّس هذا المنبر، وأوّل مَن اعتلى الأعواد وتكلّم بكلامٍ نال استحسان الحاضرين، بل وتعجّبوا من منطقه الفيّاض، وذلك في مجلس يزيد في عام (٦١هـ)، أي: بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام بعدّة أيام، وكانت خطبته في ذلك المجلس هي الخطبة التأسيسية لمنبر الحسين عليه السلام[٢٨]، وقد وضع عليه السلام الحجر الأساس للخطبة الحسينية، وجمع العناصر الأساسية، وقال في خطبته: «الحمد لله الذي لا بداية له، والدائم الذي لا نفاد له، والأوّل الذي لا أوّلية له، والآخر الذي لا آخرية له، والباقي بعد فناء الخلق قدر الليالي والأيام، وقسّم في ما بينهم الأقسام، فتبارك الله الملك العلّام... أيّها الناس، أُعطينا ستّاً وفُضّلنا بسبع، أُعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفُضّلنا بأنّ منّا النبي المختار محمّداً صلى الله عليه وآله، ومنا الصديق، ومنا الطيار، ومنا أسد الله، ومنا أسد الرسول، ومنا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنا سبطا هذه الأُمّة وسيدا شباب أهل الجنة.

أيّها الناس، مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أيّها الناس أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن مَن حمل الركن بأطراف الردا... أنا ابن مَن أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن مَن ضرب بين يدي رسول الله ببدرٍ وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ذاك أبو السبطين الحسن والحسين علي

ابن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزهراء، وسيدة النساء، وابن خديجة

الكبرى، أنا ابن المرمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح كربلاء، أنا ابن مَن بكى عليه الجن في الظلماء، وناحت عليه الطير في الهواء.

فلمّا بلغ إلى هذا الموضع ضجّ الناس بالبكاء، وخَشي يزيد الفتنه فأمر المؤذّن أن يؤذّن للصلاة»[٢٩].

وقد جمعت هذه الخطبة العناصر الأساسية للمنبر الحسيني، وهي:

١ـ ركّز الإمام السجاد عليه السلام في بداية خطبته على مسألة التوحيد والمسائل العقائدية، فكأنّما أراد من رواد المنابر أن تكون أحاديثهم في بداية كلّ خطبة هو الخوض في المسائل العقائدية؛ لِما تعرّضت له من تشوّه بين الفينة والأُخرى.

٢ـ أكّد الإمام بعد ذلك على دور أهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية، وأنّ الإشارة إلى مزاياهم تعيد ذكراهم في النفوس، وتُحيي أمجادهم في الذاكرة.

٣ـ أكّد في نهاية الخطبة على مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، حتى أنّه أبكى كلّ مَن كان في المجلس.

ومن هذه الخطبة الخالدة للإمام السجاد عليه السلام نستطيع إن نستلهم أهداف المنبر الحسيني، والتي هي كما فهمناها من الخطبة:

١ـ إنّ المنبر الحسيني له مسؤولية وله رسالة، وهذه الرسالة يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وهذا ما فهمناه في قوله عليه السلام: «أتأذن لي أن أرقى هذه الأعواد، فأتكلم بكلامٍ فيه لله تعالى رضىً ولهؤلاء الناسِ أجرٌ وثواب؟».

٢ـ إنّ على الخطيب الحسيني أن لا يستهين بالجالسين أمامه مهما كان مستواهم العلمي، فالإمام السجاد عليه السلام رغم علمه أنّ مَن كان في مجلس يزيد هم من أهل الشام، الذين غُسلت عقولهم من قبل معاوية ثمّ من بعده ابنه يزيد، مع ذلك وجّه الخطاب

إليهم.

٣ـ على الخطيب أن يكون واعياً لمشاكل المجتمعات التي يخاطبها، فالخطيب الذي يخطب في العراق مثلاً يجب أن يكون خطابه مختلفاً عن خطاب المبلِّغ الذي يمارس دوره في بلدان أُخرى.

٤ـ إنّ المنبر الحسيني مؤسّسة إسلامية يُراد من خلالها إحياء الإسلام، وإحياء سيرة أهل البيت عليهم السلام؛ لذا يجب أن يكون بمستوى تلك المسؤولية[٣٠].

٥ـ أن يهتمّ الخطيب بمشاكل المجتمع، ويحاول الحديث عنها، لا سيما مشاكل شبابنا اليوم، فنحن نتعرّض إلى هجمةٍ شرسة في ديننا، فيجب على الخطباء الحديث عن كلّ الفئات العمرية، لا سيما هذه الفئة؛ لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال: «**أُوصيكم بالشباب خيراً، فإنّهم أرقّ أفئدةً وأتقى نفوساً**»[٣١].

وكانت الثورة الحسينية وما زالت مليئةً بالمعطيات، فكان المنبر الحسيني أحد تلك المعطيات؛ لأنّه يشارك الأُمّة الإسلامية في سرّائها وضرّائها، شدّتها ورخائها، وهو مصدر الوعي السياسي والثقافي فيها.

وقد حفل تاريخ المنبر الحسيني بالمواقف الثورية والأعمال البطولية، ففي ثورة العشرين في العراق شارك مجموعة من خطباء المنبر الحسيني في الدفاع عن استقلال العراق، وفي أيّام المدّ الشيوعي في المنطقة الإسلامية وقف المنبر الحسيني أمام الكفر والإلحاد بصلابة، وواصل الدفاع عن الإسلام ببسالة، وأبلى الخطباء بلاءً حسناً في إعلاء كلمة الله، ودحض الإلحاد والكفر، بعد أن انخرط مجموعة من شبابنا المسلم في هذا المدّ الجارف، كذلك ما فعله المنبر في نفوس الشباب ضدّ الكفر العفلقي والظلم الصدامي، وهذا هو الذي دفع النظام المجرم لتعطيل المنابر

الحسينية وتصفية الخطباء، فسجن وعذّب الكثير من الخطباء، واستُشهد آخرون في ظروف غامضة، وشُرّد الكثير منهم، ولا ننسى دور المنبر في أحداث الثورة الإسلامية في إيران، فقد ساهم المنبر الحسيني مساهمةً فعّالة في توعية الجماهير لمساندة الثورة وقائدها الخميني ﷺ[٣٢].

أمّا دور المنبر اليوم في الهجمة الهمجية الداعشية على عراقنا الحبيب، فقد كان له حضور مشهود، فنرى الخطباء قد شدّوا على أيدي الشباب العراقي يحثونهم على الاستجابة لنداء المرجعية، التي أعلنت بضرورة الجهاد ـ وإن كان الجهاد كفائياً ـ ضدّ هؤلاء البرابرة مغول العصر، الذين جاءت بهم دول الاستكبار العالمي لغزو العالم الإسلامي، بعد أن تعبت من قيادة الحروب بنفسها، فسلّطت عملاءها في المنطقة لخوضها نيابةً عنها، وبأموال هذه الشعوب الإسلامية المظلومة، فكان العراق واحداً من تلك الدول التي تعرّضت لهذه الهجمة، بعد أن استطاع الأوباش الذين قَدِموا من دول مختلفة من العالم أن يُدمّروا أجزاءً كثيرة من سورية تحوّلوا إلى العراق، بعد أن جمعوا خريجي السجون المحكومين بالإعدام لتدمير العراق الصامد، سيظلّ العراق صامداً ـ إن شاء الله ـ ما بقي لأبنائه عِرقٌ ينبض، وهذا هو الهدف الأساس الذي من أجله شجّع أئمّة أهل البيت عليهم السلام على ضرورة تأسيس هذه المجالس، بل أشادوا بتلك المجالس وحثّوا عليها؛ لأنّهم عليهم السلام يعلمون أنّ هذه المجالس سوف تكون في يومٍ من الأيام مدارسَ لشيعتهم، فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لفضيل ابن يسار: «يا فضيل، تجلسون وتحدّثون؟ قلت: نعم. قال عليه السلام: تلك المجالس أُحبّها، فأحيوا أمرنا، رحم الله مَن أحيى أمرنا، يا فضيل، مَن ذكرنا أو ذُكرنا عنده، فخرج من عينه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت

أكثر من زبد البحر»[٣٣].

«والواقع أنّ لرعاية الأئمّة عليهم السلام للمجالس الحسينية، وإقامتهم لها في بيوتهم، دخلاً في تحويلها إلى مؤسّسة ثقافية واسعة، امتدّت على رقعة المسكون، لتنتظم في عقدها الشيعة مواطن ومساكن، وليس هذا التطوّر معزواً إلى العفوية، بل هو خطّة موضوعة، أحكم وضعها أئمّة أهل البيت وتابعهم على ذلك شيعتهم»[٣٤].

وقد آتت هذه الخطوة أُكلها وعلى مرّ الزمان، فلم يؤثر عن مؤسّسة ثقافية ما أُثر عن المنبر الحسيني من الحضور الفعلي في كلّ زمان ومكان في الحياة الإسلامية؛ حيث إنّه ترك أثراً واضحاً على شخصية المسلم ذي الارتياد المستمر للمأتم الحسيني، بل حتى الذي يرتاده لأوّل مرة، فلا يقوم من مقامه إلّا وقد ترك في نفسه أثراً واضحاً، ولا ضير إذا قلنا: إنّ تقويم الشخصية الشيعية مستندٌ إلى ما يفعله المنبر الحسيني من تأثير بيّن فيها؛ لذا صار من واجب أصحاب المنابر ليس فقط التركيز على الجانب المأساوي وحده، وإنّما التركيز على كافّة الجوانب، لأنّ مَن ركّز على الجانب المأساوي ورآه مجرّد تعبير عن أقصى الحزن والألم، فقد أساء كثيراً للثورة الحسينية؛ لأنّ هذه الثورة إنّما جاءت لتصوغ المرء المسلم صياغةً ملائكية، تتلاشى فيها الصفات المذمومة التي ورثها من حضارته المصنوعة بأيدٍ بشرية، من قبيل: الطمع، والشح، والخوف، والجبن، والانتهازية، والنفعية، والمحسوبية، والمادية، وغيرها كثير. صحيحٌ أنّ هذه المؤسّسة الاجتماعية ـ أعني المنبر الحسيني ـ لا تقوم وحدها بهذا الواجب، ولا تتعامل بمفردها مع إنسان مجتمعها، بل تتشاطر مع غيرها من المؤسّسات الاجتماعية في إعادة هوية المرء المسلم ـ وإن كان هناك مؤسّسات تحمل طابعاً

غير إسلامي وهدفها تدمير المسلم ـ لذا يجب أن تكون واعية لتستوعب تغيرات العصر، ولكن بحذرٍ شديد، بحيث تستطيع أن تنتصر أو تثبت أمام التحدّيات التي قد تُطرح من مؤسّسات أُخرى، فلا تفقد جمهورها الخاصّ الذي يستجيب لنداءات الواقع وضروراته، هذا مع التأكيد على «صفة الأصالة في حال الاستجابة لضرورات الحداثة، فلا تطغى ضرورات الحداثة على صفة الأصالة، فتخرج المؤسّسة عن حقيقتها، ويخرج قادتها عن جوهر رسالتهم»[٣٥]، فمثلاً نرى أنّ الثقافة الحسينية في العصر الحديث قد تطوّرت لتستفيد من الوسائل الإعلامية المتطوّرة، كالإعلام المرئي والمسموع، والمسرح والإنترنت، والصحيفة وغيرها؛ ليشارك في إظهار هذا الأثر الفقيه والمفكّر والأديب والفيلسوف، والرجل والمرأة، لكنها مع ذلك لم تضمحلّ أو تتمحور على العكس؛ لأنّ الحسين عليه السلام وكما قال جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله: «مصباح الهدى وسفينة النجاة»[٣٦]، وأنّه عليه السلام يعطي العلم والثقافة والمعرفة للإنسان، ويدعو إلى نهضة ثقافية وحضارية، ويحارب الجهل والتخلّف الفكري والعلمي، وعليه؛ فإنّ للمنبر الحسيني آثاراً عدّة يمكن عدّها بما يلي:

١ــ **الأثر الثقافي**: الثقافة التي أسّسها الحسين عليه السلام بثورته، وهي ما نصطلح عليه (الخطابة الحسينية) وما يتعلّق بها من الأدب الحسيني، التي من خلالها يُطرح كلّ ما يهمّ الإنسان، وما يقع عليه من مسؤوليات.

٢ــ **الأثر الاجتماعي**: أصبح الحسين عليه السلام وسيلةً للوئام الاجتماعي؛ لأنّه يحملهم من مكان واحد، وتحت سقف واحد، فإنّك ترى في المجلس الحسيني العالم، والدكتور، والمهندس، والعامل، والفلاح، والرجل، والمرأة، والشاب، والكبير، والصغير، مجتمعين تحت ظلّه عليه السلام، وقد حقّق الإمام عليه السلام ما

لم يحقّقه غيره، فجمع الأضداد تحت خيمته، وألغى التفاوت الطبقي والاجتماعي، بحيث يصبح الكلّ جالسين بهيئة واحدة، والكلّ آذان صاغية يستمعون إلى ما يقوله الخطيب والأديب، ودموعهم جارية حسرةً على صاحب المصيبة.

٣ـ الأثر السياسي: لقد ترك الإمام الحسين عليه السلام ومنبره والنداء بمظلوميته أثراً واضحاً فيمَن أرادوا الوصول إلى حكم عادل ينعم به الإنسان، ولا يعود يعاني من الاضطهاد الذي يشهده من حكّام العالم الإسلامي اليوم، فهذا المختار الثقفي لمّا رفع شعار: «يا لثارات الحسين»، استطاع أن يؤسّس دولة طويلة عريضة شملت ثلاثة أرباع العراق، ووصلت إلى أرمينيا وإيران وجبال الأكراد، وقد وصل هذا كلّه بفضل رفعه شعار: «يا لثارات الحسين»؛ لذا فقد استجاب له الجماهير وانتصروا بالحسين على خصومهم، لهذا قال غاندي الهندوسي كلمته الشهيرة: «تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر»، إذ جعل الظلامة الحسينية شعاراً ومبدءاً في كفاحه ضدّ المحتلّ البريطاني، حتى أزاح كابوسه عن بلاده، وحرّرها بفضل الحسين عليه السلام.

٤ـ الأثر العاطفي: فقد ترك المنبر أثره العاطفي في الناس، فالشفقة الإنسانية تجاه سيد الشهداء عليه السلام وأصحابه وأهل بيته وعياله ونسائه، والتي تترجم بحسب فهم الناس ووعيهم وجهلهم وسذاجتهم اتّجاه الإسلام عامّة والحسين عليه السلام خاصّة، فهم ورغم اختلافاتهم هذه متّفقون على أشياء كثيرة، كإقامة المآتم، وعقد المجالس الحسينية، وقراءة الرثاء، والبكاء، وإنشاد الشعر الحزين، وإن كان هذا يختلف من بلدٍ إلى بلد.

٥ـ الأثر الحركي والثوري: ثورة الحسين عليه السلام أُريد منها أن تكون حركة تغييرية، وثورة ضدّ الظلم وحكّام الجور، فإذا ذُكر اسم الحسين عليه السلام تبادر

إلى الأذهان: الثورة، التغيير، التمرّد على الواقع المرّ، ولأنّ هدفه عليه السلام ـ منذ خروجه ـ الإصلاح في أُمة جده، والإصلاح لا يقوم إلّا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما عاملان من عوامل النهوض الحضاري والإصلاح الاجتماعي؛ لذا قال تعالى مادحاً مَن قام بالأمرين معاً: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٣٧]. وبما أنّ الظلم موجودٌ في كلّ زمانٍ ومكان، فالحسين عليه السلام سوف يبقى يواجه هذا الظلم في كلّ مكانٍ وزمان، فقد ورث دروس الشجاعة وإباء الضيم ورفضه عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام منذ أن كان طفلاً، فقد روي أنّه عليه السلام عندما كان طفلاً حضر مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فوجد الخليفة الأوّل يخطب، فأخذ بتلابيبه وجرّه قائلاً: «هذا منبر أبي لا منبر أبيك... [فقال أبو بكر:] صدقت، هذا منبر أبيك لا منبر أبي»[٣٨]؛ لأنّه كان يعلم أنّ الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لأبيه علي عليه السلام، وليس لأحدٍ غيره.

٦ـ **الأثر الديني**: هذا الأثر قال به القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[٣٩]، فتعظيم هذه الشعائر الحسينية وإقامتها، وعمل المجالس الحسينية والتشجيع عليها، وإنفاق الأموال وبذل الغالي والنفيس هو إحياء الشعائر؛ لأنّ شعائر الحسين هي شعائر الله، وهي معالم تدلّ على دين الله، فالمسجد هو بيت الله، كذلك فإنّ الحسينية هي الأُخرى بيت الله؛ لأنّها بيت الحسين عليه السلام ولا يختلف الاثنان في ذلك[٤٠].

هذه هي أدوار المنبر الحسيني وآثاره، فلنحاول إذاً إلقاء الضوء على تأثيره في فئة مهمّة من فئات المجتمع، ألا وهي فئة الشباب المسلم، ومدى تأثير شباب الطف عليهم.

المبحث الثالث: ما الذي استلهمه الشباب اليوم من دروس كربلاء الحسين وشباب الطف؟

قال تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾[٤١]. فالآية الكريمة قسّمت العمر الطبيعي للإنسان إلى أدوار ثلاثة، وهنّ عبارة عن دوري ضعف، يتوسّط بينهما دور قوّة، فدوري الضعف هما: دور الطفولة والصبا إلى سنّ البلوغ، ثمّ دور الكهولة والشيخوخة إلى حين الموت، وبين الدورين دور القوة وهو دور الشباب الذي يبدأ من حين البلوغ الجنسي في الخامسة عشرة عادةً إلى عمر الأربعين سنة، وهي الفرصة الوحيدة للإنسان لكي يستفيد من حياته كلّها، بأن يعتبر فيه بأخطاء الماضي، وينظّم فيه الحاضر ويبني فيه المستقبل، وفي هذا الدور ـ دور الشباب ـ تتفتّح طاقات الإنسان ومشاعره الروحية والجسمية، وتنمو مواهبه ومَلكاته الشخصية، وتنضج قواه وغرائزه، ويمتلئ نشاطاً وحيوية، ويندفع بجد واهتمام في طريق الحياة للأخذ والعطاء والتأثّر والتأثير والسعي والعمل[٤٢]، من هذا وذاك اعتبر الإسلام أنّ الشباب محور الأُمة وقطب المجتمع في كلّ ما يتعرّض له من نجاح أو فشل، وتقدّم أو تخلّف، ونصر أو هزيمة، بل صارت كلّ آمال الأُمّة وأهدافها منوطة بشبابها إن كانوا صالحين.

ومن هذه الأهمّية وجّهت المجتمعات العالمية جلّ اهتمامها لشبابها تربيةً وتعليماً ورعاية، وعنيت الحكومات والقوانين والنظم العالمية عنايةً فائقة بالشباب، فأنشأت لهم وزارة خاصّة، ووضعت لشؤونهم برامج وخطط تستهلك شطراً كبيراً من ميزانية الدولة.

والحقيقة أنّ الإسلام قد سبق جميع المجتمعات والحكومات إلى الكشف

عن أهمّية الشباب وعظيم تأثيره في المجتمع، فقد ركّز الرسول ﷺ وفي بدايات دعوته على جيل الشباب، مُولياً لهم أهمّية فائقة، مستعيناً بالنظرة السليمة التي يتحلّى بها هذا الجيل، بعد أن أطلعهم على الثوابت الأخلاقية والأُصول الدينية، وضرورة أن يوجّه الشباب جميع قدراته وقابلياته باتّجاه الخير والسعادة والإحسان، فاستعمل ﷺ مجموعة من الشباب في إدارة شؤون المسلمين، فكان علي بن أبي طالب عليه السلام أوّل شاب دعاه الرسول ﷺ، فأجاب حينما أمره بالمبيت على فراشه، وأوّل فدائي في الإسلام عرض نفسه لسيوف قريش، الذين قرّروا اغتيال شخص النبي الكريم ﷺ، وكذلك كان مصعب بن عمير ذلك الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، الذي كان مترفاً فترك ترفه وهاجر إلى رسول الله ﷺ[٤٣]، ثمّ الشاب عتاب بن أسيد الذي كان في العشرين من عمره، ولّاه النبي ﷺ إمارة مكّة بعد فتحها[٤٤].

وآخر شاب اعتمد عليه ﷺ قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى هو أُسامة بن زيد الشاب البالغ ثمانية عشر عاماً، أمّره على أخطر جيش جهزه في حياته، وكان تحت لوائه الشيوخ وكبار السن من الصحابة[٤٥].

وطالما لاقى ﷺ معارضة شديدة ولوم كبير ـ رغم أنّه: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾[٤٦] ـ من بعض مَن يعتبر نفسه أوْلى بذلك؛ لكبر سنّه أو قدمه، وكان ﷺ يرد عليهم ردّاً حاسماً، فمثلاً عندما عيّن أسامة بن زيد قائداً لجيشه تكلّم القوم وقالوا: «يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين؟! فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد، أيّها الناس فما مقالةٌ بلغتني عن بعضكم في تأمير

أُسامة، لئن طعنتم في تأميري أُسامة فقد طعنتم في تأميري أباه قبله، وأيم الله، إنّه كان للإمارة خليقاً، وإن ابنه بعده لخليقٌ للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، فاستوصوا به خيراً، فإنّه من خياركم»[٤٧].

وما اهتمامه ﷺ هذا لهم، وإصراره على حماية الشباب الأكفاء، ودعم مواقفهم إلّا لأنّه ﷺ كان يريد أن يرسّخ في أذهان عامّة المسلمين أنّ الذين كانوا يخطئون الشباب يجب أن يلتفتوا إلى جهلهم في هذا التقييم.

أمّا الأئمّة المعصومون عليهم السلام، فقد أوصوا بالشباب، ولهم عليهم السلام شواهد قولية وفعلية على اعتمادهم وثقتهم بالشباب المؤمن في إقامة الحق، والدعوة إلى الصراط المستقيم، فقد سُئل أمير المؤمنين عليه السلام يوماً من أيام معارك صفّين ضدّ المتمرّدين (معاوية وحزبه)، فقيل له: ما الذي أقعدك عن انتزاع حقّك في الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، فقال عليه السلام: «هؤلاء...»، وأشار إلى فرقةٍ من جيشه تشتمل على عشرة آلاف شاب من شباب المدينة وأطرافها، هؤلاء كانوا في أصلاب آبائهم وأرحام أُمّهاتهم في ذلك اليوم[٤٨].

وقد حدّث عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام في وصيّته له عن دور الآباء في تربية الشباب فقال: «**وإنّما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها قبلته، فبادرتُك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك**»[٤٩].

وما هذا إلّا لأنّه عليه السلام يعلم أنّ أيام الشباب تعني بلوغ أعلى القمم، وشروع أجمل مراحل العمر، الشاب في هذه المرحلة يرى الأشياء جميلة، ويرى الأُفق واسعاً مليئاً بكلّ ما يستهويه ويرتضيه، ويصبح غارقاً بالآمال والأُمنيات، وقلبه طافح بالحبّ والأمل.

وهكذا أكّد بقية الأئمّة عليهم السلام على وجوب تربية الشباب، والاعتناء بهم وبنائهم بناءً فكرياً وروحياً وخُلقياً؛

لأنّهم مؤهّلون لنقل التعلّم أكثر من غيرهم، فعن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام قالا: «لو أُتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه لأدبته، قال: وكان أبو جعفر عليه السلام يقول: تفقهوا، وإلّا فأنتم أعراب»[٥٠].

وما دمنا في الحديث عن الشباب ودورهم في الحياة الاجتماعية لا بدّ من أن نعرّج على شباب الطف؛ لما لدورهم من أهمّية، فقد وقفوا مواقف بقيت آثارها إلى اليوم محرّكةً للتاريخ، ومقوّمة لمسيرته، وهؤلاء الشباب ساروا أكثر من ألفي كيلو متر من مكّة إلى كربلاء، والكوفة، وسنجار، وحلب، ودمشق، ثمّ عادوا في نفس الطريق إلى المدينة، علماً أنّهم لم يتعوّدوا على هذه الرحلات الطويلة والشاقّة المرافقة للخوف والإرهاب والبطش، فكانت رحلتهم ملحمة من التضحية والجهاد، والجود بالنفس في سبيل العدالة والمساواة وإحقاق حكم الله في الأرض، فكانت أمانيهم ومطامحهم صموداً في الأهوال، وصبراً في البأساء، واستشهاداً بحدّ السيوف، فإذا كانت مطامح الشباب عيشاً رغيداً ومستقبلاً سعيداً حافلاً بكلّ ألوان النِّعَم كما نشاهد ونرى، فإنّ شباب كربلاء لم يفكّروا أو يهتمّوا بما أُعدّ لهم من غضارة الدنيا، وما ينتظرهم من صفو الحياة ولهوها ومتعتها، بل كان همّهم التطلّع إلى أي سبيل من سُبل الشهادة يعبرون، وأي موقفٍ من مواقف البطولات يقفون.

نحاول على عجالةأن نذكر بعض أسماء هؤلاء الشباب وبعض مواقفهم التي سطّرها التاريخ بأحرفٍ من نور، فقد سار الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء على رأس قافلة من الشباب الأبطال، متحدّياً أقوى سلطة وأبشع طغيان بسبعين من الرجال والشباب؛ ليحطّم بهذا العدد القليل قوى الشر والطغيان، ومعاقل البغي والعدوان، وليعلم أبناء آدم كيف يموتون في سبيل العزّة والكرامة[٥١]، فمن هؤلاء الشباب:

١ـ علي الأكبر: هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وُلد في أوّل خلافة عثمان بن عفان، أو بعد جدّه عليه السلام بسنتين كما ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد[٥٢]، أُمّه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي[٥٣]، كان يشبه جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله في المنطق والخَلق والخُلق[٥٤]، وروى الحديث عن جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام، كما حقّقه ابن إدريس في السرائر، ونقله عن علماء التاريخ والسير.

علي الأكبر رمز الشباب، علي الأكبر الشاب الكامل، علي الأكبر المؤمن ذو البصيرة النافذة، ذو الإيمان الصلب، يُقال: إنّه لمّا «سار الحسين عليه السلام وهوّمت عيناه بالنوم ساعة انتبه وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فأقبل عليه ولده علي الأكبر عليه السلام وقال له: يا أبتِ، لِمَ استرجعت، لا أراك الله سوءاً؟ فقال عليه السلام: يا ولدي، خفقت خفقةً فرأيت فارساً وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فقال له: يا أبتِ، ألسنا على الحق؟ قال: بلى، نحن والله على الحق. فقال علي الأكبر عليه السلام: إذاً والله، لا نبالي أوقعنا على الموت أو وقع الموت علينا»[٥٥].

فإنّه عليه السلام لم يُقدم على أيّة صغيرة ولا كبيرة إلّا وسأل إمامه الحسين عليه السلام عنها؛ حرصاً منه على تطبيق الحكم الشرعي، وهو ما يجب أخذه بنظر الاعتبار من جميع الشباب.

كان أوّل مَن قُتل بالطف من بني هاشم بعد أنصار الحسين عليه السلام، فإنّه وبعد أن شاهد أصحاب الحسين عليه السلام يُستشهدون واحداً تِلو الآخر استأذن الإمام الحسين عليه السلام للخروج، فأذن له، وقال عليه السلام: «اللّهمّ اشهد فقد برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك صلى الله عليه وآله، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إليه». ثمّ صاح بابن سعد: «قطع الله رحمك كما قطعت رحمي»[٥٦].

فشدّ على القوم مرتجزاً:[٥٧]

أنا علي بن الحسين بن علي
نحن وبيت الله أولى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي
أضرب بالسيف أحامي عن أبي

فقاتل قتالاً شديداً، ثمّ عاد إلى أبيه وهو يقول: «يا أبتِ العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني...»، حتى استُشهد على يد مرّة بن منقذ[٥٨].

وبهذا تكون كربلاء قد قدّمت أبهى الصور، وأقدس الأنفس، وأحب الناس إلى الله تعالى من الشباب الذين باعوا أنفسهم لله، وأرخصوها في سبيله، وإذا كان الإنسان بحاجة إلى نبراس وقدوة فلا أفضل من علي الأكبر عليه السلام، فهو خير قدوةٍ وأُسوة لشبابنا، وهو العالم العابد وصاحب العقيدة الثابتة.

٢ـ القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: أُمّه أُمّ عبد الله بن الحسن الذي سمّاه البعض تصحيفاً أبا بكر، كان يوم الطف غلاماً لم يبلغ الحلم، وقِيل: إنّه بلغ الحلم.

قال الراوي: «وخرج غلام كأنّ وجهه شقّة قمر، فجعل يقاتل، فضربه ابن فضيل الأزدي على رأسه، ففلقه، فوقع الغلام لوجهه وصاح: يا عمّاه، فجلى الحسين عليه السلام كما يجلي الصقر، ثمّ شدّ شدة ليثٍ أغضب، فضرب ابن فضيل بالسيف، فاتقاها بالساعد، فأطنّه من لدن المرفق، فصاح صيحة سمعه أهل العسكر، وحمل أهل الكوفة ليستنقذوه فوطأته الخيل حتى هلك. قال: وانجلت الغبرة، فرأيت الحسين عليه السلام قائماً على رأس الغلام وهو يفحص برجليه، والحسين عليه السلام يقول له: بُعداً لقومٍ قتلوك، ومَن خصمهم يوم القيامة فيك جدّك وأبوك...»[٥٩].

ولقد قال له الإمام الحسين عليه السلام أنت العلامة من أخي، أنت الوديعة من أخي، وجمعاً بين الكلمتين الشريفتين ننتهي إلى «أنّ القاسم كان يحمل صفات أبيه الحسن المجتبى عليه السلام،

وقد أجمع المؤرِّخون على أنّه كان أشبه ولد الحسن بالحسن»[٦٠].

وكان شباب أهل البيت آنذاك هم «عشرون شاباً من نسل أبي طالب وأحفاد رسول الله محمد ﷺ، رفضوا الذل والهوان، ومشوا إلى الموت بأُنوف شامخة ورؤوس مرفوعة عالية؛ لحماية الإسلام من الوثنية والجاهلية الرعناء»[٦١].

وإذا اقتصرنا على هذين الشابين فإنّه لا يعني أنّه لا يوجد غيرهم، فقد كان قمر بني هاشم العباس وإخوانه في ريعان الشباب، وكذلك بنو عقيل، بل بنو طالب أجمعون الذين قالوا له وبصوتٍ واحد ـ عندما خيّرهم الإمام بين البقاء الذي يعني الموت وبين الرحيل ـ: «يا بن رسول الله، فما يقول الناس لنا وما نقول لهم، إنّا تركنا شيخنا وكبيرنا وابن بنت نبيّنا، لم نرمِ معه بسهم، ولم نطعن معه برمح، ولم نضرب بسيف؟! لا والله، يا بن رسول الله، لا نفارقك أبداً، ولكننا نقيك بأنفسنا حتى نُقتل بين يديك...»[٦٢].

وهكذا أدّى الشباب العلويون مهمّتهم على خير وجه، وقد ضربوا لشبابنا اليوم دروساً في التّضحيات، ولا يقتصر الكلام على الشباب العلوي، بل كان لشباب الأنصار دورٌ آخر في المعركة نأخذ منه نماذج قليلة:

١ـ **وهب الكلبي**: وهو وهب بن عبد الله، كان نصرانياً فأسلم هو وأُمّه وزوجته على يد الإمام الحسين عليه السلام[٦٣]، وأحسن في الجلاد وبالغ في الجهاد، بعد أن قتل في المبارزة أربعةً وعشرين راجلاً واثني عشر فارساً، ورجع إلى أُمّه وقال: يا أُمّاه أرضيت أم لا؟ فقالت: لا، ما رضيت حتى تُقتل بين يدي الحسين عليه السلام. وقالت امرأته: بالله عليك لا تفجعني في نفسك. فقالت له أُمّه: يا بني أعزِب عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك؛ تنال شفاعة جدّه يوم القيامة.

فرجع ولم يزل يقاتل حتى قُطعت

يداه، فأخذت أمرأته عموداً فأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأُمّي، قاتِل دون الطيبين حرم رسول الله ﷺ، فأقبل ليردّها إلى النساء، فأخذت بثوبه وقالت: لن أعود دون أن أموت معك. فقال الحسين: جزيتم من أهل بيتٍ خيراً، ارجعي إلى النساء يرحمك الله. فانصرفت إليهنّ، ولم يزل يقاتل حتى قُتل (رضوان الله عليه)[٦٤]. فذهبت امرأته تمسح الدم عن وجهه فبصر بها شمر، فأمر غلاماً له فضربها بعمودٍ كان معه فشجّها وقتلها، وهي أوّل امرأة قُتلت في عسكر الحسين عليه السلام[٦٥].

٢ـ عمر بن جنادة الأنصاري: هو شابٌّ جاء مع أُمّه وأبيه، وبعد أن استُشهد أبوه جاء يستأذن الحسين للمبارزة فأبى الحسين عليه السلام وأرجعه، وقال: هذا غلامٌ قُتل أبوه في الحملة الأُولى ولعلّ أُمّه تكره ذلك. فقال الغلام: إنّ أُمّي هي التي أمرتني يا بن رسول الله. فخرج وهو يقول:

أميري حسينٌ ونعم الأمير
سرور فؤادي البشير النذير
عليٌّ وفاطمة والداه
فهل تعلمون له من نظير

ثمّ قاتل فقُتل وحُزّ رأسه ورُمي به إلى معسكر الحسين عليه السلام، فأخذت أُمّه رأسه وقالت له: أحسنت يا بني، يا قرّة عيني وسرور قلبي. وأخذت عمود خيمة وحملت على القوم وهي تقول:[٦٦]

أنا عجوزٌ في النساء ضعيفة
باليةٌ خاويةٌ نحيفة
أضربكم بضربةٍ عنيفة
دون بني فاطمة الشريفة.

والحقيقة لا يدري الإنسان بمَن يُعجب بالأُمّ أم بولدها أم بزوجها، هذا غيضٌ من فيض، هؤلاء الأصحاب الذين لم يعهد التاريخ لنبي ولا وصي من الأوصياء، ولا ملك من الملوك، ولا زعيم من الزعماء كأصحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام،

فإنّهم (رضي الله عنهم) كانوا ينظرون إلى حركات إمامهم وسكناته، ويعملون ما كان يعمله عليه السلام، ويتركون ما كان يتركه، وكانوا لا يحيدون عن ذلك قيد شعرة[٦٧]، لذلك نراه عليه السلام يخاطب أصحابه وأهل بيته: «أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أصلح منكم، ولا أهل بيت أبر ولا أفضل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عنّي خيراً»[٦٨]. وهذا يعني أنّهم أفضل من شهداء بدر وأُحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فضلاً عن أصحاب الأنبياء السابقين، وقد قِيل: «إنّ الذين ذهبوا مع الحسين عليه السلام إلى كربلاء هم خمسمائة وما فوق، إلّا أنّهم تفرّقوا عنه حين أخبرهم بنهايته المؤلمة»[٦٩].

وكان من حقّ الإمام الحسين عليه السلام أن يفتخر بهم جميعاً؛ وذلك لأنّ التاريخ لم يسجّل من عهد آدم إلى اليوم أنّ سبعين رجلاً وقفوا في مقابلة سبعين ألف من الرجال، وبهذا تكون واقعة الطف قد ضمّت جميع الشرائح الاجتماعية، رجالاً ونساءً، عبيداً وأحراراً، شيباً وشباباً... كما شملت جميع الأبعاد الرسالية، وتجسّدت فيها أروع صور التضحية والفداء، والشجاعة والإباء[٧٠]، وما أحرانا اليوم أن نتّعظ ونأخذ العبرة من هؤلاء جميعاً، لا سيما شبابنا الذين يشكّلون اليوم الغالبية العظمى ممَّن ينبغي أن يتوجّه إليهم المنبر الحسيني بالتبليغ، فهم في أمسّ الحاجة للتوعية والإرشاد الديني؛ لأنّه يمكن لنا أن نصلح كلّ ما دمّرته قوى الاستكبار العالمي ـ التي من جملتها إفساد هؤلاء الشباب ـ وفق مخطّطات مدروسة دراسة دقيقة، ومبنية على أُسس علمية ونفسية؛ وعلينا أن نقوم بهذا الواجب لأسباب عدّة:

١ــ لأنّ الشباب اليوم يشكّلون الأغلبية من مجموع نفوس أبناء الشعب.

٢ـ إنّ أعداء الإسلام يتربّصون بنا الدوائر منذ فترات طويلة، وإذا كنّا قد

غفلنا نحن عن شبابنا، فإنّ العدو غير غافل، بل هو يحاول جذب شبابنا والسيطرة على عقولهم وأفكارهم، عبر الإذاعات والفضائيات والكتب والأساليب المتناسبة مع طبائع الشباب وشهواتهم.

٣ـ إنّ شريحة الشباب أكثر قبولاً وأسرع تقبّلاً من غيرهم؛ لأنّهم يحملون قلوباً نيّرة، كما وصفهم رسول الله ﷺ، لم تتلوّث بعدُ بقدَر تلوّث قلوب مَن تصرّمت من أعمارهم سنوات طويلة، ويمكنهم بكلّ سهولة أن يُدركوا الحقيقة والاستجابة لها[٧١].

والحقيقة أنّ شبابنا اليوم يؤمن ويعتقد بالدين الإسلامي، وهذا شيء مهم، لكنّهم يحتاجون إلى بذل جهد جهيد في هذا المجال، وهذا الجهد يجب أن يكون أكبر من الجهد الذي بذله أعداؤنا لأجل إضلال الشباب؛ لأنّنا اليوم في معركة، لكنّها ليست كالمعارك التي خاضها المسلمون في جبهات القتال؛ لأنّ عدوّنا قد تعب من الحروب، فقرّر أن تكون حروبه عبارة عن إعلام مضلّل ضدّ الشباب، فإذا قضى على هؤلاء فلا يحتاج إلى الحروب الواقعية، ولا إلى خسائر الحرب المادية والروحية، لنأخذ مثلاً ما قاله الإسرائيلي الدكتور مالحوم أخنوف، صاحب فكرة برنامج (ستار أكاديمي): كنّا متأكّدين من نجاح فكرة البرنامج؛ لأنّنا نعلم أنّ المسلمين اليوم ابتعدوا عن دينهم، وفي نفس الوقت العديد من الشباب المسلم بدأوا يميلون إلى الالتزام الديني، الذي لو كبر وتزايد سيقضي على دولتنا.

وعندما سُئل عن أسباب حرصهم على أن يكون (ستار أكاديمي) وسيلة لتدمير المسلمين قال أخنوف: إنّنا نريدهم أن يبتعدوا عن دينهم. وأضاف: كنّا نخطّط لغزو البنات المسلمات، فإذا انحرفت الفتاة المسلمة سينحرف جيل من المسلمين وراءها؛ ولذا نحن اليوم نحرص على غزو

المسلمة وإفسادها عقلياً وفكرياً وجسدياً أكثر من صنع الدبابات والطائرات الحربية. وسُئل عن هذا البرنامج الذي تقدّمه الفضائية اللبنانية (LBC) فأجاب: نحن نتبرّع لهم كلّ يوم بمبلغ كبير من المال، والبرنامج تحت إشرافنا باستمرار. وأخيراً وُجّه له سؤال: ماذا تقول للأُمّة الإسرائيلية؟ فقال: أُوصيهم أن يستغلّوا نوم المسلمين، فإنّهم أُمّة لو صحت تسترجع في سنين قليلة ما سُلب منها في قرون[٧٢].

وبين مطرقة هذه الحرب الجديدة التي شنّها الغرب الكافر علينا وبين إهمال حكوماتنا الوطنية واجبها تجاه شبابنا المسلم، ضاع الشباب وعاشوا أزمة هوية، أو لنَقُل: (تشوّش الهوية) الذي يعني: عجز الناشئة عن تقبّل الدور الذي يطالبهم المجتمع بإيفائه[٧٣]، فعلماء النفس «يرون في مرحلة الشباب أزمة نفسية طويلة، وصراعاً نفسياً محتدماً بين (المؤثرات) و(الاستجابات)، ويتعاملون مع الشباب من منطلق المراهقة التي توصم بالقلق والحيرة والاكتئاب والانفعالات»[٧٤]؛ لذا صار من الواجب علينا جميعاً كمربّين أن نضاعف الجهود لأجل هذه الثروة العظيمة، التي هي المحرّك الرئيس لحياة الأُمّة، والدم الذي يجري في عروقها، علينا جميعاً السعي للحيلولة دون وقوع شبابنا فريسة الانحراف والانحلال والتبعية للغرب، أو أن يضيّعوا أعمارهم في اللهو والعبث والهوايات الفارغة.

هذا العمر الثمين الذي نستطيع أن نكتسب في كلّ ساعة، بل في كلّ دقيقة منه كمالاً بالعودة إلى الله تعالى، ولرُبّ سائلٍ يسأل: ما هي العوامل التي حفّزت الشاب على الانحراف؟

الجواب:

١ـ جهل المربّين وأولياء الأُمور بالأساليب الصحيحة للتربية، وضغطهم على الأبناء ليعيشوا الحياة

التي يعيشونها هم، وهذا التصرّف غير لائق، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[٧٥].

٢ــ أن يكون المربّي بمثابة قدوة للشباب، في الجانب الأخلاقي والسلوكي والإيماني، فإذا كانت القدوة سيئة فماذا تتوقّع من المقتدي، فهم ينهونه عن تصرف ويفعلونه؛ لذا نصحت الأحاديث كلّ مَن يؤدّب غيره ويعظه أن يؤدّب نفسه ويعِظها أوّلاً؛ لذا صار واجب أصحاب المنابر أن يكونوا بالمستوى الذي يكونون فيه قدوةً للناس في كلّ شيء.

٣ـ أن يتحلّى المربي بقدرة الصبر؛ ليكون قادراً على حلّ مشاكلهم، فسعة الصدر كفيلة بتذليل كلّ المعوقات.

٤ـ أن يُؤمن المربي بأهمّية العمل الموكول إليه، وأن يُؤمن بالثواب الأُخروي جزاءً لعمله هذا.

٥ـ الصدق والإخلاص في العمل، والحذر من كلّ تصرّف يسبّب إيجاد هفوات في شخصية الشاب.

٦ــ انتشار وسائل الإفساد وإحاطتها به في مقابل غياب صوت الحقّ أو ضعفه، فأغلب المساجد خالية من أئمّة الجماعات وليس فيها خطب أو محاضرات أو حوارات.

٧ــ البيئة الفاسدة التي تحيط بالناشئ، فلخلوّه من التجربة وعدم نضجه يحاول أن ينفتح على أصدقائه؛ ليأخذ منهم الحلول لمشاكله وهمومه في غياب العلاقة الودية المبنية على الصراحة والثقة بين الولد وأبيه[٧٦].

٨ـ مراقبة الآباء أبناءهم، دون أن يُشعروهم بالمراقبة، مَن من البشر يصاحبون؟ فرفقة السوء لها تأثير على الشباب، وصَدَقَ الشاعر حينما قال:[٧٧]

لا تَربِط الجرباء حول صحيحةٍ
خوفي على تلك الصحيحة تجرَبُ.

وفي الحِكَم المأثورة: مَثل قرين

السوء مَثل الحية، لينٌ لمسها قاتلٌ سمّها.

وكذلك فإنّ الطيور على أشكالها تقع، حتى لا يندم الشاب يوم القيامة فيقول: ﴿**يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا**﴾[78]، فالأخلاق السيئة مرضٌ معدٍ يتسلّل من صاحبه إلى أصحابه وأصدقائه.

نقل الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام أنّه قال: «يا بني، مَن يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومَن يدخل مداخل السوء يُتّهم...»[79]، وقد حذر عليه السلام من صحبة الفاجر بقوله: «لا تصحب الفاجر فيعلّمك من فجوره»[80].

إذن؛ ما الشاب الذي يريد الإسلام بناءه؟ هذا النوع من الشباب يجب أن يتّصف بما يلي:

١ـ أن يكون متّزناً منضبطاً، جاداً هادئاً، حكيماً، لا ينصرف إلى شكله ومظهره وشعره، والحركات المشبوهة والتصرّفات المستنكرة كما هو شائع ومطلوب في عالم اليوم المتخم بوهم التحرّر إلى حدّ الانتحار، حتى غدا التحرّر عبثاً ولهواً ومجوناً وعبودية لكلّ شيء إلّا الله.

٢ـ أن يكون ملتزماً متعبّداً ساعياً إلى مرضاة الله، وأن يقضي وقته فيما يفخر به في الآخرة ولا يخجل منه في الدنيا، ففي الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من شابٍ يدَع لله الدنيا ولهوها، وأهرم شبابه في طاعة الله إلّا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صِدّيقاً»[81].

٣ـ أن يكون مُقبلاً على التفقّه المحل للعلم النافع، الذي يحتاجه في سائر مواقع حياته، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «فالعلم في الصغر كالنقش في الحجر»[82].

٤ـ أن يكون مسخّراً لطاقاته وحيويته ونشاطه وقوّته في سبيل الله تعالى، فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في

قوله: «إنّ الله يُحبّ الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله»[٨٣].

٥ــ أن يكون غيوراً لا يرضى الاعتداء على مقدّسات وحرمات بلده، ثمّ يجلس لا يحرّك ساكناً، فضلاً عن أن يكون راضياً أو مبتسماً، كما يحدث في المجتمع في هذا الزمان، فما تعرّض له العراق في هذا اليوم من هجمة شرسة من قبل ما يُسمى بعصابات (داعش) الإجرامية يجب أن يكون حضور الشباب وغيرتهم فيه كغيرة أصحاب الحسين عليه السلام على دينهم، وكغيرة العباس عليه السلام على أخيه الحسين عليه السلام، وربّما يجهل الكثيرون خاصّةً في هذه الأيّام أنّ الغيرة واجبة على الرجال، وهذا للأسف ناتجٌ عن حالة التفلّت التي نراها عبر وسائل الإعلام، واعتياد المفاسد، وشياع الاختلاط والمفاكهة بين الرجال والنساء.

٦ـ أن يتمتّع شبابنا بالحياء الذي هو خير صفات الشاب المسلم، وقد كانت هذه الصفة من أبرز صفات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله، لا سيما في كلامه وملبسه، وهما أمران يُستحبّان اليوم بشكلٍ أكيد، فمخالفة الحياء ظاهرة شائعة من خلال السباب والشتائم، والكلمات المحرّمة التي تُطلق علناً في الشوارع والأماكن العامّة وبصوت عالٍ دون خجل، مع أنّ الرواية تصرّح: «لا إيمان لمَن لا حياء له»[٨٤].

٧ـ أن يكون الشاب مستعدّاً دوماً للتضحية والجهاد في سبيل الله ونصرة الدين، فبقدر ما نكون أقوياء بقدر ما نحافظ على وجودنا وكياننا وحقوقنا واستقلالنا. ومرحلة الشباب هي الفرصة الأنسب لإعداد أنفسنا للجهاد والدفاع عن مقدّساتنا، لا سيما بعدما صرّح رؤوس الكفر في دولة داعش أنّ معركتهم لن تكون على أرض الموصل فقط، بل إنّ معركتهم الحقيقية في بغداد والنجف وكربلاء والجنوب أجمع، وما حملة التطوّع التي سارع إليها الشباب بعد

فتوى المرجعية بضرورة الجهاد الكفائي إلّا دليل على تفاني هؤلاء الشباب في سبيل الدين والوطن، مستمدّين مبادئهم من إمامهم، الإمام الحسين عليه السلام.

٨ـ أن يحبّ الشباب المستحبّات والسنن، ويتقيّدوا بها ويحرصوا عليها، وبهذا يبرهن الشباب مدى حبّهم لرسولهم صلى الله عليه وآله الذي قال: «مَن أحيى سنّتي فقد أحبّني، ومَن أحبّني كان معي في الجنة»[٨٥]. والسنة والآداب تكون في قيامه وقعوده، وعند نومه، وفور استيقاظه، وعند طعامه، وجلساته ومشيته، وعباداته، وأن يبقى دوماً على وضوء، ويصلّي الصلاة في أوّل وقتها[٨٦].

والخلاصة التي يجب الانتهاء إليها هي: أنّ مرحلة الشباب في حياة الفرد هي مرحلة بناء، وفي حياة الأُمّة والمجتمع هي مرحلة تحوّل، فإن كان الشباب رشيداً ناضجاً واعياً عاقلاً، فإنّه يبني لنفسه مستقبلاً سعيداً ويحوّل أُمّته إلى العزة والقوّة والكرامة وحياة أفضل، وإن كان الشباب لاهياً مائعاً، سادراً في غيّه، وغارقاً في شهواته، فإنّه يبني لنفسه بيتاً ينهار على رأسه، ومستقبلاً يُرثى له ولا يُغبط عليه، وفي نفس الوقت يدفع بأُمّته إلى الانهيار المادي والمعنوي، وإلى هذا المعنى أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «أصناف السكر أربعة: سكر الشباب، وسكر المال، وسكر النوم، وسكر المُلك»[٨٧].

وقد سُئل حكيمٌ: متى يبلغ الإنسان سنّ الرشد؟ فقال: متى صار يعرف مصلحته ويُؤثرها على شهواته.

النتائج

بعد أن أبحرت سفينتنا في بحر الحسين عليه السلام، وفتّشت في داخله عن ألماسه وجواهره وصدفه ولآلئه، استطعنا أن نستخرج منه ما للخطاب العاشورائي من أثر في إصلاح الأُمّة وتوحيدها، فكان الشباب أُنموذجاً

لذلك الجوهر الغائص في أعماق ذلك البحر الحسيني، الذي منه نهلنا جميعاً وشربنا من مائه العذب الرقراق، فكانت من تلك النتائج:

١ــ إنّ الحسين ومبادءه يجب أن تعيش في وجدان كلّ مسلم عرف الحسين عليه السلام وثورته المباركة، فالحسين عليه السلام ليس وقفاً على الشيعة وحدهم، بل هو جاء للبشرية جمعاء، لكلّ زمانٍ ومكان.

٢ـ إنّ للخطاب الحسيني الهادف أثراً في إصلاح الأُمّة وتوحيد كلمتها، ونحن اليوم أحوج إليه من الأمس؛ بسبب تصدّع الصف الإسلامي الواحد.

٣ــ يجب أن يكون لتضحيات الشباب الحسيني ومواقفهم لحظة تأمّل وتفكّر من قبل شبابنا اليوم، بعد الانحرافات الكثيرة والخطيرة التي شهدها المجتمع المسلم، لا سيّما مجتمع الشباب، وهذا ما يقع دوره على خطباء المنابر الحسينية اليوم، فهم المخاطبون بإيصال الكلمة إلى مَن يحتاجها؛ لكيلا يقول قائل: لا أعلم.

٤ـ إنّ شبابنا اليوم أمام مسؤولية شرعية كبرى، بعدما تعرّض ديننا لهجمة شرسة من قبل أعداء الإسلام، فيجب أن يهبّوا لنصرة الدين، وإلّا أصبحنا بخبر كان.

٥ــ إنّ مرحلة الشباب في حياة الفرد إنّما هي مرحلة بناء، وفي حياة الأُمّة والمجتمع هي مرحلة تحوّل، ففي الحالتين الشاب مسؤول أمام الله والتاريخ عن عزة ورفعة أُمّته، وهو أيضاً مسؤول عن ضياع الأُمّة ورقها وعبوديتها.

فهرست المصادر

* القرآن الكريم.

١. الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري (ت٢٨٢هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتاب العربي، ط١، ١٩٦٠م، القاهرة.

٢. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت٤١٣هـ)، دار المفيد، ط٢، ١٤١٤هـ، بيروت.

٣. الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٣، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، بيروت.

٤. الإمام الحسين عليه السلام (سماته وسيرته)، محمد رضا الحسيني الجلالي، دار المعروف، قم.

٥. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت١٧٩هـ)، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٩م، مصر.

٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار عليهم السلام، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت١١١١هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت. لبنان.

٧. تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (ت ق٤هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط١، ١٤٠٤هـ، قم.

٨. تربية الشباب بين المعرفة والتوجيه، علي القائمي، مكتبة دار النبلاء فخراوي، ط١، ١٩٩٦م/١٤١٦هـ، المنامة. البحرين.

٩. تفصيل وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت١١٠٤هـ)، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤١١هـ، قم المقدّسة.

١٠. ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، محمد مهدي شمس الدين، الدار الإسلامية، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، بيروت.

١١. الحركة الإصلاحية بين أصحاب الكساء والحسين سيد الشهداء، محمد القبانجي، مؤسّسة إحياء التراث الشيعي، ط١، ١٤٢٩هـ، النجف الأشرف.

١٢. خلفيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام، محمد مهدي الآصفي، مركز دراسات نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ط١، قم المقدّسة. إيران.

١٣. دور المنبر في التوعية الإسلامية، محمد باقر المقدسي، مطبعة سليمان زاده، ط١، ١٤٢٤هـ، طهران.

١٤. دنيا الشباب، محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، بيروت. لبنان

١٥. الرسالية في الثورة الحسينية، حسين الحاج حسن، دار الكرام، ط١، ١٩٩٣م/١٤١٣هـ، بيروت. لبنان.

١٦. الشباب وأزمة الهوية، الدكتور محمد رضا شرفي، ترجمة: زهراء بكانة، دار الهادي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، بيروت. لبنان.

١٧. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبي الفضل أبراهيم، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، بيروت. لبنان.

١٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٩. عاشوراء في فكر الإمام الخميني، مركز الإمام الخميني الثقافي، جمعية المعارف

الإسلامية الثقافية، ط٣، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م، بيروت- لبنان.
٢٠. عوامل خلود الثورة الحسينية، محمد الهنداوي، دار المحجّة البيضاء، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، بيروت- لبنان.
٢١. فن الخطابة الحسينية، إعداد: سيد مرتضى الحسيني، مؤسّسة الإرشاد والتوجيه الديني في النجف الأشرف، برعاية مكتب السيد السيستاني، دار الاعتصام، ط١، ١٤٢٧هـ.
٢٢. في ظلال الطف (بحوث تحليلية ليوم عاشوراء)، محمد مهدي الآصفي، دار الكرام، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، بيروت - لبنان.
٢٣. قواعد بناء الشباب، محمد اليعقوبي، دار الصادقين للطباعة والنشر، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١٣م، النجف الأشرف.
٢٤. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين بن حسام الدين (المتقي الهندي) (ت٩٧٥هـ)، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٩هـ، بيروت.
٢٥. اللهوف على قتلى الطفوف، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت٦٦٤هـ)، تحقيق: فارس الحسون، دار الأسوة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٣هـ، مؤسّسة الميلاد، إيران.
٢٦. مجالس عاشوراء، محمد الهنداوي، دار المحجّة البيضاء، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، بيروت- لبنان.
٢٧. مدينة معاجز الأئمّة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر، هاشم بن سليمان البحراني (ت١١٠٧هـ)، تحقيق: عزة الله المولائي، مؤسّسة المعارف الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ، قم.
٢٨. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤٠٨هـ، بيروت.
٢٩. مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت.
٣٠. مصعب بن عمير، محمد دشبيلي، دار الجيل، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، بيروت- لبنان.
٣١. مقالات الشباب، الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة، ط٢، ١٤٣٥هـ.
٣٢. مقتل الإمام الحسين عليه السلام، أبو المؤيد الموفق بن أحمد مكي المعروف بـ (الخوارزمي) (ت٥٦٨هـ)، مطبعة الزهراء، النجف الأشرف، بدون تاريخ.
٣٣. مقتل الحسين عليه السلام أو حديث كربلاء، عبد الرزاق المقرم الموسوي، مطبعة النجف الأشرف، ط٢، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.
٣٤. مقتل الحسين ومصرع أهل بيته عليهم السلام وأصحابه في كربلاء، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي، منشورات الرضي، ط٢، ١٤١١هـ، قم.
٣٥. من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام، عبد العظيم المهتدي البحراني، مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام، ط١، ١٤٢١هـ، قم.
٣٦. من وحي الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسيني، دار التعارف للمطبوعات، ط١، ١٩٩٤م/١٤١٤هـ، بيروت- لبنان.
٣٧. منية الخطيب، أحمد شعاع فاخر، منشورات الشريف الرضي، ط١، ١٤٢١هـ، قم المقدّسة.
٣٨. ميزان الحكمة، محمد الريشهري، دار الحديث، ط١، ١٤١٦هـ، قم.

الهوامش:

[١] البقرة: آية ١٣٤

[٢] محمد: آية١٠.

[٣][٣] العنكبوت: آية٢٠.

[٤] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٣، ص٢٦١.

[٥] معهد سيّد الشهداء عليه السلام للمنبر الحسيني، تاريخ النهضة الحسينية: ص٦٥.

[٦] شمس الدين، محمد مهدي، ثورة الحسين عليه السلام (ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية): ج١، ص٢٢١٢٢٠.

[٧] الدينوري، أحمد بن داوود، الأخبار الطوال: ص٣٤٨.

[٨] الآصفي، محمد مهدي، خلفيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام: ص٢١٠.

[٩] الزخرف: آية٥٤.

[١٠] النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٦، ص٢٠.

[١١] أُنظر:. http: //sarallah. valiasr

[١٢] ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص٩٨.

[١٣] البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج١١، ص٣٨٦.

[١٤] البقرة: آية١٦٥.

[١٥] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٩٠٣٣٠

[١٦] المصدر السابق: ص٣٤٠.

[١٧] المصدر السابق: ص٣٣٥.

[١٨] البحراني، عبد العظيم المهتدي، من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: ص٢٤٨.

[١٩] منتدى درر العراق:. www. dorar-aliraq. net

[٢٠] القبانجي، صدر الدين، الحركة الإصلاحية بين أصحاب الكساء والحسين سيّد الشهداء: ص١٢٨.

[٢١] مركز الإمام الخميني الثقافي، عاشوراء في فكر الإمام الخميني: ص٥.

[٢٢] الجلالي، محمد رضا، الإمام الحسين عليه السلام (سماته وسيرته): ص١٩٩.

[٢٣] مقتطفات من خطب الإمام الخميني وآية الله الخامنئي (عِبَر من عاشوراء): ص١.

[٢٤] أُنظر: المصدر السابق.

[٢٥] أُنظر: الآصفي، محمد مهدي، في ظلال الطف: ص١٩:
.http: //alsarh. info/showthread. php

[٢٦] أُنظر: الهنداوي، محمد، عوامل خلود الثورة الحسينية: ص٢٧٥.

[٢٧] مؤسّسة الإرشاد والتوجيه الديني، فن الخطابة الحسينية: ص١١٩٠١٢٠.

[٢٨] أُنظر: الهنداوي، محمد، عوامل خلود الثورة الحسينية: ص٢٧٥.

[٢٩] الخوارزمي، الموفق، مقتل الحسين عليه السلام: ج٢، ص٧٧. وأُنظر: المقرم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام: ص٣٥٢٠٣٥٣.

[٣٠] أُنظر: الهنداوي، محمد، عوامل خلود الثور الحسينية: ص٢٨٩٢٩١.

[٣١] ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج٢، ص٢٣٥.

[٣٢] أُنظر: المقدسي، محمد باقر، دور المنبر الحسيني في التوعية الإسلامية: ص٢١٠٢٢.

[٣٣] الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل

الشيعة: ج١٢، ص٢٠.
[٣٤] فاخر، محمد شعاع، منية الخطيب: ص١٤.
[٣٥] شمس الدين، محمد مهدي، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي: ص٣٠٧.
[٣٦] البحراني، هاشم، مدينة المعاجز: ج٤، ص٥٢.
[٣٧] آل عمران: آية١١٠.
[٣٨] النوري، ميرزا حسين، مستدرك الوسائل: ج١٥، ص١٦٥.
[٣٩] الحج: آية٣٢.
[٤٠] أُنظر: الهنداوي، محمد، مجالس عاشوراء: ص٦٨٥-٦٩٢.
[٤١] الروم: آية٥٤.
[٤٢] أُنظر: القائمي، علي، تربية الشباب بين المعرفة والتوجيه: ص١٨-٢٢.
[٤٣] أُنظر: دشبيلي، محمد، مصعب بن عمير.
[٤٤] أُنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج٤، ص٣٥٨.
[٤٥] أُنظر: المصدر السابق: ج١، ص٢٨١-٢٨٢.
[٤٦] النجم: آية٣-٤.
[٤٧] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٢١، ص٤١٠.
[٤٨] أُنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج٣، ص١٢٧.
[٤٩] المصدر السابق: ج١٦، ص٦٦.
[٥٠] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١، ص٢١٤.
[٥١] أُنظر: http: //arabic. irib. ir/Monasebat/Moharam/Shabab. htm
[٥٢] أُنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١٥٩.
[٥٣] وأبوها هذا كان العرب يعتبرونه واحداً من شخصيتين عظيمتين، وهما: الوليد بن المغيرة الرجل الثري الذي كانت له زعامة مكّة، وآخر عروة بن مسعود الثقفي، وكان العرب في جاهليتهم يعتقدون بأنّ النبوة يجب أن لا تتعدّى واحداً من هذين.
[٥٤] أُنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج٥، ص٨٦.
[٥٥] أبو مخنف، لوط بن يحيى، مقتل الحسين عليه السلام: ص٧٤.
[٥٦] أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٦٦.
[٥٧] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١٠٦.
[٥٨] أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٦٦.
[٥٩] أُنظر: المصدر السابق: ص١٦٨.
[٦٠] الهنداوي، محمد، مجالس عاشوراء: ص٥١٩.
[٦١] الحسني، هاشم معروف، من وحي الثورة الحسينية: ص٥٩.
[٦٢] ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٥٢.
[٦٣] أُنظر: الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الإمام الحسين عليه السلام: ج٢، ص١٣.
[٦٤] أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص١٦١.
[٦٥] أُنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٦.
[٦٦] المصدر السابق: ص٢٨٢٧

[٦٧] اُنظر: النقدي، جعفر، أصحاب الحسين عليه السلام يستأنسون بالمنية دوني استيناس الطفل بلبن أُمه، موقع العتبة الحسينية المقدسة:
.http: //imamhussain-lib. blogspot. com/٠٨/٢٠١٤/blog-post_ ٢٦.html

[٦٨] ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص٥٥.

[٦٩] اُنظر: حسين الحاج حسن، الرسالية في الثورة الحسينية: ص٩٧.

[٧٠] اُنظر: الربيعي، جميل، الصراط المستقيم نهج السعادة والتقدم (موقع إلكتروني):
http: //al-serat. com/content. php?article= ٩٤٢part=maintable.

[٧١] اُنظر: المركز الإسلامي للتبليغ، إضاءات من فكر الإمام الخامنئي (الذين يبلّغون): ص١٠١-١٠٢.

[٧٢] اُنظر: مجلة (عفاف)، مجلةٌ شهريّةٌ ثقافيةٌ تصدر عن مؤسّسة المعصومين الأربعة عشر الإنسانية: ص١١.

[٧٣] اُنظر: شرفي، محمد رضا، الشباب وأزمة الهوية: ص٢٥.

[٧٤] فضل الله، محمد حسين، دنيا الشباب: ص٥.

[٧٥] ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص٢٦٧.

[٧٦] اُنظر: اليعقوبي، محمد، قواعد بناء الشباب: ص١٠-١١. وكذلك: القائمي، علي، تربية الشباب بين المعرفة والتوجيه: ص٣١-٣٠.

[٧٧] البغدادي، عبد اللطيف، الشفاء الروحي: ص٢٠٩.

[٧٨] الفرقان: آية ٢٨-٢٩.

[٧٩] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٧٨.

[٨٠] المصدر السابق: ج٧١، ص١٩١.

[٨١] المصدر السابق: ج٧٤، ص٨٤.

[٨٢] المصدر السابق: ج١، ص٢٢٤.

[٨٣] الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج٢، ص١٤٠٢.

[٨٤] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٠٦.

[٨٥] المتقي الهندي، علي، كنز العمال: ج١، ص١٨٤.

[٨٦] اُنظر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدّسة، مقالات للشباب: ص١٩-٢٢.

[٨٧] الحرّاني، ابن شعبة، تُحف العقول: ص١٢٤.

أ. حسن خاك رند
سياسي وباحث ومؤرخ ومترجم إيراني

الأطر السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في زيارة الأربعينية الحسينية

مقدمة: زيارة الأربعين ... نظرة تاريخية

كلمّا مضى عام وجاءت ذكرى كربلاء وأربعينية الإمام الحسين عليه السلام، نجد أنفسنا نتوقف كل عام، وكل يوم حول الجديد، وما يطرأ على العالم بأسره من قيم الدفاع عن المظلومين ومحاربة الاستكبار، ومع تطور الزمن، تظل قيم الحسين باقية ثابتة لأنها القيم التي تتعلق بالإنسان، وقيم النبل والكرامة، وفي أفق كربلاء ثم أربعينية سيد الشهداء، نرى كم هو عزاء نبيل صافي ثوري في أطره السياسية والثقافية والفكرية عمومًا، ونسعى لأن نكتب عن الأطر التي مثّلها سيد الشهداء، وأكّدتها أربعينيته المقدسة.

ونخص في هذا البحث للحديث عن الأطر السياسية والثقافية

والاجتماعية والاقتصادية في زيارة الأربعينية الحسينية، لا نضيف الجديد، بل نبحث عن رؤية كونية شاملة يقودها الإمام الحسين عليه السلام، بسيرته الطاهرة ودمه الزكي، ونسعى كي تتضح الأمور للمسلمين وغير المسلمين من الهدف الحقيقي للزيارة الأربعينية، فالحسين عليه السلام لا يمثل الإنسان المسلم فقط، بل يمثل الإنسانية بأسرها، ومن وحي الزيارة الأربعينية، نحاول استقصاء الأطر التي تحدّث عنها عنوان البحث.

خصوصية الشعائر في أربعين الحسين عليه السلام

تأتي خصوصية إقامة الشعائر الحسينية في يوم أربعين الإمام الحسين عليه السلام المصادف في العشرين من صفر، كونها تشكل إحياءً لنهضة الإمام الحسين عليه السلام الإصلاحية وتعاليمه الأخلاقية ومبادئه النبوية، فإن قضية سيد الشهداء هي التي ميزت بين دعوة الحق والباطل، ولولا نهضة الحسين عليه السلام ووقوفه بوجه الظلم والطغيان الأموي لكاد الإسلام أن يندثر حتى قيل: الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء، وما قام به الإمام الحسين عليه السلام في نهضته الإصلاحية كان امتدادًا لدعوة الرسول صلى الله عليه وآله لنشر الإسلام، وهو عليه السلام الامتداد الطبيعي للنبي صلى الله عليه وآله بنص حديث الرسول: «حسين مني وأنا من حسين»[1].

وتأتي خصوصيتها أيضًا في استذكار الفاجعة التي جرت على أهل البيت عليهم السلام في يوم عاشوراء، وما صاحبها من المآسي والآلام، وتعريف الناس بجور بني أمية وأذنابهم، كما تتزامن إقامة الشعائر الحسينية في يوم الأربعين مع ذكرى رجوع الرأس الشريف من الشام إلى العراق، ودفنه مع الجسد الطاهر في يوم العشرين من صفر كما جاء في الروايات، ويسمى هذا اليوم في العراق (مَرَدّ الرأس)،

فتقام الشعائر استذكارًا لهذه الحادثة الأليمة فتتجدد الأحزان[٢].

أولًا: فضل الزيارة الأربعينية

الكثير من العلماء الأعلام أكّدوا فضل زيارة الحسين عليه السلام في يوم الأربعين، وقد استدلوا في ذلك على روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام منهم على سبيل المثال لا الحصر[٣]:

١. قال أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في التهذيب، الجزء ٢، باب فضل زيارة الحسين عليه السلام، الصفحة ١٧، فإنه بعد أن روى الأحاديث في فضل زيارته عليه السلام ذكر المقيد منها بأوقات خاصة، وذكر شهر صفر وما فيه من الحوادث. نقل عن مصباح المتهجد، الصفحة ٥٥١ ثم قال: وفي يوم العشرين منه رجوع حرم أبي عبد الله الحسين من الشام إلى مدينة الرسول، وورود جابر بن عبد الله الأنصاري إلى كربلاء لزيارة أبي عبد الله الحسين فكان أول من زاره من الناس وهي زيارة الأربعين، ثم روى حديث الإمام الحسن العسكري[٤].

٢. وأبو الريحان البيروني في الآثار الباقية، الصفحة ٣٣١: في العشرين من صفر رد الرأس إلى جثته، فدفن معها، وفيه زيارة الأربعين ومجيء حرمه بعد انصرافهم من الشام[٥].

٣. والعلّامة الحلّي في المنتهى كتاب الزيارات بعد الحج: يستحب زيارة الحسين في العشرين من صفر، ثم روى حديث الإمام العسكري.

٤. والعلّامة المجلسي في البحار، باب فضل زيارة الحسين يوم الأربعين.

٥. والسيد ابن طاووس في الإقبال.

٦. والشيخ يوسف البحراني في الحدائق في الزيارات بعد الحج.

٧. الشيخ المفيد في مسار الشيعة.

٨. العلّامة الحلّي في التذكرة والتحرير.

٩. ملّا محسن الفيض في تقويم المحسنين.

١٠. الشيخ البهائي في توضيح المقاصد الأربعين.

١١. الشيخ عباس القمي في مفاتيح الجنان.

كل هؤلاء العلماء وغيرهم كثير ممن رووا ما يؤكد قداسة الزيارة الأربعينية، فضلًا عن يوم عاشوراء، وقد شاهد الملايين في أرجاء العالم الزيارات المليونية لسيد الشهداء، وعرفوا أن العزاء الحسيني، ليس مجرد عزاء، ولكنه تأكيد على تجديد العهد، وادخار قوى المقاومة معينًا لا ينضب من الروحانية والأريحية والنقاء الثوري. ولأئمة أهل البيت عليهم السلام أقوال كثيرة في فضائل الأربعينية الحسينية.

الأربعينية في أقوال الأئمة عليهم السلام

وردت روايات عن الأئمة المعصومين في خصوصية يوم الأربعين، وفضل زيارة الحسين عليه السلام في ذلك اليوم، ففي مستدرك الوسائل للنوري[٦]، عن زرارة بن أعين، عن أبي عبد الله الصادق أنه قال: إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحًا بالدم، والأرض بكت عليه أربعين صباحًا بالسواد، والشمس بكت عليه أربعين صباحًا بالكسوف والحمرة، والملائكة بكت عليه أربعين صباحًا، وما اختضبت امرأة منا ولا أدهنت ولا اكتحلت ولا رجلت حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد وما زلنا في عبرة من بعده[٧].

وروي في كامل الزيارات عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحًا، أما زيارة الإمام الحسين يوم الأربعين، فقد وردت في أحاديث عن الأئمة المعصومين في فضلها، منها ما روي عن الإمام الحسن العسكري أنه قال: علامات المؤمن خمس؛ صلاة إحدى وخمسين؛ وزيارة الأربعين؛ والتختم باليمين؛ وتعفير الجبين[٨].

أما الزيارة المشهورة في يوم الأربعين والمعروفة بالأربعينية فقد رويت على روايتين:

الرواية الأولى: رواها صفوان الجمال عن الإمام الصادق فقال: قال لي مولاي الصادق تزور الحسين عند ارتفاع النهار وتقول... ثم تلا الزيارة[٩].

أما **الرواية الثانية**: فقد رويت عن عطا عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنت مع جابر يوم العشرين من صفر فلما وصلنا الغاضرية اغتسل في شريعتها ولبس قميصًا كان معه طاهرًا ثم قال لي: أَمَعَكَ شيءٌ من الطيب يا عطاء؟ قلت: سعد، فجعل منه على رأسه وسائر جسده، ثم مشى حافيًا حتى وقف عند رأس الحسين وكبّر ثلاثًا، ثم خرّ مغشيًّا عليه، فلما أفاق سمعته يقول: ... ثم تلا الزيارة[١٠].

الزيارة، الشعائر والإحصائيات

منذ أن التقى الإمام زين العابدين في كربلاء بالصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري أصبحت كربلاء قبلة للزوار في يوم العشرين من صفر، أربعين الإمام الحسين عليه السلام، يؤمّها الملايين من المسلمين من الكثير من البلدان العربية والإسلامية ـ إضافة إلى العراق.... وأصبح الزوار يتزايدون سنة بعد أخرى.

وتشير الإحصائيات إلى أن عدد الزوار يوم الأربعين سنة ١٩٦٨ بلغ أكثر من نصف مليون زائر، وارتفع عددهم في بداية السبعينات إلى حوالي مليون زائر، حتى بدأت سلطات نظام البعث البائد بمحاولات عقيمة لمنع الزوار من أداء زيارة الأربعين، خوفًا من النقمة وتحسبًا من الثورة ضد الظلم والطغيان، وقد ذهب في سبيل ذلك آلاف المؤمنين بين شهيد ومسجون ومعذّب على أيدي أزلام نظام الدكتاتور صدام، ولكن بعد رياح التغيير التي هبت على العراق ونهاية الدكتاتورية الصدامية، أُفسح

المجال للمسلمين لزيارة الإمام الحسين عليه السلام حتى وصلت أعداد الزائرين (في زيارة الأربعين، خلال السنوات التي أعقبت ٢٠٠٣ لأكثر من خمسة ملايين زائر، بينما بعض وسائل الإعلام قدّرت أعداد الزائرين بـ ثمانية ملايين زائر، جاء أغلبهم من مدن العراق المختلفة، وكذلك من الدول العربية والإسلامية، وخاصة من إيران والهند وباكستان والبحرين والكويت والسعودية[١١].

وخلال إقامة الشعائر الحسينية في يوم الأربعين في كربلاء يصل عدد المواكب الحسينية إلى ألفي موكب أحيانًا، يتوزعون بين مقرّات المواكب والحسينيات والمساجد، وكذلك الفنادق والمقاهي والمطاعم بحيث تضطر الألوف من الزائرين إلى قضاء ليلة زيارة الأربعين في الصحنين الشريفين للحسين والعباس، إضافة إلى الشوارع والأزقّة.

كما تضطر بعض المواكب الوافدة إلى كربلاء إلى أن تنصب خيامًا خارج المدينة أو في أطرافها وتنظيم أمورها لتقديم المنام والمأكل والمشرب لأفرادها وضيوفها من الزائرين[١٢].

وخلال إقامة مواكب العزاء في كربلاء يتبادل أفراد المواكب الزيارات فيما بينهم للتعارف وتقديم الخدمات لبعضهم البعض، والاستماع للخطب والقصائد التي تقام بهذه المناسبة، والتي تعبر عن اعتزازهم بتضحيات الإمام الحسين وأخيه العباس من أجل الإسلام وحبهم وتفانيهم في خدمة الزائرين[١٣].

وحول أربعينية سيدنا الإمام الحسين عليه السلام، نكتب تلك المحاور حول الأطر المختلفة للأربعينية المقدسة.

المحور الأول: الإطار السياسي الثوري في الزيارة الأربعينية

إن الإطار السياسي في أربعينية سيد الشهداء واضحة، وهو إطار ثوري، ضد قوى الشر والفساد والاستبداد،

وقد حمل الإمام الحسين عليه السلام هذا العبء بكل طاقة الأبرار على مر العصور، ولم يكن غير الحسين عليه السلام يحمل هذا الأمر العظيم، وهو امتداد الدوحة النبوية المحمدية.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حسينٌ مني وأنا من حسين»[١٤]؛ هذا الحديث المبارك الشريف لا يعطي فقط دلالة أن الإمام الحسين عليه السلام من نسب رسول الله وسبطه وابن ابنته فاطمة عليها السلام[١٥]، وإنما يعطي دلالة كبيرة وجوهرية في مسألة المنهج، وقد كان هدف الرسول صلى الله عليه وآله هو تأكيد على خط الإمام الثوري المستمر، قال تعالى: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[١٦]، وفي هذه الآية القرآنية تعبير عن الفلسفة الجوهرية للبعثة النبوية، والآية كاملة تحدد المنهج الكامل والمتكامل للرسالة المحمدية: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١٧].

وهو ذات المنهج، الذي سار عليه الإمام الحسين عليه السلام، والمقصود هو تحرير الإنسان ببعده الحقيقي من هيمنة الطغيان ووصاية الاستبداد، مستلهمًا عبارة الإمام علي عليه السلام: «الحياة في موتكم قاهرين والموت في حياتكم مقهورين»[١٨]؛ أي الموت مع الفضيلة خير من الحياة مع الخسة والذل.

إن الإسلام يرفض بشكل مطلق كل أشكال الاستبداد؛ لأن الإسلام والحرية وجهان لعملة واحدة، والحرية جوهر الإسلام، فالإنسان جاء للحياة من أجل الامتحان، وهو مكلف ويتحمّل المسؤولية، والمسؤولية معناها حرية الإرادة، فلا يمكن للإنسان أن يعيش تحت حكم

ووصاية وولاية الاستبداد، وهو لا يستطيع أن يمارس حريته؛ لأن الوجود الحقيقي للإنسان هو الوجود الحر، والاستبداد هو سالب للحريات، وبالتالي سالب لفلسفة الوجود والتكليف والمسؤولية.

والأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام كانوا في مواجهة الطغاة، فإبراهيم واجه نمرود، وموسى واجه فرعون، وعلي عليه السلام واجه معاوية، والحسين عليه السلام كان هدفه مواجهة طغيان يزيد، الذي بدأ باستعباد الناس، والإمام علي الهادي عليه السلام واجه المتوكل، والإمام موسى الكاظم عليه السلام كان في مواجهةٍ مع هارون، وهي مواجهات حروب بين الخير والشر، وبين الحرية والاستعباد، بين الأريحية ضد الأنانية والنرجسية[19].

الحرية قضية إنسانية

لكن التغيير الحقيقي يبدأ من تحرير الإنسان من نفسه أولًا، فلا بدّ أن يتحرر الإنسان من الأنانية والشهوانية المنغرسة بداخله، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا تكن عبدًا لغيرك وقد خلقك الله حرًّا»[20]. فلا يكون عبدًا لشهوانيته وغرائزه، والإنسان الذي يكون عبدًا لغرائزه سيكون بسهولة عبدًا للظالم، فهو يركض وراء شهواته وجشعه وطمعه، ويكون مستبدًّا مع عائلته، وأهله، ومع تلاميذه، ومع عشيرته، ومجتمعه، ولهذا يخنع ويخضع بسهولة للظالم والحاكم المستبد، فالركون للاستبداد والدكتاتورية هو إذعان للعبودية لغير الله تعالى.

والحرية هي قضية الإنسان، وقصته منذ الأزل، حيث كان هناك صراعٌ مستمر بين الحرية واستبداد الطاغية على مر الدهور، فغاية المستبد دائمًا هو أن يضع نفسه حاكمًا سلطويًّا مطلقًا، في مقابل الله تعالى، ويصنع من نفسه ربًّا يستعبد البشر بالمال والطعام والخوف والنفاق والتضليل.

لذلك تنهار المجتمعات وتصبح مفككة هشة في ظل حكم الطغيان

والاستبداد، حيث تنهار أخلاقيات الخير وتسيطر سلوكيات الشياطين وشرورهم.

الإمام الحسين في مواجهة منظومة الفساد

إن الإمام الحسين عليه السلام أسّس للنهضة، وأراد أن يخلّص الأمة من أغلال الشهوة، ويحوّلهم من إطار الشر إلى إطار الرحمة والحرية، ولهذا كانت رسالته إلهية إنسانية، وكذلك أراد أن يحارب منظومة الفساد، الذي استشرى في المجتمع ويحرره من ذلك الانهيار الأخلاقي والسلوكي المريع، لهذا لا يمكن أن نقول نحن حسينيون ما دمنا نقبل بالظلم والفساد والاستبداد، فهذا الامتداد العاشورائي هو امتداد للحرية الحسينية، وقد رفع أهل بيت رسول الله راية الحسين عليه السلام كدليلٍ للكفاح من أجل الحرية الحسينية وطلب الإصلاح في أمة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومكافحة الفاسدين.

والطغاة على مر التاريخ كانوا يخافون من كل تجمع أو مظاهرة، وقد حاربوا هذا الامتداد العاشورائي؛ لأنه يمثل كفاح الحرية ضد المستبدين لكنهم لم ينجحوا، لأنه كلما كانت القضية كبيرة في معانيها كان المجتمع متمسكًا بها بقوة، ومنهم النظام البائد، الذي منعها أكثر من ثلاثين سنة، ولكن هل انتهت؟ لم تنتهِ، لأنها قضية قائمة على مبادئ إلهية عظيمة تعبر كل الحقب التاريخية والأجيال المتعاقبة، فالطغاة زالوا لكن الإمام الحسين عليه السلام بقي، وهذه أعظم عبرة لا بدّ أن يقف عندها الجميع ليتعلموا أن شرور الاستبداد وسلوكياته السيئة لا تستطيع أن تسلب معاني الحرية الحسينية.

الوفاء للإمام الحسين

إن أساس كل الصراعات هو الخلاف الناشئ بين مبدأ الشيطان ومبدأ الله، ومبدأ الله هو الرحمة، ومبدأ الشيطان هو السلطة والشهوة، والإمام

الحسين عليه السلام حمل مبدأ الرحمة، ولهذا نقول الحرية لأنها مرتبطة بالرحمة، وتفعيل الحرية من أجل بناء مجتمعٍ صالح تأتي من خلال قيام المجتمع بممارسة إرادته عن طريق سلوك القيم الفاضلة، فالإنسان الذي يمارس الأمانة ويصدق في فعله وقوله هو إنسان حر، كما أنه يكون معطاءً مسؤولًا متعايشًا ومتسامحًا مع جيرانه، متضامنًا مع إخوانه في المجتمع، كما أن الذي يسلك طريق العنف والقسوة والفساد والتسقيط والكذب والتهمة والغش وخيانة الأمانة ويسرق، هو عبد للسلطة والمال والظلم والطغيان[٢١].

لقد ضحى الإمام الحسين عليه السلام بنفسه وأصبحت عائلته سبايا من أجل حريتنا، وأن نعيش أحرارًا في حياتنا، وهذه التضحية تحفّزنا لنكون بمواجهة الطغاة، وأن نحمي حريتنا لكي نكون أوفياء للإمام الحسين عليه السلام، وأن نكون في معسكره، كما فعل (الحر بن زياد) حين شعر أن عليه أن يتخذ القرار بنفسه، إما أن يكون حرًّا مع الإمام الحسين عليه السلام، أو أن يكون عبدًا ليزيد، فوقف وقفة شجاعة ومارس حريته في الاختيار، واختار الحق فعاش بسيرته بين الأحرار.

مواصفات الإنسان الحر

إن العبودية تجعل الناس أمواتًا وهم أحياء، والحرية تجعل الناس أحياء وهم أموات ففي الآية القرآنية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢٢]، والآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[٢٣]، لأنهم أحرار، والزائر المبارك أمامه فرصة كبيرة عندما يأتي للزيارة وخصوصًا زيارة الأربعين، وعليه معرفة كيف يستطيع أن يتأثر بهذه الأجواء ويستلهم القيم والمبادئ، ويأخذ الأفكار العظيمة.

الإنسان الحر يبتعد عن الصراعات والأنانية ويكسر أصنام العبودية الذاتية والأصنام، مثل التكبر والغرور وشغف التسلط وشهوة السلطة، الأنانية والاستئثار والاحتكار وتهميش الآخر، الشهوات والغرق في مستنقع الغرائز، والطمع واللهاث وراء الماديات دون أي ورع أو تقوى.

أما الحر، فهو الذي يكون شغوفًا بحب العطاء وبذل المال، فهو يتنفس الصعداء ويشعر براحة كبيرة إذا تبرع للمدارس أو المستشفيات أو الأيتام، فيكسر الأغلال ويتخلق بالأخلاق الحسينية، ويكون في قمة العطاء الإنساني والمشاركة في بناء المجتمع الصالح، ولعل الأغنياء عليهم المسؤولية الأكبر في هذا الجانب مثل دعم الكتاب الحسيني، أو المؤسسات الحسينية الثقافية والتعليمية والخدمية أو الجامعات، والمساهمة في بناء المجتمعِ الحسيني الحر[٢٤].

المحور الثاني: الإطار الثقافي زيارة الأربعين وآفاق النهوض الثقافي

ثقافة الثورة الحسينية تتمثل في إطارها النهضوي الثقافي الإمامي الحر، وعندما يكون الإنسان بلا ثقافة أو عاطفة، فإنه لا يفهم معاني الكثير من المشاعر الإنسانية الثقافية، فهو مثلًا لا يفهم ما هو الخشوع، وربما يسمع بمفردة الرأفة، ولم يجربها في حياته، لذلك الإنسان عندما تجف عاطفته، قد يكون شبيهًا بالروبوت الآلي، الذي يتم تصنيعه في اليابان أو أمريكا أو غيرها، حيث يقول الخبراء المصنعون: إنهم يصنّعون كائنات ذكية، تشبه الإنسان، ولكنها بلا مشاعر، لذا يمكن أن نشبّه الإنسان الفعلي الخالي من العاطفة بالروبوت[٢٥].

وهذا يعني أن الإنسان ينبغي أن يوازن بين المادي والعاطفي، ويحتفظ بالثنائية وقانون التضاد بين الأشياء،

حتى تكون حياته كلها متوازنة، فمثلًا عندما يكون الإنسان ماديًّا، قد يحقق نجاحات كبيرة على مستوى الثراء وما شابه، لكنه لن يكون سعيدًا، لأنه لا يهتم بعاطفته ولا يعبأ بمشاعره، وربما لا يعرف البكاء طوال حياته، فتكون حياته كلها مكرّسة للمادة فقط، فيخسر الجانب العاطفي، ويصبح كمن يرى الحياة بعين واحدة.

لذلك ينصح علماء النفس الأشخاص الأذكياء والأقل ذكاءً بعدم التفريط بالعاطفة، وكثير منهم يؤكدون على مزايا الخشوع والتفاعل الإنساني الحميم والبكاء، ويؤكدون أيضًا أن الإنسان، الذي يوازن بين العاطفي والمادي يكون أكثر سعادة واستقرارًا ونجاحًا من الإنسان، الذي يفتقد أحد الجانبين، وكلاهما يفشل في تحقيق التوازن، ولا يمكن أن يكون هناك مفكر بلا عاطفة، إلا إذا كان فكره مقتصرًا على الأفكار المادية البحتة.

توجد أهمية المزاوجة بين المادة والعاطفة، بين الثقافة والجهل، ومن ثمة تطوير المسار الثقافي للمجتمع على أساس التوازن العاطفي الفكري والمادي.

من هنا، ينبغي أن يكون لدى القائمين على المؤسسات الثقافية والمنظمات والاتحادات والمنتديات رؤية وتصور واضح عن أهمية الربط بين العاطفي والمادي، وانطلاقًا من هذه الرؤية يمكن للمعنيين بالثقافة في العراق والبلدان الإسلامية والمسلمين في كل مكان، أن يستفيدوا من زيارة الأربعين لتحقيق الموازنة بين العاطفي والمادي.

إن بعض علماء النفس يؤكدون أن استعداد الإنسان العاطفي للتثقيف والفهم وهضم التجارب النظرية والتطبيقية، يكون أفضل من الإنسان ذي التفكير المادي البحت.

من هنا، علينا أن ندرب

الأشخاص على أهمية الموازنة بين مشاعرهم وأفكارهم المحصورة بالعلم والمادة وما شابه، وهذا جانب بالغ الأهمية، ولا ينبغي إهماله لأي سبب كان، ويمكن أن تكون زيارة أربعين الإمام الحسين عليه السلام منطلقًا لنا نحو تحقيق هذا الهدف الجوهري، على أن تكون هناك خطوات واضحة للمضي الحثيث والسليم في هذا الاتجاه[٢٦].

الإطار الثقافي المنهجي في الفكر الحسيني

من المتعارف عليه للجميع، أن ملايين الزوار الكرام من عموم المسلمين، من مشارق الأرض ومغاربها، من خارج العراق وداخله، تتدفق إلى مرقد سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في زيارة الأربعين، لأداء مراسم هذه الزيارة السنوية المليونية، ولإحياء مبادئ الإمام الحسين، وأئمة أهل البيت عليهم السلام، هذه الملايين تحمل في صدورها المشاعر الجيّاشة، والعواطف الصادقة والإنسانية الراقية، وتحمل من الخشوع كنوزًا لا تحصى ولا تُعدّ، فهي في الواقع، وكما يلاحظها المتابع مفعمة بالعواطف، ومن المناسب جدًّا أن تجد من يرعاها ثقافيًّا.

لذلك تكون زيارة الأربعين عاملًا مساعدًا لتثقيف الملايين من المسلمين، ويمكن أن تكون هذه المناسبة الدينية منطلقًا للنهوض بملايين المسلمين أينما كانوا، عندما تتم المزاوجة بصورة مخطط لها من لدن المعنيين، بين أداء مراسم الزيارة وبث الثقافة والوعي في عقول وإدراك الملايين اللذين يتوافدون إلى كربلاء المقدسة.

ولا شك أن التنظيم والتخطيط، ومن ثم التنفيذ الحاذق من لدن المعنيين، لتحقيق القفزة النوعية المطلوبة ثقافيًّا للمسلمين، يمكن أن تتحقق في هذه الزيارة المليونية، فهناك عوامل مساعدة كثيرة تصب في إنجاح

الجهود المباركة التي تسعى لرفع المستوى الثقافي، ومستوى الوعي لجماهير المسلمين القادمين لمواساة أبي الأحرار عليه السلام.

المقصود بالتثقيف المنهجي، هو عدم الارتجال، والتنظيم، والتركيز على الفكر الحسيني وما يفيض به من قدرات هائلة، معنوية وفكرية وإنسانية وعاطفية، تدعم الفعل المادي للإنسان، وتجعله منضبطًا بإرادة ذاتية، تحصّنه من الانحراف، لأن الإنسان المثقف المؤمن بمبادئ الحسين عليه السلام، يكون قادرًا على مواجهة مغريات الحياة، ولا ينحرف بسهولة، من هنا تتضاعف الدعوات لأهمية زيادة ثقافة المسلمين، ويتأتّى التركيز على هذا الجانب من حاجة المسلمين إلى النهوض مجددًا والاصطفاف إلى جانب الأمم المتطورة.

وهذا الهدف ليس مستحيلًا، بل هو في متناول اليد، ولكن نحن كمسلمين موالين لأمير المؤمنين عليه السلام، نحتاج إلى الإرادة أولًا، والتخطيط، واستثمار الفرص الثقافية المتاحة لنا، للارتقاء بثقافة ووعي الإنسان، وتشكل زيارة الأربعين فرصة راقية ومناسبة للشروع بالتثقيف المنهجي على الفكر الحسيني، حتى نضمن إنسانًا حسينيًّا إنسانيًّا واعيًا ومثقفًا، ومن خلال هذه النماذج الواعية، تُبنى الأمة من جديد، وتستعيد أمجادها، وتسترد مكانتها، ودورها التنويري الريادي، فتكون في الموقع، الذي يؤهلها مجدّدًا للعب الدور الإنساني التثقيفي الحاسم.

لأن الثقافة الحسينية هي ثقافة إنسانية في جوهرها، والقادمون إلى كربلاء المقدسة في هذه الزيارة، كلهم حسينيون، لذلك من الأفضل أن يرتفع بهم المعنيون والقائمون على الثقافة إلى المستوى الثقافي المطلوب.

كذلك ينبغي تحقيق المنهج التثقيفي

بصورة منهجية وليست عشوائية، على أن تشترك في هذا الأمر جميع المؤسسات الثقافية، وكل من يهمه رفع المستوى الثقافي للمسلمين، بما يعزز مبادئ الفكر الحسيني في نفوس جميع الزائرين، عن فهم ووعي وإيمان، حتى يكون الإنسان عاطفيًّا خاشعًا وعالمًا ومثقّفًا في الوقت نفسه.

ونضع هذه النقاط المقترحة، في إطارها الثقافي؛ وذلك من أجل النهوض بالثقافة والوعي، وكي يسترد المسلمون دورهم بين أمم العالم أجمع، بالاستفادة من مناسبة زيارة الأربعين، ومن هذه المقترحات ما يلي:

– أن تشترك جميع المؤسسات والمنظمات الثقافية بوضع البرامج الثقافية عبر التخطيط والتنسيق المشترك.

– أن يتم التركيز على فحوى الفكر الحسيني الإنساني الرافض للطغيان، والداعي إلى الحرية والعدالة الاجتماعية ولكل القيم الإيجابية.

– توظيف الجهد الإعلامي للفضائيات، لا سيّما الدينية منها والتي تبث فكر أهل البيت عليهم السلام، للمساعدة في إيصال المنهج الثقافي الحسيني إلى أكبر قدر من المسلمين عبر العالم.

– ربط الثقافة بزيارة الأربعين يمنحها بُعدًا عمليًّا أفضل، من حيث الإقبال من عدمه.

– لا بدّ أن يحرص القائمون على الثقافة الحسينية، ويباشرون مسؤولياتهم عمليًّا وفق تخطيط وتنظيم دقيق.

– أن يتم تقديم ندوات واسعة ومهرجانات كبيرة عن الفكر الحسيني مع استثمار زيارة الأربعين في هذا الجانب.

– أن يكون هناك دور مهم للمسرح الحسيني، لزيادة الثقافة والوعي من خلال عرض الأعمال المسرحية في الأماكن المناسبة.

– الاستفادة من المواكب الحسينية لعرض المسرح الحسيني مثل التشابيه، ولكن بطريقة فنية تهز المشاعر وتضاعف من الوعي.

– ويبقى التخطيط لنشر الثقافة الإنسانية الحسينية، بحاجة قصوى إلى التخطيط والتنظيم والتنفيذ، حتى نقطف الثمار المرتقبة من جميع الجهود التي يتم بذلها في هذا المضمار.

المحور الثالث: الإطار الاجتماعي في الزيارة الأربعينية

داخل كل دين ظاهرة اجتماعية أو إطار فكري، يشمل المجتمع بناسه وبيئته وجغرافيته، والإسلام عندما جاء به الله بالقرآن العظيم على قلب النبي صلى الله عليه وآله الأمين لم يكن بعيدًا عن هذا الإطار الاجتماعي، فقد جاء الإسلام بتذويب الفوارق بين الطبقات، وإشاعة العدل والمساواة والإخاء.

إن كل ظاهرة دينية يمكن دراستها بملاحظة البعد الإيماني العَقدي مرة، وملاحظة البعد العملي التقنيني مرة أخرى، وباللحظ التاريخي التحليلي ثالثة فهذه الأبعاد الثلاثة هي الرائجة في دراسة الأديان والظواهر الدينية؛ ولكن لكل من الدين وظواهره أبعاد ولحظات أخرى لا بدّ من إشباعها بحثًا وتنقيبًا بشكل ينسجم مع واقعها وعمقها ومن هذه الأبعاد، بل في مقدمتها، الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية والنفسية ... وغيرها[٢٧].

وزيارة أربعينية الإمام الحسين عليه السلام باعتبارها ظاهرة دينية تكرارية – تتجدد في كل عام – لا بدّ من دراستها بجميع أبعادها لأجل اقتطاف الثمرة المرجوة منها؛ لأن السلوك دينيًّا كان أم غير ديني، إذا لم يخضع للفكر سيكون عشوائيًّا ويذهب سدى دون فائدة تذكر لذا قيل: أصل السلوك فكرة.

أضف إلى ذلك، أن السلوك المستند إلى فكر رصين يكون المحرك والباعث عليه قناعة راسخة في ذهن

الإنسان منشؤها الفكر تولد التزامًا وحرصًا ودقة في مقام التطبيق.

وانطلاقًا من ذلك سنسلط الضوء وبشكل مختصر على الأبعاد الاجتماعية لهذه الزيارة التي صارت بحق أكبر التجمعات الدينية في جميع أصقاع العالم، وأكثرها تنوعًا من حيث الانتماءات والقوميات؛ إذ يمكن تلخيص تلك الأبعاد بعدة نقاط أهمها[٢٨]:

١. التلاقح الفكري

إن التلاقح الفكري والتواصل المعرفي يعتبر أحد أهم الركائز التي بنيت عليها الحضارات في شرق الأرض وغربها، وسبب أساس في التعايش السلمي.

وزيارة الأربعين توفر فرصة لالتقاء شتى الحضارات الشرقية منها والغربية، بما يكفل لكل زائر أو صاحب موكب أن يخرج بحصيلة معرفية ومبدئية متنوعة المصادر، ففيها تجد الشرقي والغربي ومن شتى الأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية في حالة من التواؤم والتعايش، تكفل تحقيق هذه الثمرة إن تم رعايتها بالشكل المطلوب، كما أنها تمثل نقطة تلاق بين الشيعة أنفسهم ومن شتى بقاع العالم، وبين مبادئهم الإنسانية التي تم اختصارها بنقطة تدعى «طف كربلاء».

٢. تكريس ثقافة العمل التطوعي

زيارة الأربعين بما لها من خلفية دينية عاطفية فكرية تملك من المحركية والباعثية الاجتماعية، على العمل التطوعي قدرًا يفوق كل الإمكانات المؤسساتية العالمية في هذا المجال، فعلى مدى آلاف الكيلومترات ومن جميع الاتجاهات المؤدية إلى كربلاء ولعدة أيام تجد الشيبة والشباب؛ الرجال والنساء في حركة متواصلة يبذلون جهودًا جبّارة وأموالًا طائلة عن قناعة وإخلاص دون أدنى تذمّر أو إحباط،

وبدون أي أجر مادي دنيوي في قبال ما يبذلونه[٢٩].

٣. تكريس ثقافة التكافل الاجتماعي

إن التكافل الاجتماعي قيمة إنسانية، قبل أن تكون مبدأ دينيًّا، فالشارع المقدس قننها وأرشد إليها، ولكن لم يكن مؤسسًا في تشريعها؛ كما يعد هذا المبدأ من أهم المبادئ التي تضمن للإنسان حد الكفاف على أقل التقدير بما يمنحه حياة كريمة بعيدة عن الذل والامتهان، لذا نتصور أنها أهم مبدأ تفتقر له مجتمعاتنا اليوم[٣٠].

وزيارة الأربعين عندما تجمع بين العمل التطوعي من جهة، والعطاء المادي والروحي اللامحدود، ودون مقابل من جهة أخرى، تبلغ بذلك ذروة التكافل التي لم تبلغها المؤسسات الدولية فضلًا عن غيرها؛ إذ من أهم السمات التي يكتسبها الإنسان في زيارة الأربعين هي سمة العطاء، الذي يورث بدوره خصالًا أخلاقية وإنسانية كثيرة من قبيل الكرم والجود والإيثار وتغييب البخل والأنانية والحب المفرط للذات[٣١].

٤. القضاء على التمييز العنصري وتكريس ثقافة المساواة والتواضع والتذكير بالأخوّة الإنسانية عامة والإسلامية خاصة.

التمييز العنصري على أساس اللون والعرق والجنسية والانتماء الفكري والديني يعد من أبرز اللعنات التي أصابت المجتمع البشري بصورة عامة شرقًا وغربًا، لدرجة أن الدول الحديثة رغم تسارع عجلة التقدم والتطور فيها، ورغم ما شرعته من قوانين للحيلولة دون هذا التمييز، لا زالت نشرات الأخبار تطل علينا بين الفينة والأخرى بأحداث مروعة من عنف مادي ومعنوي فيها بسبب العنصرية رغم التكتم الإعلامي الشديد، ولكن زيارة الأربعين بما

تستمده من الإمام الحسين عليه السلام من قيم دينية ومبادئ إنسانية ورصيد فكري رصين، تمكنت من إذابة جميع الفوارق العنصرية بين الحشود المليونية الزاحفة إلى كربلاء؛ إذ تجد فيهم شتى الجنسيات والقوميات والأديان والاتجاهات الفكرية كما تجد الأسود والأبيض وقد تساوى الجميع في (الملبس، المطعم، المجلس، المنام، الخدمة .... إلخ)، بل يسير بعضهم إلى جنب بعض، في أجواء زاخرة بالأخوة والمحبة ونسيان الذات، وكأنهم تخلوا عن جميع الفوارق وانتُزع الغل من قلوبهم بمجرد أن وضعوا أقدامهم على طريق كربلاء، حتى يبلغ ذلك ذروته عندما تجد أن هذه القوميات والأعراق والألوان كل منها يفتخر بأن يكون خادمًا للآخر بروح ملئها المحبة والعطاء.

٥. تمنح الفرد الكثير من القيم الإنسانية التي تساعد في بناء مجتمع متماسك وتمنحه القدرة على الصمود بوجه كثير من المزالق، ومن هذه القيم ترسيخ الإيمان، الحرية، العدالة، الصبر.

٦. تذكير المجتمع بالمبادئ الحسينية الإنسانية.

٧. تعد فسحة للتعبير عن عاطفة ممزوجة بالفكر والتعقل، مما يثمر نضوجًا في المنهج الإيماني والإنساني على حد سواء.

المحور الرابع: الإطار الاقتصادي للزيارة الأربعينية

الزيارة الأربعينية تنشط الدورة الاقتصادية[٣٢]؛ لأن التجمعات المليونية لا بدّ أن تلد تبادل فكري وثقافي واقتصادي، من خلال تبادل السلع والمنتجات من زائري دولة لزائري دول أخرى، بل داخل العراق نفسه، عندما يلتقي الزائرون من بغداد والموصل وواسط وسامراء وغيرها، وأيضًا الزيارة الأربعينية للإمام الحسين بدون أدنى شك، تساهم في

دعم الاقتصاد الوطني العراقي، وأيضًا الدول الأخرى مواطن رأس الزائرين، مثل الحج ليشهدوا منافع لهم.

إن أعداد الزائرين لكربلاء المقدسة لأداء الزيارة الأربعينية تزداد من سنة إلى أخرى، متحدية المجاميع الإرهابية والتي لم تقف عن جرائمها بحق الزائرين العزل الذين يريدون التقرب إلى الله بحب نبيهم محمد وآل بيته منذ التغيير، إضافة إلى مشقة السفر إلى كربلاء وذلك لضخامة عدد الزائرين، حيث إن أعدادهم لا تقل عن ١٥ مليون زائر[٣٣].

هذا الرقم الهائل من الحشود البشرية يترك أثارًا كبيرة على صعيد الإنفاق الكلّي (الطلب العام على السلع والخدمات) من خلال المداخيل التي يحصل عليها أصحاب الخدمات التي يوفرونها للزائرين، مثل قطاع النقل والمواصلات، الفنادق والمطاعم، والمحلات التجارية بما فيها باعة الأقمشة والهدايا، والكتب الدينية والتاريخية، الإيرادات المالية لهذه القطاعات، سوف تنفق بمرور الزمن، وبذلك تنشط الدورة الاقتصادية، لأن زيادة الطلب على المنتجات الزراعية مثل الرز والخضروات من قبل أصحاب المواكب الحسينية، سوف يؤدي إلى زيادة الطلب على زراعة هذه المنتجات، وزيادة الطلب على أماكن النوم، يزيد الطلب على بناء فنادق جديدة، وعلى استخدام أراضي جديدة لهذا الغرض، وزيادة الطلب على المواصلات سوف يجبر الحكومات في الاستثمار بتأسيس طرق وجسور ومعابر حدودية ومطارات جديدة وإيجاد وسائط نقل سهلة للزائرين مثل خط قطارات متقدم وأساطيل باصات جديدة.

ثم إن هناك منافع اقتصادية غير منظورة لهذه الزيارة، أهمها هو تعرف

رجال الأعمال العراقيين برجال أعمال عرب وأجانب، تعرّف الوافدين للزيارة على المنتجات العراقية، وتعرّف العراقيين بمنتجات بلدان الزائرين، التعرّف على لغات الزائرين وثقافاتهم، وأداة لتنشيط الاستثمار الأجنبي في العراق وغير العراق.

إن الزيارة الأربعينية وإن كان هدفها تجديد البيعة لرسول الله والولاء إلى أهل بيته من قبل الملايين من المسلمين، إلا أن الزيارة أيضًا مناخ اقتصادي واجتماعي وفكري، في كل الأطر المختلفة، ولكن يبقى الأهم هو الجانب الروحي، وهو بالطبع مقدمة باقي الأطر.

خاتمة

في ختام هذا البحث نجد أن الزيارة الأربعينية لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، لها أبعاد وأطر تنتمي للسياسة والثقافة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد.

وتعد زيارة الإمام الحسين عليه السلام في العشرين من صفر في كربلاء، أو الزيارة الأربعينية، أكبر مشروع إصلاحي لواقع الأمة، بهدف بنائها على المستوى التوعوي والفكري والعملي، وتقويم وتحسين مسارها السياسي والفكري. إن زيارة الأربعين تجمّع إنساني وعالمي يتجاوز الطابع الديني، ويشكّل حدثًا اجتماعيًّا غير مسبوقٍ في العالم لما تجمعه الزيارة من دلالات على المستوى التربوي والعقائدي والسياسي والإعلامي والثقافي.

تختزن الزيارة أكبر عملية تفاعلية على عدة مستويات، فهناك الارتباط بين عالمي الغيب والشهود؛ وامتداد الماضي والحاضر والمستقبل؛ ومفاهيم بناء النفس الإنسانية؛ وديناميكيات الثورة الإصلاحية، وعناصر الهوية العاشورائية، وغيرها.

تؤمن الزيارة الأربعينية أبعادًا

استراتيجية، الثورة بمعناها التقدمي التحرري الأوسع دلالة من الزمان والمكان بما ينتفي معه إمكانية تصنيفها من المنظور العلمي بالظاهرة الخاضعة للعوامل الزمكانية.

ويظهر البعد التقدمي الشمولي في ما ترسخه الزيارة من نهج صراع الحق ضد الباطل، فكريًّا وسياسيًّا، عبر إدامة حالة الصراع مع الطواغيت، والعمل على تفكيك أجندة الخصم وإبطال أدواته، وترشيد القواعد الشعبية وربطها بالفكرة والمنظور والمشروع عبر منظومة من المفاهيم، وتحديث حالة التفاعل الفكري والإرادي بكسر الأنماط الفكرية البالية وتحرر المنظومة، والخروج على جمود الوعي وتفعيل حالة المواجهة، واستعادة الدور المطلوب والمسار الصحيح.

إن الزيارة وإن تتسم بالطابع المذهبي الشيعي إلا أنها تعبّر عن تجذر القضية الحسينية في الوجدان الإيماني للمسلمين عمومًا والضمير الإنساني للعالم أجمع، فهي عمليًّا نبض حياة متجدد للفكر الثوري الجهادي الباحث عن الحرية من سلطة الظالمين، وانعتاق الروح من قيود مفاهيم الخضوع والذل والانكسار.

سلام على الإمام الحسين يوم وُلد ويوم استشهد ويوم أربعينيته، ويوم صار رمزًا لدفع الظلم وإقامة العدل، والبحث عن الحق المطلق، مهما كان الثمن غاليًا، فقد قدّم دمه الشريف ليكون نبراسًا للحائرين، ولكافة المصلحين، لم يخن الوسيلة أبدًا في مقابل النصر[٣٤].

ولكنّه آمن بالله والوسيلة الشريفة، انتصر به الدم الحسيني على السيوف الأموية وكل سيوف البغاة الظالمين.

الهوامش:

[١] الحديث مشهور ومتواتر عند مذهب أهل البيت، وفي كل كتب أهل السنة أيضًا، كما في البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل، وكل المسلمين يعتقدون بصحة هذا الحديث.

[٢] تم دفن الرأس الشريف مع الجسد الطاهر في كربلاء المقدسة، ويوجد للرأس أيضًا ضريحا في المسجد الحسيني بالقاهرة، وفي الجامع الكبير بدمشق، حيث يتنافس المسلمون حول وجود الرأس، وهو تنافس شريف يؤكد عمق حب المسلمين لسيد الشهداء.

[٣] محمد طاهر الصفار، زيارة الأربعين، نظرة تاريخية واجتماعية، موقع شبكة النبأ المعلوماتية، https: //webcache. googleusercontent. com/ الزيارة في المصادر، الأربعاء ٢٧ شباط/٢٠٠٨.

[٤] أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ هـ، الجزء٢، باب فضل زيارة الحسين، الصفحة ١٧.

[٥] أبو الريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، المكتبة الشاملة الإلكترونية، الصفحة٣٣١.

[٦] حسين بن محمد تقي بن علي محمّد بن تقي النوري، مستدرك السائل ومستنبط الوسائل، لندن، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٩٨٧، باب ٩، الصفحة ٢١٥.

[٧] مستدرك المسائل، مصدر سابق، ٤، ٢١٩.

[٨] مستدرك المسائل، مصدر سابق، باب ٢٨، الصفحة ٩٠.

[٩] المصدر نفسه، الصفحة١٠١.

[١٠] المصدر نفسه، الصفحة ١٢٤.

[١١] اعتمدنا في الإحصائيات على المنشور والمشهور في وسائل الإعلام المختلفة، بجانب رؤيتنا الشخصية، حيث عاصرت تلك الزيارات بشكل شخصي.

[١٢] من خلال مشاهدتي الشخصية عند زياراتي في عاشوراء، وفي الأربعينية الشريفة.

[١٣] من خلال مشاهدتي الشخصية عند زياراتي في عاشوراء، وفي الأربعينية الشريفة.

[١٤] الحديث مشهور في كل الكتب والسير عند أهل البيت، وعند أهل السنة، كما جاء في البخاري ومسلم، كما ذكرنا في الصفحات السابقة.

[١٥] مرتضى معاش، بمناسبة زيارة الأربعين أجرت قناة المرجعية الفضائية في بثها المباشر لقاءها الثالث مع الشيخ مرتضى معاش المشرف العام على مؤسسة النبأ للثقافة والإعلام تحت عنوان: البعد السياسي في زيارة الأربعين، وهي متوفرة على شبكة المعلومات الدولية الإنترنت.

[١٦] سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

[١٧] سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

[١٨] نهج البلاغة، الخطبة٥١.

[١٩] عباس محمود العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٩م،

الصفحة ١٥.
[٢٠] محمد الريشهري، ميزان الحكمة، نسخة كمبيوترية، الجزء١، الصفحة ٥٨٢.
[٢١] سعد السلامي في تحليل لقناة النبأ، البعد السياسي في زيارة الأربعين، شبكة النبأ المعلوماتية،
http: //webcache. googleusercontent. com/
[٢٢] سورة آل عمران، الآية ١٦٩.
[٢٣] سورة البقرة، الآية ١٥٤.
[٢٤] سعد السلامي، في تحليل- في برنامج قناة النبأ، البعد السياسي في زيارة الأربعين، مصدر سابق.
[٢٥] المصدر نفسه.
[٢٦] سعد السلامي، البعد السياسي في زيارة الأربعين، مصدر سابق.
[٢٧] الشيخ ليث الكربلائي، البعد السياسي في زيارة الأربعين، شبكة النبأ المعلوماتية،
http: //webcache. googleusercontent. com من -٠ ١٧-١٠-٢٠١٨
[٢٨] الشيخ ليث الكربلائي، البعد السياسي في زيارة الأربعين، مصدر سابق.
[٢٩] من خلال رؤيتنا لهؤلاء الشباب المؤمن في زياراتنا في الأربعينية.
[٣٠] الشيخ ليث الكربلائي، البعد السياسي في زيارة الأربعين، مصدر سابق.
[٣١] الشيخ ليث الكربلائي، البعد السياسي في زيارة الأربعين، مصدر سابق.
[٣٢] محمد رضا عباس، المنافع الاقتصادية لزيارة أربعينية الإمام الحسين، موقع صوت العراق،
/webcache. googleusercontent. com
[٣٣] المصدر نفسه.
[٣٤] د. علي أبو الخير، في رحاب كربلاء، القاهرة، مركز يافا للدراسات والأبحاث، ٢٠٠١م، الصفحة ٥.

م. خديجة محمد علي العكري
باحثة إسلامية، من البحرين

التجلّيات العقديّة في كلمات نساء الركب الحسيني

مقدّمة

الصلاة والسلام على خير الأنام محمد صلى الله عليه وآله وعلى آله الطيبين الطاهرين عليهم السلام.

إنّ أفعال الإنسان الاختيارية لا بدّ لها من منهج ونظام تسير وِفقَه، وشريعة وقانون تستند إليه. وأيّ شريعة وطريقة إنّما هي منبثقة من عقيدة هي أساسها ومنشؤها، فإن كانت العقيدة واقعية وصحيحة، كانت الشريعة منجحة مفلحة، وإن كانت العقيدة وهمية وباطلة، فلن تعطي إلّا نظاماً مُردياً مُهلكاً.

وكما أنّ الأعمال العظيمة تدلّ على عقيدة ونيّة أعظم منها، تدلّ الأعمال الدنيئة على عقيدة أسوء وأحطّ منها كذلك، فالعقيدة هي المراد الأقرب للكلمة الطيبة أو الخبيثة في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ**

﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء﴾[1].

وقول الإمام الباقر عليه السلام: (نيّة المؤمن أفضل من عمله، وذلك لأنّه ينوي من الخير ما لا يُدركه، ونيّة الكافر شرّ من عمله، وذلك لأنّ الكافر ينوي الشرّ ويأمل من الشرّ ما لا يُدركه)[2]، يؤكّد هذه الحقيقة أيضاً، فالنيّة تتولّد حسب العقيدة، والإنسان يدرك بنيّته ما لا يُدركه بعمله.

إنّ العمل الدؤوب للأنبياء عليهم السلام والمصلحين على تصحيح العقيدة وتهذيبها وترسيخها، إنما هو لأجل دورها الأساسي في صلاح البشرية ونموّها وتحرّرها ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾[3]، والإفساد للعقيدة وزعزعتها هو سبيل وديدن الطواغيت والمفسدين في الأرض، ليسهل لهم استضعاف وإفساد البشر ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[4].

فالثورات الإصلاحية العظيمة على مرّ التاريخ، إنّما صنعها الرجال والنساء من أهل الإيمان الحقيقي والعقيدة الراسخة، وملحمة كربلاء الخالدة إنما سطّرها ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ﴾[5].

إنّ نساء الركب الحسيني كرجاله لم يكنّ على مستوى واحد من التربية الإيمانية، ففيهنّ مثلاً زينب ابنة علي بن أبي طالب عليه السلام، زين أبيها[6]، وربّة العلم والصون التي عُجنت روحها بكوثر علي وفاطمة عليهما السلام، وأُعدّت إعداداً خاصاً على يد المعصومين الخمسة أهل الكساء عليهم السلام، فكانت وهي طفلة في حجر أبيها تأبى أن تقول (اثنين) بلسان قالت به (واحد)[7]!

وفيهنّ سكينة ابنة الحسين عليها السلام التي كان الاستغراق مع الله يغلب عليها[٨]، وكانت منقطعة إلى الطاعة والعبادة، كما فيهنّ أُمّ وهب النصرانية التي أسلمت حديثاً مع ولدها على يد الإمام الحسين عليه السلام، والتحقا به[٩].

ولكنّ الأمر المشترك لدى الجميع أنهنّ آمنّ بالحسين عليه السلام إمام الحقّ، وحافظ رسالة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، ووضعن أقدامهنّ في طريقه ليحذين حذوه، فتفجّرت ينابيع الإيمان والحكمة في قلوبهنّ، وجرت على ألسنتهنّ، ونطقت بها فعالهنّ.

ورغم قلّة ما وصل إلينا من التاريخ والسيرة الكربلائية، لا سيّما فيما يخصّ مواقف نساء الركب الحسيني، إلّا أنّه مباركٌ كماء السماء، ونام ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾[١٠]، ممّن استبصر واهتدى واقتدى.

ولخصوصية وأهمّية العقيدة الإيمانية الحقّة في صياغة شخصية المرأة، وأدائها لدورها التغييري على المستوى الفردي والاجتماعي، سنسلّط الضوء في هذه الصفحات المتواضعة على بعض التجلّيات العقديّة في كلام نساء الرّكب الحسيني، وسيكون البحث مرتّباً حسب أُصول العقيدة الخمسة (التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، المعاد)، وقد اعتمدنا على ملاحظة تجلّيات هذه الأُصول العقدية وتشعّباتها في مواقف وكلمات النساء اللّاتي صحبن الإمام الحسين عليه السلام، أو كان لهنّ دور في نصرته.

معنى العقيدة وموقعيتها

العقيدة لغةً: مأخوذة من (العقد)، وهو: نقيض الحلّ، ويُقال: عقدت الحبل، فهو: معقود، ومنه: عقدة النكاح، والعقد: العهد، والجمع: عقود، وهي أوكد العهود.

أمّا **العقيدة في الاصطلاح الشرعي**،

فهي تطلق على الإيمان بأُصول الدين.

وقد اتفق العلماء من الفريقين على أنّ العقائد يجب أن يصل فيها الإنسان إلى اليقين، ولا يكفي في العقيدة الظنُّ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾[11]، فالظنّ لا يغني من الواقعيات شيئاً، إذ المطلوب في الواقعيات اليقين، ولا يصحّ فيها الشكّ والريب[12].

للدين أُصول وفروع، أو عقيدة وشريعة، وأُصول الدين هي بمثابة الأساس الذي يُشيّد عليه البناء، وهي عند الإمامية خمسة: (التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، المعاد). والمعتقدات الأُخرى تتفرّع من هذه الأُصول، وبيانها وبيان أدلّتها العقلية وشواهدها النقلية مبسوط في الكتب العقائدية.

وأُصول الدين يجب أن يكون الإيمان بها مستنداً إلى الدليل والبرهان، ولا يصحّ فيها التقليد والتبعية، كما أنّ إنكارها يُخرِج الإنسانَ من الدين أو المذهب.

وأمّا فروع الدين أو شريعته، فهي أُمور مبنية على أُصوله ومنبثقة عنها، ويصح فيها التقليد للعلماء التقاة، وهي عند الإمامية عشرة: (الصلاة، الصوم، الخمس، الزكاة، الحجّ، الجهاد، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، التولّي لأولياء الله، التبري من أعداء الله).

أولاً: تجلّيات الاعتقاد بالتوحيد

في الحديث القدسي: (كلمة لا إله إلّا الله حصني...)[13]، فالتوحيد هو الأصل الأوّل، والأساس للعقيدة الإيمانية، ولهذا الأصل مراتب ودرجات تُمايز بين الموحّدين أنفسهم، وبمقدار ما يحقّق المؤمن في نفسه من هذه الدرجات يكون داخلاً في حصن الله تعالى وآمناً من عذابه.

والمُتتبِّع لكلمات ومواقف نساء الركب الحسيني يراها تنضح توحيداً، وترشح عرفاناً بالله تعالى، وانقطاعاً

إليه، بما يأخذ بمجامع القلوب، ويحيّر الأفهام، ويكشف سرّاً من أسرار حمل الإمام الحسين عليه السلام لهؤلاء النسوة اللّاتي وقفن في وجه الكفر الأُموي بالله تعالى.

فيزيد بن معاوية أراد أن يبايعه الناس على أنّهم عبيد له لا لله سبحانه[١٤]! مؤكّداً سيرة جدّه أبي سفيان الذي كان له مذهبٌ خاص في الجاهلية، وهو الزندقة، قال المقريزي فيه: (وكان كهفاً للمنافقين، وإنّه كان في الجاهلية زنديقاً)[١٥]، ثمّ أسلم بعد فتح مكّة تحت التهديد خوفاً على حياته، ولم يكن إسلامه عن اطمئنان وقناعة، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا﴾[١٦].

وقد وصفته زينب الكبرى عليها السلام في خطبتها بمجلس يزيد بقولها: (أشدّ العرب لله جحوداً، وأنكرهم له رسولاً، وأظهرهم له عدواناً، وأعتاهم على الربّ كفراً وطغياناً)[١٧].

في مقابل هذه الزندقة وقفت زينب عليها السلام في مجلس يزيد؛ لتصدح بكلمة التوحيد، مفتتحة خطبتها بـ (الحمد لله ربّ العالمين)[١٨].

التوحيد في الربوبية[١٩]

فالله تعالى ربّ العالمين هو مَن يمتلك الوجود بذاته، وهو خالق كلّ شيء، وبيده تدبير أمره، والله غير محتاج إلى أحد في تدبير العالم وإدارته، فهو مَن يتصرّف في الكون وحده، ولا يمكن أيّ موجود أنْ يتصرّف في العالم إلّا بحوله وقوّته.

التوحيد في العبادة

عندما نعتقد بأنّ وجودنا من الله، واختيار وجودنا بيده، ولا يؤثّر في العالم شيء بصورة مستقلّة إلّا هو، وحقّ وضع القوانين منحصر به، فإنّه لا يبقى حينئذٍ مجال لعبادة غيره، ويكون هو المستحقّ للعبادة وحده.

والعبادة في الواقع إظهار للعبودية،

وجعل النفس تحت تصرّف المعبود المستحقّ للعبادة من دون شرط.

وها هي زينب الكبرى عليها السلام تذكر حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وآله يكشف تسليمها وعبادتها لله تعالى، وأهمّية التحرّز من الشبهات، فضلاً عن المحرمات، فقد رُوي: (أنّ السيّدة زينب عليها السلام كانت جالسة ذات يوم، وعندها أخواها الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام: وهما يتحدّثان في بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله. فقالت السيّدة زينب عليها السلام سمعتُكما تقولان: إنّ رسول الله قال: الحلال بَيّن، والحرامُ بيّن، وشُبُهاتٌ لا يعلمها كثير من الناس.

ثمّ استمرّت السيّدة زينب تُكمل الحديث وتقول: مَن تَركها (أي: تَرَك الشبهات) صَلُحَ له أمر دينه، وصَلُحت له مُروءَته وعِرضه، ومن تلبّس بها ووقع فيها واتّبعها.. كان كمَن رعى غنمه قرب الحِمى، ومَن رعى ماشيته قرب الحمى نازعته نفسه أن يرعاها في الحمى، ألا وإنّ لكلّ ملكٍ حِمى، وإنّ حمى الله محارمه)[٢٠].

وقد جسّدت نساء الركب الحسيني العبودية المطلقة لله تعالى، والتسليم إليه في مواقف كثيرة، من خلال طاعتهنّ وتسليمهنّ لأمر حجّة الله وخليفته الإمام الحسين عليه السلام.

فعندما قرّر عليه السلام الخروج من مكّة قبل يوم واحدٍ من إحرام الحجّ والوقوف بعرفة، مع أنّ خروجه عليه السلام وأهل بيته من المدينة إلى مكّة[٢١] كان منذ أواخر رجب أو بداية شهر شعبان، ومكثوا فيها حتّى شهر ذي الحجة، إذا بالإمام الحسين عليه السلام يطوف بالبيت، ويسعى بين الصفا والمروة، ويقصّ من شعره، ويحلّ من عمرته، ثمّ يخرج إلى الكوفة والناس متوجّهة إلى منى[٢٢]، وكان خروجه يوم التروية لثمانٍ مضين من ذي الحجّة[٢٣].

لقد سلّمت نساء الركب الحسيني كرجاله لهذا الأمر الربّاني، ولم ينقل التاريخ أنّ صوتاً معارضاً واحداً ارتفع، أو أنّ أحداً منهم اقترح البقاء،

وهنا يتجلّى التوحيد. أمّا عندما يلتزم الإنسان بالشرع ما دام يعجبه، أو يدور في فلك راحته ومصالحه، ويتجاوزه عندما لا يكون كذلك، فهذا شركٌ في العبادة، فمثل هذا الإنسان في الحقيقة يعبد نفسه ولا يعبد ربّه ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[٢٤].

التوحيد في الاستعانة والأمل

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢٥]

هو لسان مقال وحال نساء الركب الحسيني.

(وإلى الله المشتكى، وعليه المعوّل، وإليه الملجأ والمؤمّل)[٢٦]، هو صوت زينب الكبرى عليها السلام الذي جلجلت به في وجه زيد، في وقتٍ ظنّ الكثير بأنّها في أشدّ حالات الضعف والهزيمة، وإذا بها في أشدّ قوّتها وأوج نصرها بالاستعانة والاعتماد والتوكّل على الله تعالى الذي هي في أشدّ العبودية له وحده، وفي قمّة الأمل بعونه وجزيل أجره.

إنّ الاستعانة بالله والأمل به جعلا زينب الكبرى عليها السلام لا تواسي نفسها وتواسي نساء الركب الحسيني وحسب، بل تواسي حجّة الله وإمام زمانها عليه السلام عندما رأت ابن أخيها الإمام السجاد عليه السلام ـ وهو إمام الصبر ومعلّمه ـ يجود بنفسه لما نظر إلى أهله كالأضاحي مجزرين، وبينهم ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، بحالة تنفطر لها السماوات، وتنشق الأرض، وتخرّ منها الجبال هدّاً، فقالت له تسلّيه وتصّبره:

(ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي... فوالله إنّ ذلك لعهد من الله إلى جدّك وأبيك، ولقد أخذ الله ميثاق أُناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات، أنّهم يجمعون هذه الأعضاء المقطّعة، فيوارونها، والجسوم المضرّجة، وينصبون لهذا الطفّ علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء، لا يُدرس أثره، ولا يُمحى رسمه، على كرور الليالي والأيام، وليجتهدنّ أئمّة الكفر، وأشياع الضلال

في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره إلّا ظهوراً، وأمره إلّا علواً)[٢٧]. فرغم عدم وجود أيّ علامة حسّية تلوح في الأُفق وجدت ﷺ الأمل الكبير بالله تعالى والثقة المطلقة بوعده ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢٨].

هذه البصيرة النافذة والثقة الكبيرة بأنّ جميع مخططات يزيد ستفشل ويحيق مكره به، جعلت زينب عليها السلام تقسم بالله إنّه لحقّ: (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تُدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها...)[٢٩].

إنّ التوكّل على الله تعالى والاستعانة به وحده لا يعني ترك الأسباب العادية، بل ينبغي الأخذ بها ورعايتها وإن ضعفت، فمَن يرد رفع العطش مثلاً عليه أن يطلب الماء، ومَن يرد الشفاء من المرض عليه الذهاب إلى الطبيب وأخذ الدواء، ولا يعني التوحيد هنا أن لا يحرّك الإنسان ساكناً بدعوى الانقطاع إلى الله تعالى والطلب منه وحده، لذلك نرى زينب عليها السلام تسأل الإمام الحسين عليه السلام ليلة العاشر: (أخي، هل استعلمت من أصحابك نيّاتهم؟ فإنّي أخشى أن يسلموك عند الوثبة واصطكاك الأسنّة)، فقال لها: (أما والله، لقد نهرتهم وبلوتهم، وليس فيهم إلّا الأشوس الأقعس، يستأنسون بالمنية دوني استئناس الطفل بلبن أُمّه)[٣٠]، فتبسّمت زينب عليها السلام فرحاً، وسكن قلبها عندما رأت ليلة العاشر شدّة عزم أصحاب الحسين عليه السلام وبني هاشم، وإظهارهم شيمتهم.

قالت زينب عليها السلام: (ففرحت من ثباتهم، ولكن خنقتني العبرة، فانصرفت عنهم وأنا باكية، وإذا بأخي الحسين عليه السلام قد عارضني، فسكنت نفسي، وتبسّمت في وجهه، فقال: أُخية. فقلت: لبيك يا أخي. فقال عليه السلام: يا أُختاه، منذ رحلنا من المدينة ما رأيتك متبسمة، أخبريني ما سبب تبسّمك؟ فقلت له: يا أخي، رأيت من

فعل بني هاشم والأصحاب كذا وكذا!)[٣١].

التوحيد في الخوف

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾[٣٢]، إنّ الخوف الحقيقي من الله يولّد الأمن من غيره، و(طوبى لمَن شغله خوف الله عن خوف الناس)[٣٣]، فلا خوف من بشر، ولا من حدث، ولا خوف على رزق أو أجل أو ولد، إنّ الضرر والخسران الذي يجب الخوف منه هو فوات الآخرة والقرب الإلهي، وأيّ ضرر دونه لا قيمة ولا أهمّية له في قبال ذلك، فلماذا الخوف منه أو عليه؟!

لهذا نجد الكلمات والمواقف الشجاعة لنساء الركب الحسيني، فهذه أُمّ وهب زوجة عبد الله بن عمير الكلبي، لمّا برز إلى الميدان وأُصيب في يده اليسرى، أخذت أُمّ وهب عمود خيمة، ثمّ أقبلت نحو زوجها، وهي تقول له: (فداك أبي وأُمّي، قاتلْ دون الطيّبين ذريّة محمّد)[٣٤]، فأقبل زوجها عبد الله يردّها نحو النساء، لكنّها رفضت وقالت له: (إنّي لن أدعك دون أن أموت معك)[٣٥]، فتوجّه نحوها الحسين عليه السلام، فدعا لها، وطلب منها الرجوع نحو النساء، لأنّه ليس على النساء قتال، فانصاعت أُمّ وهب لقوله، ورجعت إلى الخيمة، ولمّا قُتِل زوجها خرجت نحوه، وجلست عند رأسه تمسح عنه التراب، وهي تقول له: (هنيئاً لك الجنّة)[٣٦]، وسألت الله أن يلحقها به، فقال الشمر لغلامه رستم: (اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها)[٣٧].

وها هي أُمّ عمرو بن جنادة، بعد استشهاد عمرو قطع العدوّ رأسه، ثمّ رموا به نحو خيمة الإمام عليه السلام، فرجعت أُمّ عمرو إلى الخيمة، فأخذت عمودها، وحملت على القوم، وهي تردّد أبياتاً من الشعر، تقول فيها:[٣٨]

أَنَا عَجُوزٌ فِي النِّسا ضَعِيفَهْ
بَالِيَةٌ خَاوِيَةٌ نَحِيفَهْ
أَضْرِبُكُمْ بِضَرْبَةٍ عَنِيفَهْ
دُونَ بَنِي فَاطِمَةَ الشَّرِيفَهْ

فضربت رَجُلين فقتلتهما، ثمّ إنّ الإمام الحسين عليه السلام أمر بصرفها وأرجعها إلى الخيمة[٣٩].

وها هي زينب الكبرى عليها السلام، خرجت من فسطاطها عندما أحاطت الجيوش بالحسين عليه السلام، تصرخ في وجه عمر بن سعد دون خوف أو تردّد: (ويحك يا عمر! أيُقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟! فلم يجبها عمر بشيء، فنادت: ويحكم أما فيكم مسلم؟! فلم يجبها أحد بشيء)[٤٠].

ولولا شجاعة ورباطة جأش هذه المرأة العظيمة، زينب الكبرى عليها السلام، وعدم خشيتها إلّا من الله تعالى، لم يوصِها الإمام الحسين عليه السلام بحفظ العيال والأطفال بعد استشهاده، بل حفظ الإمام زين العابدين عليه السلام، فكانت هي المنقذ وهي الملاذ والمأمن.

وعند وصول نساء الركب الحسيني إلى الكوفة كانت للهاشميات مواقف جريئة وشجاعة، رغم انتشار الآلاف من الشرطة، كي يخنقوا كلّ صوت، ويراقبوا كلّ حركة. في مثل هكذا ظروف خطبت أُم كلثوم عليها السلام في أهل الكوفة، رافعةً صوتها بالبكاء، قائلة: (صه يا أهل الكوفة، تقتلنا رجالكم، وتبكينا نساؤكم! فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء)[٤١]. وقالت أيضاً: (يا أهل الكوفة، سوأة لكم، ما لكم خذلتم حسيناً، وقتلتموه، وانتهبتم أمواله، وورثتموه، وسبيتم نساءه، ونكبتموه، فتبّاً لكم وسحقاً، ويلكم أتدرون أيّ دواهٍ دهتكم؟! وأيّ وزر على ظهوركم حملتم؟! وأيّ دماء سفكتم؟!)[٤٢].

كما احتجّت فاطمة الصغرى عليها السلام بكلِّ جرأة وشجاعة على أهل الكوفة قائلةً: (... تبّاً لكم! فانتظروا اللعنة

والعـذاب، وكـأنّ قـد حـلّ بكـم، وتواترت من السماء نقمات، فَيُسْحِتَكُمْ بـما كسـبتم، ويُـذِيقَ بَعْضَـكُمْ بَـأْسَ بَعْضٍ، ثمّ تخلدون في العـذاب الأليـم يوم القيامة بما ظلمتمونا، أَلَا لَعْنَـةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ)[٤٣].

وفي الشام هذه زينب الكـبرى عليها السلام المرأة الأسيرة، تقف في وجه المتغطرس الجـائر يزيـد بـن معاويـة، وفي وسـط قصره وحاشيته وتهتـف: (... فَمَهْـلاً مَهْلاً لَا تَطِشْ جَهْلا! أَنَسِيتَ قَوْلَ الله: ﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُواْ أَنَّمَـا نُمْـلِي لَهُـمْ خَـيْرٌ لِّأَنفُسِـهِمْ إِنَّمَـا نُمْـلِي لَهُـمْ لِيَـزْدَادُواْ إِثْمًـا وَلَهُـمْ عَـذَابٌ مُّهِينٌ**﴾)[٤٤][٤٥].

ولأنّ مَن يخاف الله تعـالى لا يخـاف غيره، ويهـون أمامـه السـلطان الجـائر ويـراه حقـيراً صـغيراً، خاطبـت زينب عليها السلام يزيـد: (ولـئن جّـرت عـلي الـدواهي مخاطبتـك، إنّي لأستصـغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأسـتكبر توبيخك)[٤٦].

التوحيد في المحبّة

(أَنْتَ الَّـذى أَزَلْـتَ الأغْيـارَ عَـنْ قُلُوبِ أحِبّائِكَ، حتّى لَمْ يُحِبُّـوا سِـواكَ، وَلَمْ يَلْجَـأوا إلى غَـيْرِكَ)[٤٧]. هـذا هـو لسـان حـال نسـاء الركـب الحسـيني، فكربلاء صُنعت بالحُبّ، والحُـبّ أمـر وجـداني، وهـو مـن النسـاء أجـلى وأعجب، فـما الـذي أخـرج العقائـل الهاشمية من بلد إلى بلد في رحلة مدّتها أكثر من سبعة أشهرٍ، غير الحُبّ؟! وما الـذي حـدا بالأُمّهـات أن يقـدِّمن أولادهن، والزوجات أن يشحذن همم أزواجهن للمسارعة إلى مذبح العشق، غير الحُبّ؟!

إنّ حُبّ زينب الكبرى لله تعالى هو الذي جعلها تقـول في وجـه عبيـد الله بن زيـاد: (مَـا رَأَيْـتُ إلّا جَمِيلاً)[٤٨]، حين سـألها: (كَيْـفَ رَأَيْـتِ صُـنْعَ الله بِأَخِيكِ وَأَهْلِ بَيْتِـكِ؟)[٤٩]. وكـلّ مـا يأتي من الجميل جميل، وليس أجمل من ذات الله تعالى، فـلا أجمـل مـن فعلـه، ولأنّ النفس البشرية تحبّ الجمال فهـو

تعالى المحبوب بالأصالة، وكلّ جمال في هذا الكون إنّما هو رشحة من جماله.

وإنّ لذّة العشق هي التي جعلتها لا تترك صلاة الليل ليلة الحادي عشر من المحرّم، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: (فتحت عيني ليلة الحادية عشر من المحرّم، وإذا أنا أرى عمّتي زينب عليها السلام تصلّي نافلة الليل وهي جالسة، فقلت لها: يا عمّة، أتصلّين وأنت جالسة؟ قالت: نعم يابن أخي، والله إنّ رجلي لا تحملني!)[٥٠].

(يا مَنْ أذاقَ أحِبّاءَهُ حَلاوَةَ المُؤانَسَةِ، فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقينَ، وَيا مَنْ أَلْبَسَ أوْلِياءَهُ مَلابِسَ هَيْبَتِهِ، فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَغْفِرينَ)[٥١]، أجل، لقد تملّقت نساء الركب الحسيني إلى الله أيّما تملّق، لِما ذقن من حلاوة حُبّه ومؤانسته سبحانه

فالمحبّة بالأصالة لله تعالى، ومحبّة أيّ شيء إنّما لكونه موصلاً إليه، وإذا تنازل العبد عن كلّ ما عنده لله فهو صادق وموحّد في حُبّه.

ثانياً: تجلّيات الاعتقاد بالعدل

العدل في اللغة بمعنى السويّة والتسوية، وفي العرف العام استُعمل بمعنى رعاية حقوق الآخرين، وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه.

ويُستعمل مفهوم العدل بمعنى: وضع الشيء في موضعه. وبهذا المعنى يكون العدل مرادفاً للحكمة[٥٢].

وضع الأُمور في مواضعها

إنّ إدراك حسن العدل وقبح الظلم هو من الأُمور الفطرية التي يُجمع عليها كلّ العقلاء، وعلى أساس هذه القاعدة العقلية احتجّت زينب الكبرى عليها السلام على إدخالهم مجلس يزيد، وبتلك الصورة المهينة! بما يجانب العدل والحكمة التي هي من أساسيات صفات الحاكم، (أمن العدل يابن الطلقاء، تخديرك حرائرك

وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا؟!)[٥٣]، فأنت يا يزيد (ابن الطلقاء)، ونحن (بنات رسول الله)، فأيّ النساء أَوْلى بالصون والكرامة، نساؤك أم نحن؟! وهل هذا العمل وضعٌ للأُمور في مواضعها؟!

الجزاء من سنخ العمل

ويمكن أن نستفيد من وصف زينب عليها السلام ليزيد بـ (ابن الطلقاء) أيضاً، تذكيره بمخالفته للفطرة التي تقتضي كون الجزاء من سنخ العمل ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾[٥٤]، فرسول الله صلى الله عليه وآله حينما فتح مكّة وظفر بمعاوية وأبي سفيان كان بإمكانه أن ينتقم منهما، ويجزيهما بفعلهما، خاصةً أبي سفيان الذي كان يؤجّج نار الفتنة والحرب ضدّ الرسول صلى الله عليه وآله، ولكنه أطلق أسرهما، وخلّى سبيلهما[٥٥]. فهذا الإحسان والتجاوز عند الظفر بالعدو يقتضي المجازاة بالمثل، إلّا أنّ يزيد عندما ظفر ببنات رسول الله صلى الله عليه وآله تعامل معهنّ بلا أدنى رحمة، ولم يكن عادلاً بهذا المعنى.

ومن احتجاج فاطمة الصغرى عليها السلام على أهل الكوفة يمكن الالتفات إلى نفس المسألة: (ويلكم، أتدرون أية يد طاعتنا منكم، وأية نفس نزعت إلى قتالنا، أم بأية رِجل مشيتم إلينا تبغون محاربتنا؟)[٥٦]، فأنفسكم وأيديكم وأرجلكم هي نعم الله تعالى، ولكنكم لم تشكروه بها، بل كان الجزاء أن حاربتم بنعمه آل بيت نبيّه صلى الله عليه وآله، وخليفته في أرضه الإمام الحسين عليه السلام!

أمّا أهل البيت عليهم السلام فأُنموذج لمجازاة الإحسان بالإحسان، ففي الرواية أنّه أوكل يزيد إلى رجل شامي مهمّة إرجاع الركب الحسيني المكوّن من زين العابدين عليه السلام والنسوة والأطفال إلى المدينة المنوّرة، وكان يحرسهم ويلطف بهم، ويسألهم عن حوائجهم حتّى وصلوا المدينة، فقالت فاطمة بنت علي عليها السلام لأُختها الحوراء

زينب عليها السلام: (يا أُخية، لقد أحسن هذا الرجل الشامي إلينا في صحبتنا، فهل لك أن نَصِله؟ فقالت: والله ما معنا شيء نصله به إلّا حليّنا! قالت لها: فنعطيه حليّنا، قالت: فأخذت سواري ودملجي، وأخذت أُختي سوارها ودملجها، فبعثنا بذلك إليه، واعتذرنا إليه، وقلنا له: هذا جزاؤك بصحبتك إيانا بالحسن من الفعل!)[٥٧].

العدل في التكليف والحكم والجزاء

إنّ مقتضى العدل الإلهي أن يكلّف الله تعالى الإنسان بمقدار استعداده وقابليته ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٥٨]، وأن يقضي ويحكم فيه على حسب قدرته وجهده الاختياري ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[٥٩]، وأن يجازيه ثواباً وعقاباً بما يتلاءم وأفعاله ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٦٠][٦١].

وقد عمدت زينب الكبرى عليها السلام لبيان هذا الأصل العقدي ردّاً على الطاغية يزيد الذي بدأ في أوج الطيش والغرور، والشعور بالغلبة وعلوّ المكانة! فصفعته بكلماتٍ موقظة ـ ولو لبعض الجالسين حوله ـ قالت فيها: (أظننت يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الأسارى، أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأُمور متّسقة؟!)[٦٢].

فالحياة الدنيا هي دار العمل والابتلاء، وليست دار الجزاء، والتفاوت فيها من حيث الفقر والغنى والشدّة والرخاء والهزيمة والغلبة لا يدلّ على الهوان أو الكرامة من الله تعالى، بل يكون اليسر والرخاء أحياناً إمهالاً واستدراجاً للإنسان؛ لتزداد آثامه، فيزداد عقابه! ولهذا خاطبته زينب عليها السلام: (فمهلاً مهلاً، لا تطش

جهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٦٣)(٦٤).

والله العادل في حكمه سيقضي بيننا بالحقّ في عالم الآخرة، فذلك اليوم هو يوم الفصل، والقضاء العادل والتام، (وحسبك بالله حاكماً)(٦٥)، وقالت مذكرةً يزيد بالجزاء الإلهي العادل الذي ينتظره من الله الذي لا تخفى أو تشتبه عليه أعمال العباد، ولا يعجزونه طلباً: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾(٦٦).

الإيمان بالقضاء والقدر

(والحمد لله الذي حكم لأوليائه بالسعادة، وختم لأصفيائه بالشهادة ببلوغ الإرادة)(٦٧). حكم لأوليائه: قضى لهم، وقدّر لهم ذلك(٦٨).

فكلمات زينب الكبرى عليها السلام تعبّر عن إيمانها ورضاها بقضاء الله تعالى وقدره، وأنّه سبحانه لم يقضِ ويختار لصفوته من خلقه هذه العاقبة الحسنة والشرف العظيم إلّا لعلمه القديم بأهليتهم لهذا اللطف والكرامة، وأنّهم يختارون هذا الطريق بإرادتهم.

وفي المقابل، فإنّ حكم الله على أعدائه بالضلال والغواية وسوء المنقلب، إنما هو لعلمه القديم أيضاً بسوء اختيارهم وضلالهم، (وطبع على أفئدتكم، وختم على سمعكم وبصركم، وسوَّل لكم الشيطان وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة، فأنتم لا تهتدون)(٦٩).

كما خاطبت فاطمة الصغرى عليها السلام أهل الكوفة، وبنفس مطمئنة بقضاء الله وقدره، محذرةً أن يأخذهم الفرح والجذل: (فلا تدعوَنّكم أنفسكم إلى الجذل بما أصبتم من دمائنا، ونالت أيديكم من أموالنا، فإنّ ما أصابنا من المصائب الجليلة والرزايا العظيمة ﴿فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى

﴿اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٧٠][٧١].

فمَن يؤمن بأنّ حوادث الكون خاضعة لإرادة الله الحكيمة العادلة، وتقديره وقضائه، لا يُصاب بالفرح والغرور عند الرخاء، ولا الحزن والأسى عند الشدّة، فكلّ هذه الأحداث خاضعة للنظام العادل، والهدف منها ابتلاء الإنسان وتربيته، ليصل إلى كماله.

الإنسان مختار في فعله وليس مُجبَراً

لقد روّج الأُمويون[٧٢] لعقيدة الجبر، وأنّ الإنسان ليس مختاراً في أفعاله؛ وذلك ليبرّروا مواقفهم المنكرة، ويجعلوا الناس تتقبّل حكومتهم، ولا تتحرّك ضدّهم، فبنو أُميّة هم قدر الله على هذه الأُمّة، وكلّ ما يفعلونه إنّما هو فعل الله في الحقيقة، فإذا وصل أحدهم إلى الحكم فهذا فعل الله، وإذا قُتل أحدهم فهو فعل الله أيضاً!

ومن هذا المنطلق نجد عبيد الله ابن زياد (لعنه الله) يخاطب زينب الكبرى عليها السلام، بقوله: (كيف رأيت صُنْعَ الله بأخيك وأهل بيتك؟ فقالتْ: ما رأيتُ إلّا جميلاً، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم)[٧٣].

فقد أراد تبرئة ساحة بني أُمية من قتل الحسين عليه السلام، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، ولكن زينب عليها السلام لم تدع هذه الفكرة دون إبطال، ففعل الله تعالى بهم كان جميلاً وعاقبته خيراً، وما كتبه عليهم تعالى من الأزل أنّهم يُقتلون، لا ينفي المسؤولية عن بني أُمية، فقد أعطاهم الله تعالى العقل والقدرة الاختيارية على أداء الفعل أو عدمه، وبيّن لهم الحدود والأحكام، وقد كتب سبحانه أنّ هذا القتل سيكون بيد الفاعل المريد، والمختار في فعله، وليس المجبَر عليه.

وبما يقارب نفس المنطق أجابت سكينة بنت الحسين عليها السلام الطاغية يزيد، فحين أُدخل عليه أهل البيت عليهم السلام والتفت اللعين إلى سكينة عليها السلام، وقال: يا سكينة، أبوك الذي كفر حقّي، وقطع رحمي، ونازعني في ملكي. فبكت سكينة عليها السلام وقالت: (لا تفرح بقتل أبي، فإنّه كان مطيعاً لله ولرسوله صلى الله عليه وآله، دعاه إليه فأجابه، وسعد بذلك، وأنّ لك يا يزيد بين يدي الله مقاماً يسألك عنه، فاستعد للمساءلة جواباً، وأنّى لك الجواب؟!)[٧٤].

وليست دعوتها إياه إلى الاستعداد للمساءلة إلّا تأكيداً لكونه مختاراً، وليس مجبراً على فعله؛ إذ من القبيح أن يكلّف الله تعالى الإنسان ما لا يطيقه، ويسأله عما لا إرادة له فيه ولا اختيار.

ثالثاً: تجلّيات الاعتقاد بالنبوّة

(عُرِّف النبيّ بأنّه: الإنسان المُخبِر عن الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر)[٧٥]. ومَن يؤمن بالله تعالى وصفاته يؤمن بضرورة النبوّة وإرسال الرسل، وإلّا فهو غير عارف به سبحانه ﴿**وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**﴾[٧٦]، فالإنسان مخلوق لهدف وغاية هي الكمال والسعادة، ومعرفة الطريق الموصل لهذا الكمال غير متحقّقة إلّا بالبيان الإلهي، فالبشر يعجزون عن ذلك، فوجب أن يرسل سبحانه رسلاً معصومين من الزلل، يوحي إليهم ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[٧٧]، ويجري على أيديهم المعجزة؛ ليثبت صدق دعواهم وصلتهم بالله تعالى.

ولكنّ الأمر المؤسف الذي وصلت إليه الأُمّة أن يتربّع على مسند خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله ويكون الحاكم على المسلمين مَن هو منكرٌ لهذا الأصل الثابت بالدليل والبرهان العقلي القطعي!

إنّ إنكار معاوية بن أبي سفيان

لنبوّة محمد ﷺ، وترصّده لإطفاء نوره وإخماد ذكره، أمر مدوّن في الكتب المعتبرة عند أهل السنة فضلاً عن غيرهم، فعن المطرف ابن المغيرة بن شعبة، قال: (دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدّث معه، ثمّ ينصرف إليه، فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً، فانتظرته ساعة، وظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من أكفر الناس وأخبثهم. قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عنهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك ممّا بقي لك ذكره وثوابه؟ فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكر أرجو بقاءه؟ ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتّى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: أبو بكر، ثمّ ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتّى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، وإنّ ابن أبي كبشة ليُصاح به كلّ يوم خمس مرات (أشهد أنّ محمداً رسول الله) فأيّ عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك؟! لا والله، إلّا دفناً دفناً)[٧٨].

كما صرّح يزيد بن معاوية في مجلسه بما يُضمر في قلبه من كفر بنبوّة محمد ﷺ قائلاً:[٧٩]

لست من خندف إن لم أنتقم
من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشمُ بالملك فلا
خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

وفي وجه هذا المعتقد الباطل، والحقد الدفين على رسول الله محمد ﷺ، الذي ورثه يزيد عن أبيه وجدّه، نرى نساء الركب الحسيني ينطلقن في كلّ حركة وكلّ كلمة من

منطلق الاعتقاد الراسخ بنبوّة محمد ﷺ، وكرامته، ومودّة أهل بيته عليهم السلام التي هي أجر رسالته.

نسبة الحسين عليه السلام إلى رسول الله عند حثّ الأولاد والأزواج على النُّصرة

عندما جاء رسول الإمام الحسين عليه السلام زهير بن القين، فسلّم عليه، قال: (يا زهير ابن القين، إنّ أبا عبد الله الحسين بعثني إليك لتأتيه... فقالت له امرأته: سبحان الله، أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه؟! لو أتيته فسمعت من كلامه، ثمّ انصرفت)[٨٠].

وفي العاشر من المحرم أخذت أُمّ وهب عموداً، ثمّ أقبلت نحو زوجها عبد الله ابن عمير الكلبي، تقول له: (فداك أبي وأُمّي، قاتل دون الطيبين ذرّية محمد)[٨١].

وقال الإمام الحسين عليه السلام لشاب قُتِل أبوه في المعركة: (يا فتى، قُتل أبوك، ولو قُتلت فإلى مَن تلتجئ أُمّك في هذا القفر؟ فأراد أن يرجع، فجاءته أُمّه، وقالت: يا بني، تختار سلامة نفسك على نصرة ابن بنت رسول الله؟)[٨٢].

فالحسين عليه السلام ابن رسول الله ﷺ، وسبطه في أُمّته، وحقّه ﷺ أن يُحفظ في ولده.

القَسَم (برسول الله) عظيم

في آخر لحظات العمر الشريف للإمام الحسين عليه السلام، وكان مغشياً عليه لكثرة الجراحات، ألحت عليه زينب عليها السلام بالخطاب، وكثر منها البكاء، وقالت له: (أخي، بحقّ جدّي رسول الله ﷺ إلّا ما كلّمتَني... فانتبه الحسين عليه السلام من قولها)[٨٣].

وهنا يتجلّى مقام رسول الله ﷺ في نفس زينب والحسين عليهما السلام، حيث يُقسم الأوّل بمقامه وحقّه، فيستجيب الآخر لهذا القسم ويبرّه رغم شدّة الموقف وعسره.

مَن شهد لله تعالى بالوحدانية شهد لمحمد ﷺ بالرسالة

افتتحت زينب الكبرى عليها السلام كلامها

في مجلس يزيد (لعنه الله) بقولها: (الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على جدّي سيد المرسلين)[٨٤]، كما افتتحت فاطمة الصغرى عليها السلام خطبتها في أهل الكوفة بقولها: (وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله)[٨٥].

فهذا هو الدين الحقّ، ولا يمكن أن نكون مسلمين فنشهد لله تعالى بالوحدانية، ثمّ ننكر نبوّة محمد صلى الله عليه وآله، وإلّا فهو الكفر الصريح.

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾

مَن آمن بمحمد صلى الله عليه وآله نبياً ورسولاً وجب أن يودَّ قرباه، ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٨٦]، فهذا هو أجر الرسالة الذي سأله الرسول صلى الله عليه وآله بنصّ القرآن الكريم، وهو من ضروريات الإسلام.

ولقد ناشدت نساء الركب الحسيني ضمائر القوم بهذا الحقّ الذي ضيّعوه، فلم يرعوا حُرمة رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل بيته وقرابته! عن قرّة بن قيس التميمي، قال: (نظرت إلى تلك النسوة لما مررن بحسين وأهله وولده صحن ولطمن وجوههن. قال: فاعترضتهنّ على فرس، فما رأيت منظراً من نسوة قطّ كان أحسن من منظر رأيته منهنّ... فما نسيت من الأشياء لا أنسى قول زينب ابنة فاطمة حين مرّت بأخيها الحسين صريعاً، وهي تقول: يا محمداه يا محمداه، صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعرا، مرمّل بالدما، مقطّع الأعضا، يا محمداه، وبناتك سبايا، وذرّيتك مقتلة، تسفى عليها الصبا. قال: فأبكت والله كلّ عدو وصديق)[٨٧].

وعن فاطمة الصغرى عليها السلام: (دخلت الغانمة [العامة] علينا الفسطاط، وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب، فجعل رجل يفضُّ الخلخالين من رجلي وهو يبكي، فقلت: ما يُبكيك يا عدوّ الله؟ فقال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة

رسول الله؟! فقلت: لا تسلبني، قال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه)[٨٨].

أقبل الركب الحسيني إلى الكوفة، فنادت أُمّ كلثوم عليها السلام: يا أهل الكوفة، غضّوا أبصاركم عنّا، أما تستحيون من الله ورسوله صلى الله عليه وآله أن تنظروا إلى حرمه[٨٩].

ومن خطبة فاطمة الصغرى في أهل الكوفة: (وفضّلنا بنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله على كثير ممّن خلق تفضيلاً بيّناً، فكذّبتمونا، وكفّرتمونا، ورأيتم قتالنا حلالاً وأموالنا نهباً، كأنّا أولاد ترك أو كابل)[٩٠].

وعن محمد بن علي عليهما السلام قال: (لما همّ الحسين بالشخوص إلى المدينة أقبلت نساء بني عبد المطلب، فاجتمعن للنياحة حتّى مشى فيهنّ الحسين عليه السلام، فقال: أنشدكنّ الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله. قالت له نساء بني عبد المطلب: فلمَن نستبقي النياحة والبكاء، فهو عندنا كيوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة... فننشدك الله جعلنا الله فداك من الموت، فيا حبيب الأبرار من أهل القبور)[٩١].

وفي ليلة عاشوراء قال الإمام الحسين عليه السلام: (ألا ومَن كان في رحله امرأة فلينصرف بها إلى بني أسد. فقام علي بن مظاهر وقال: ولماذا يا سيدي؟! فقال عليه السلام: إنّ نسائي تُسبى بعد قتلي، وأخاف على نسائكم من السبي. فمضى علي بن مظاهر إلى خيمته، فقامت زوجته إجلالاً له، فاستقبلته وتبسّمت في وجهه، فقال لها: دعيني والتبسم! فقالت: يابن مظاهر، إنّي سمعت غريب فاطمة خطب فيكم، وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة، فما علمت ما يقول؟ قال: يا هذه، إنّ الحسين عليه السلام قال لنا: ألا ومَن كان في رحله امرأة فليذهب بها إلى بني عمّها؛ لأنّي غداً أُقتَل ونسائي تُسبى، فقالت: وما أنت صانع؟ قال: قومي حتّى أُلحقك ببني

عمّك بني أسد. فقامت ونطحت رأسها في عمود الخيمة، وقالت: والله، ما أنصفتني يابن مظاهر، أيسرّك أن تُسبى بنات رسول الله ﷺ، وأنا آمنة من السبي؟! أيسرّك أن تُسلب زينب إزارها من رأسها، وأنا أستتر بإزاري؟! أيسرّك أن تذهب من بنات الزهراء أقراطها، وأنا أتزيّن بقرطي؟! أيسرّك أن يبيضّ وجهك عند رسول الله ويسودّ وجهي عند فاطمة الزهراء؟ والله، أنتم تواسون الرجال، ونحن نواسي النساء)[٩٢].

(إلاّ أن تخرج عن ملّتنا)

في مجلس يزيد قام رجل من أهل الشام، وكرّر الطلب إلى يزيد أن يهبه فاطمة بنت الحسين عليها السلام جارية له، فأخذت بثياب عمّتها، فقالت زينب عليها السلام للشامي: (كذبت والله ولؤمت، والله، ما ذلك لك ولا له. فغضب يزيد، وقال: كذبت والله، إنّ ذلك لي، ولو شئت أن أفعل لفعلت. قالت [زينب]: كلاّ والله، ما جعل الله ذلك لك، إلّا أن تخرج عن ملّتنا، وتدين بغير ديننا. فاستطار يزيد غضباً، وقال: إيّاي تستقبلين بهذا؟! إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك. فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وجدّك وأبوك إن كنت مسلماً)[٩٣].

فدين محمد ﷺ له عقيدة وشريعة وأحكام، ولا يكفي أن يدّعي الإنسان الإسلام، وهو يُضمر المخالفة ويصرّح بذلك. ويزيد هنا كان يدّعي صراحةً أنّ له إعطاء الشامي فاطمة بنت الحسين عليها السلام على أنّها جارية، فكيف ينسجم ذلك مع كونها امرأة مسلمة حرّة؟ بل كيف ينسجم مع كونها من ذوي القربى الذين وجبت مودّتهم والإحسان إليهم؟! فدعوى يزيد هذه تخرجه من الإسلام إن كان مسلماً.

رابعاً: تجلّيات الاعتقاد بالإمامة

الإمامة تعني: الرئاسة والقيادة

العامة الشاملة على الأُمّة الإسلامية في كلّ الأبعاد والجوانب الدينية والدنيوية[٩٤].

وهذه الرئاسة والقيادة في رأي الشيعة إنّما تكون شرعية فيما لو كانت من قِبَل الله تعالى، ولا يكتسب أيّ شخص مثل هذا المقام إلّا إذا كان معصوماً من الخطأ ومنزّهاً من الذنوب، والإمام المعصوم يمتلك كلّ مناصب النبي ﷺ سوى النبوّة والرسالة[٩٥].

ويرى الشيعة أنّ الدليل على ضرورة الإمامة هو نفس الدليل على ضرورة النبوّة؛ لأنّها امتداد للنبوّة، وقائمة مقامها، وإنّ ختم النبوّة إنّما يكون فعلاً إلهياً حكيماً فيما لو اقترن بتعيين الإمام المعصوم الذي يمتلك خصائص النبي ﷺ كلّها: (العلم الموهوب من الله، والعصمة، والتعيين من قِبَل الله) عدا النبوّة والرسالة.

أمّا أهل السنّة فلا يرون هكذا خصائص لأيّ خليفة من الخلفاء، بل ينقلون في كتبهم المعتبرة الكثير من أخطائهم وعثراتهم وعجزهم[٩٦].

ولبيان عقيدة الإمامة، واستحقاق أهل البيت عليهم السلام الذين نصّ عليهم رسول الله ﷺ بأسمائهم لهذا المقام، نجد نساء الركب الحسيني يصدحن بهذا الحقّ، ويجهرن به، ويدافعن عن شخوصه في أشدّ الظروف قساوة وخطراً، وأمام أكثر الناس مخالفة له.

الإمام حجّة الله على الأرض

احتجّت فاطمة الصغرى عليها السلام على أهل الكوفة، فقالت: (إنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم، وابتلاكم بنا، فجعل بلاءنا حسناً، وجعل علمه عندنا، وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه، ووعاء فهمه وحكمته، وحجّته على الأرض في بلاده لعباده)[٩٧].

فالإمامة بالجعل والتعيين الإلهي، وليس البشري، والإمام لديه العلم الإلهي الخاص الذي يبين من خلاله

شريعة الإسلام، ويجيب عن أُمور الدين بما لا خطأ ولا شبهة فيه، فهو بهذا المعنى حجّة الله، وآيته الظاهرة في أرضه.

ويمكننا أيضاً الاستفادة من قولها عليها السلام في وصف الإمام بأنّه: (حجّته)، أنّ للأئمّة حفظ الكون بإذن الله تعالى، وبهذا المعنى ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: (لو بقيت الأرض يوماً واحداً بلا إمام لساخت الأرض بأهلها، ولعذّبهم الله بأشدّ عذابه.. إنّ الله تبارك وتعالى جعلنا حجّة في أرضه، وأماناً في الأرض لأهل الأرض، لن يزالوا بأمان من أن تسيخ بهم الأرض ما دمنا بين أظهرهم، فإذا أراد الله أن يهلكهم ثمّ لا يمهلهم ولا ينظرهم، ذهب بنا من بينهم، ثمّ يفعل الله تعالى بهم ما يشاء)[٩٨].

وما صحّ لدى الفريقين من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون...)[٩٩].

علي بن أبي طالب عليه السلام أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأحقّهم بالخلافة التي سُلبت منه

وقالت فاطمة الصغرى عليها السلام أيضاً: (اللهم إني أعوذ بك أن أفتري عليك الكذب، وأن أقول عليك خلاف ما أنزلت من أخذ العهود لوصية علي بن أبي طالب، المسلوب حقّه، المقتول من غير ذنب، كما قُتل ولده بالأمس في بيت من بيوت الله تعالى، فيه معشر مسلمة بألسنتهم، تعساً لرؤوسهم ما دفعت عنه ضيماً في حياته، ولا عند مماته، حتّى قبضته إليك محمود النقيبة، طيب العريكة، معروف المناقب، مشهور المذاهب، لم يأخذه اللهم فيك لومة لائم، ولا عذل عاذل، هديته يا

ربّ للإسلام صغيراً، وحمدت مناقبه كبيراً، ولم يزل ناصحاً لك ولرسولك (صلواتك عليه وآله)، حتّى قبضته إليك زاهداً في الدنيا، غير حريص عليها، راغباً في الآخرة، مجاهداً لك في سبيلك، رضيته فاخترته، وهديته إلى صراط مستقيم)[١٠٠].

وهنا إشارات وتنبيهات واضحة إلى المؤهلات والصفات التي جعلت من الإمام علي عليه السلام أهلاً للخلافة وإمامة الأُمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى أساسها كان الجعل والتعيين الإلهي.

الأئمّة عليهم السلام معصومون من الذنوب مطهّرون من الرجس

خاطبت فاطمة الصغرى عليها السلام أهل الكوفة قائلة: (تباً لكم يا أهل الكوفة! أيّ ترات لرسول الله قبلكم، وذحول له لديكم، بما عندتم بأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام جدي، وبنيه عترة النبي الطاهرين الأخيار، وافتخر بذلك مفتخركم، فقال:

نحن قتلنا عليا وبني علي
بسيوف هندية ورماحِ
وسبينا نساءهم سبي ترك
ونطحناهم فأيّ نطاحِ

بفيك أيها القائل الكثكث، ولك الأثلب، افتخرت بقتل قوم زكاهم الله، وطهرهم وأذهب عنهم الرجس)[١٠١].

وهذا تنبيه آخر على أمر من أهمّ خصائص الأئمّة عليهم السلام، وهو عصمتهم من الذنوب، وطهارتهم من الرجس، وهو بإرادة خاصّة من الله تعالى، لا تتخلّف عن الواقع ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[١٠٢].

علامة الإمامة عند أُمّ سلمة (رضي الله عنها) وفاطمة بنت الحسين عليهما السلام

كتب الحسين عليه السلام وصيته وأودعها أُمّ سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله، وطلب منها أن تسلّمها إلى أكبر ولده[١٠٣].

عن أبي الجارود، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (لما حضر الحسين عليه السلام ما حضر، دعا فاطمة بنته فدفع إليها كتاباً ملفوفاً ووصية ظاهرة، فقال: يا بنتي، ضعي هذا في أكابر ولدي. فلمّا رجع علي بن الحسين عليهما السلام دفعته إليه، وهو عندنا، قلت: ما ذاك الكتاب؟ قال: ما يحتاج إليه وُلد آدم منذ كانت الدنيا حتّى تفنى)[١٠٤].

ويستفاد من ذلك أنّ الإمام عليه السلام لا بدّ أن تكون له آية وعلامة على إمامته، وأنّ نساء الركب الحسيني كان لهنّ دور أساسي ومهمّ في حفظ هذه العلامة وأدائها وبيانها في الوقت المناسب.

زينب عليها السلام نائبة الإمام المعصوم

وعن محمد بن علي الصدوق رحمه الله: (أنّ لها نيابة خاصّة عن الحسين عليه السلام، وكانت الشيعة ترجع إليها في الحلال والحرام حتّى برأ زين العابدين عليه السلام من مرضه)[١٠٥].

الحسين عليه السلام هو امتداد النبوّة والإمامة

في ليلة العاشر من المحرّم عندما كان الحسين عليه السلام يعالج سيفه، ويردّد أبياتاً ينعى بها نفسه الشريفة، سمعته زينب عليها السلام، فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها، حتّى انتهت إليه، فقالت: (وا ثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمي فاطمة، وأبي علي، وأخي الحسن، يا خليفة الماضي، وثمال الباقي)[١٠٦].

ومن خطبة لزينب الكبرى عليها السلام في الكوفة: (أتدرون ويلكم أيّ كبد لمحمد صلى الله عليه وآله فرثتم؟! وأيّ عهد نكثتم؟! وأيّ كريمة له أبرزتم؟! وأيّ حرمة له هتكتم؟! وأي دم له سفكتم؟!)[١٠٧].

فإمامة أهل البيت عليهم السلام هي امتداد لنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، والأئمّة ذرّية بعضها من بعض، وقد صحّ عند جميع المسلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ)[١٠٨].

التعريف بمقام الإمام الحسين عليه السلام

من خطبة لزينب الكبرى عليها السلام في الكوفة: (وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوّة، ومعدن الرسالة، وسيّد شباب أهل الجنّة، وملاذ حيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجّتكم، ومدرة سنتكم؟!)[109].

فالحسين عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو امتداد الرسالة ومعدنها؛ لأنّه الخليفة، والإمام الشرعي، وهو سيّد شباب أهل الجنّة كما صح عند جميع المسلمين، وهو ملجأ المؤمنين الخيّرين، وإليه يُلتجأ في شدائد الدهر، وهو المنار والهدى إلى الحقيقة، وعند كلّ حيرة، وهو الذي يزوّدكم بالمُؤن المادية والمعنوية في سنوات القحط والجدب[110].

الدفاع عن مقام الإمامة وفداؤها بالنفس والنفيس

رأت أُمُّ البنين أميرَ المؤمنين عليه السلام في بعض الأيام أجلس أبا الفضل عليه السلام على فخذه، وقد شمّر عن ساعديه، وقبلهما وبكى، فأدهشها الحال، ولـمّا أوقفها أمير المؤمنين عليه السلام على غامض القضاء، وما يجري على يديه من القطع في نصرة الحسين عليه السلام، بكت وأعولت، وشاركها مَن في الدار في الزفرة والحسرة، غير أنّ سيّد الأوصياء بشّرها بمكانة ولدها العزيز عند الله (جلّ شأنه)، وما حباه عن يديه بجناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة، كما جعل ذلك لجعفر بن أبي طالب، فقامت تحمل بشرى الأبد، والسعادة الخالدة.

إنّ عبيد الله بن زياد لما نظر إلى علي بن الحسين عليه السلام قال لشرطي له: اقتله، فتعلّقت به عمّته زينب عليها السلام، وقالت: (يابن زياد، حسبك منّا، أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منّا أحداً؟ قال [الراوي] فاعتنقته فقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمناً، إن قتلته لما قتلتني معه)[111].

التسليم لأمر الإمام عليه السلام وطاعته

في يوم عاشوراء خطب الإمام الحسين عليه السلام في أهل الكوفة، فلما سمعت أخواته كلامه صحن وبكين، وبكت بناته، فارتفعت أصواتهن، فأرسل إليهن أخاه العباس ابن علي وعلياً ابنه، وقال لهما: (أسكتاهن، فلعمري ليكثرن بكاؤهن)[112]. فذهبا ليسكتاهن، ولمّا سكتن، حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلّى على محمد صلى الله عليه وآله[113].

وخرج عبد الله بن عمير الكلبي (رضي الله عنه) للقتال بين يدي الإمام الحسين عليه السلام، (فأخذت أُمّ وهب امرأته عموداً، ثمّ أقبلت نحو زوجها تقول له: فداك أبي وأُمّي، قاتل دون الطيبين ذرّية محمد. فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثمّ قالت: إنّي لن أدعك دون أن أموت معك! فناداها حسين عليه السلام فقال: جزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء، فاجلسي معهنّ، فإنّه ليس على النساء قتال، فانصرفت إليهنّ)[114].

بهذه المواقف وما شابهها تميّزت نساء الركب الحسيني حيث الطاعة والتسليم للإمام عليه السلام في مختلف المواقف والظروف، وفي صغير الأُمور وكبيرها، وهذا هو الإيمان الحقيقي **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾**[115].

مصير من يُمكّن غير أئمة الحقّ عليهم السلام

خاطبت زينب الكبرى عليها السلام يزيد فقالت: (وسيعلم مَن بوّأك ومكّنك من رقاب المسلمين أن **﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾**[116]، **﴿وأيّكم شرّ مكاناً وأضل سبيلاً﴾**[117].

خامساً: تجلّيات الاعتقاد بالمعاد

عُرِّف المعاد بأنّه: (الرجوع إلى الوجود بعد الفناء، أو اجتماع أجزاء

البدن إلى الاجتماع بعد التفرّق، وإلى الحياة بعد الممات، والأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة)[١١٨].

واتّفق المسلمون كافّة على وجوب المعاد (لأنّه لولاه لقبح التكليف، ولأنّه ممكن، والصادق قد أخبر بثبوته، فيكون حقّاً، والآيات الدالّة عليه)[١١٩].

مع أنّ الاعتقاد بالمعاد من ضروريات الدين الإسلامي، ينقل لنا التاريخ عن أبي سفيان جدّ يزيد أنّه رغم تظاهره بالإسلام كان منكراً للمعاد، ويعتقد أنّ هذه الحياة الدنيا هي الفرصة الوحيدة التي يجب أن يتمتّع فيها بنو أُميّة، وعليهم الظفر بالسلطة والملك فيها بأيّ ثمن.

فـ(في الاستيعاب من طريق ابن المبارك عن الحسن: أنّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه، فقال: صارت إليك بعد تيم وعدي فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أُميّة، فإنّما هو الملك، ولا أدري ما جنّة ولا نار. فصاح به عثمان: قم عنّي، فعل الله بك وفعل. وفي تاريخ الطبري عن أبي سفيان: يا بني عبد مناف تلقّفوها تلقّف الكرة، فما هناك جنّة ولا نار)[١٢٠].

وها هو الحفيد يزيد ينادي أشياخه، ويتمنّى حضورهم لحظة فرحه بأن صفا له المُلك بعد قتل الحسين عليه السلام، غير مراعٍ له حرمة، وغير خائفٍ من الله نقمة، وغير مرتقب منه حساباً ولا جزاء:[١٢١]

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً
ولقالوا يا يزيد لا تشل
فجزيناه ببدر مثلاً
وأقمنا مثل بدر فاعتدل

أما نساء الركب الحسيني فقد انطلقت كلماتهنّ ومواقفهنّ من اعتقاد راسخ بالمعاد والحياة الآخرة، وعدل

الله تعالى في الحكم والجزاء، منكرات على بني أُميّة هذا المعتقد الباطل، فها هي زينب الكبرى عليها السلام تخاطب يزيد: (ألا إنّها نتيجة خلال الكفر، وصبّ يجرجر في الصدر لقتلى يوم بدر... وهتفتَ بأشياخك، وتقرّبت بدمه إلى الكفرة من أسلافك)[١٢٢].

الحياة البرزخية

إنّ استشهاد زينب الكبرى عليها السلام بهذه الآية: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[١٢٣] في خطابها ليزيد، يدّل على الإيمان بالحياة البرزخية بعد الموت، وقبل قيام الساعة ﴿**وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[١٢٤].

والحياة البرزخية للإمام الحسين عليه السلام ومَن استُشهدوا معه ليست كأيّ حياة، بل هم عند ربّهم يُرزقون، فرحين مستبشرين، فهم قد قُتِلوا في سبيل الله سبحانه، وليس هذا المصير الطيب في البرزخ لجميع الموتى، بل كلٌّ حسب عمله ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[١٢٥].

يوم الحسرة والندامة

وكذلك يزيد بن معاوية، سيكون حاله إذا لقي الله (سبحانه) هو الحسرة والندامة، حيث لا ينفعان، ولا مجال لتدارك العمل في ذلك اليوم الذي يقول الكافر فيه ﴿**يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾[١٢٦]، حين يرى جزاء أعماله، وبهذا خاطبته زينب الكبرى عليها السلام: (ولتودّ يمينك كما زعمت شلّت بك عن مرفقها وجذّت، وأحببت أُمّك لم تحملك، وأباك لم يلدك، حين تصير إلى سخط الله، ومخاصمك رسول الله صلى الله عليه وآله)[١٢٧].

محكمة العدل الإلهي

حين خطبت زينب الكبرى عليها السلام في

الكوفة ذكّرتهم بعذاب الله العادل الذي سيصيبهم في الدنيا ولو بعد حين، ولكن عذاب الدنيا لا يمكن مقارنته أبداً بما ينتظرهم من عذاب الآخرة، فهو أشدّ وأخزى: (أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، فلعذاب الآخرة أخزى، وأنتم لا تُنصَرون. فلا يَستَخفّنكم المُهَل، فإنّه لا يَخفِزُه البِدار، ولا يَخافُ فَوتَ الثار، وإنّ ربّكم لبالمرصاد)[١٢٨].

ونفس الأمر أكّدته فاطمة الصغرى في خطبتها لأهل الكوفة: (تباً لكم، فانتظروا اللعنة والعذاب، فكأنّ قد حلّ بكم، وتواترت من السماء نقمات، فتسحتكم بما كسبتم (فيسحتكم بعذاب)، ويذيق بعضكم بأس بعض، ثمّ تخلدون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمونا، ألا لعنة الله على الظالمين)[١٢٩].

أمّا أهل البيت عليهم السلام فسيجزيهم الله تعالى بأحسن ما عملوا، ويجمع بينهم وبين جدّهم محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، وينتقم ممن ظلمهم، ويأخذ بحقّهم، وهذا ممّا خاطبت به زينب الكبرى عليها السلام يزيد: (حيث يجمع به شملهم، ويلمّ به شعثهم، وينتقم من ظالمهم، ويأخذ لهم بحقّهم من أعدائهم، فلا يستفزنك الفرح بقتلهم، ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[١٣٠][١٣١]، وقد نقلهم الله إلى الرحمة والرأفة، والرضوان والمغفرة.

إنّما هي أعمالكم تُردّ إليكم

لقد خاطبت زينب الكبرى عليها السلام يزيد بالمصير الذي ينتظره والعذاب الأُخروي الذي سيؤول له قريباً، حيث سيكون في أشدّ العذاب وأسفل دركات الجحيم، فالجريمة التي ارتكبها لم يرتكبها حتّى أجداده وأشياخه الذين يفتخر بهم، فهو سيشهدهم عندما يمرّ عليهم، ولكنّهم

لن يشهدوه؛ لأنّه في دركاتٍ أسفل منهم (ولعمري لقد ناديتهم لو شهدوك، ووشيكاً تشهدهم، ولن يشهدوك)[١٣٢].

وهذا المصير السيّئ إنّما هو نفس عملك يا يزيد، فأنت عندما قتلت الحسين عليه السلام ومَن معه إنّما بدأت بقتل نفسك وتقطيع بدنك، وسينكشف لك ذلك يوم تُبلى السرائر، فإنّما هي أعمالك تُردّ إليك، وقد خاطبته زينب الكبرى عليها السلام قائلة: (وما فريت إلّا جلدك، وما جززت إلّا لحمك)[١٣٣]، (فلئن اتخذتنا مغنماً، لتجد بنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلّا ما قدّمت يداك، وما الله بظلام للعبيد)[١٣٤]. فالثواب أو العقاب الأُخرويين إنّما هما نفس أعمال الإنسان في الدنيا، ولكنّهما يظهران بصورة مناسبة لذلك العالم، فحين يأكل الإنسان مثلاً مال اليتيم في دار الدنيا يظهر نفس هذا العمل في الآخرة بصورة أكل النار ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾[١٣٥]، وأنت يا يزيد حين رأيتنا (مغنماً) لك، فإنّ حياتك الدنيا ستنتهي في القريب، وتنتقل إلى الدار الآخرة، فتجدنا هناك (مغرماً).

شفاعة محمد صلى الله عليه وآله أم خصومته؟

أرسل ابن زياد قاصداً إلى أُمّ كلثوم بنت الحسين عليهما السلام فقال لها: (الحمد لله الذي قتل رجالكم، فكيف ترون ما فُعِل بكم؟ فقالت: يابن زياد، لئن قرّت عينك بقتل الحسين عليه السلام فطالما قرّت عين جدّه صلى الله عليه وآله به، وكان يقبّله، ويلثم شفتيه، ويضعه على عاتقه. يابن زياد، أعد لجدّه جواباً، فإنّه خصمك غداً)[١٣٦].

وقد أقضّت زينب الكبرى عليها السلام مضجع يزيد، وهي تنبهه إلى مَن سيقف بين يديه، ويكون له خصيماً يوم القيامة، في وقت يكون العباد فيه أحوج ما يكونون إلى الشفاعة والرحمة، ومظهرها الأكبر هو

محمد ﷺ جدّ الحسين عليه السلام[137]: (وحسبك بالله ولياً وحاكماً، وبرسول الله خصماً، وبجبريل ظهيراً)[138].

إنّ الشفاعة في الآخرة تعتبر من أجلى مظاهر رحمة الله تعالى بعباده، فمع استحقاق العبد للعذاب ودخول نار جهنّم يأتي الشفيع ويخلّصه من هذا المصير بإذن الله، فيصير من أهل الجنّة والنعيم، ﴿**يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**﴾[139].

ولكن ثمّة شروط تذكرها النصوص الدينية فيمَن يستحقّ الشفاعة، منها: أن يكون مرضيّ الدين والإيمان، ثابتاً عليهما حتّى آخر عمره[140] ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ**﴾[141]، ومنها أيضاً أن لا يكون معادياً لأهل البيت عليهم السلام، ولا مؤذياً لهم، فعن علي عليه السلام: (قال رسول الله ﷺ: إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أُمّتي فيشفّعني الله فيهم، والله لا تشفّعت فيمَن آذى ذرّيتي)[142].

ومع أنّ قتلة الإمام الحسين عليه السلام سيتطلعون في يوم القيامة أيضاً لشفاعة رسول الله ﷺ، إلّا أنّه ﷺ لن يشفع لهم، بل سيكون خصمهم، فأيّ مصير موحش ينتظرهم؟! عن الحسين عليه السلام وهو ينقل كلام جدّه معه في منامه قائلاً: (حبيبي يا حسين، كأنّي أراك عن قريب مرمّلاً بدمائك، مذبوحاً بأرض كرب وبلاء، من عصابة من أُمّتي، وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة)[143].

الخاتمة

إنّ الدراسة المتأنية لسيرة نساء الركب الحسيني، والوقوف على جنبات شخصياتهنّ، تكشف لنا أنّهن كأصحاب الإمام الحسين عليه السلام من الرجال، كنّ من صفوة البشر، وخيرة

الخلق، وقدوة حسنة يُتأسّى بها، وأنّهن مدرسة عقدية إيمانية يُتتلمذ فيها، فقد علّمتنا توحيد الله تعالى ومحبّته بأجمل وأجلّ صورة، وعلّمتنا الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وتجلّياتها، ورصانة الاعتقاد بالأئمّة عليهم السلام، ولزوم الدفاع عنهم، وأنّ الإمامة امتداد للنبوّة الخاتمة، وانتظام هذه المعتقدات مع الإيمان باليوم الآخر، ومحكمة العدل الكبرى، والحياة الخالدة، والإيمان بالقرب الإلهي، ومجاورة المؤمنين المضحّين في سبيل الله لخير خلق الله محمد ﷺ، ونيل السعادة الأبدية.

وفي ختام هذا البحث المتواضع أوصي بما يأتي:

١ـ المزيد من الدراسة والتحقيق والتحليل للكلمات والمواقف العقديّة لنساء الركب الحسيني، بحيث تكون بمستوى علمي وفلسفي يرقى إلى المستوى الحوزوي من جهة، والمستوى العام الذي يناسب فهم عموم الناس من جهة أُخرى؛ ليتحقق الخطاب بقدر العقول.

٢ـ أن يكون أهل العلوم الإلهية والمشتغلين بنشر معارف أهل البيت عليهم السلام مثالاً متحرّكاً لصلابة الإيمان لدى رجال ونساء الركب الحسيني؛ ليرى عموم الناس أنّ الاقتداء بهم عليهم السلام ممكن ومتحقق، ويشهدون بركات وخيرات هذا الاقتداء، فيشتاقون إليه.

٣ـ إنّ المُلاحظ لأحوال المسلمين، وعدم ثبات قدم الكثير منهم، بل وارتداد وإلحاد الكثير، وخطر تفشي ذلك بين شريحة الشباب، يدرك أنه من الضروري الاهتمام بتأصيل العقيدة الإسلامية، ونشر الفهم الصحيح لها بالدليل والمنطق، والتحذير والوقاية من الانفتاح غير المنضبط بدعوى حرية الفكر وتبادل الثقافات.

(اللّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ رَسُولَكَ،

أَللّهـمَّ عَرِّفْنِـي رَسُـولَكَ، فَإِنَّـكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُـولَكَ لَمْ أَعْـرِفْ حُجَّتَـكَ، أَللّهـمَّ عَرِّفْنِـي حُجَّتَـكَ، فَإِنَّـكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَـكَ ضَـلَلْتُ عَـنْ دِينِـي، أَللّهمَّ لاَ تُمِتْنِي مِيتَةً جَاهِلِيَّـةً، وَلاَ تُـزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي)[١٤٤].

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. الاحتجـاج، الشـيخ أحمـد بـن علـي، تعليـق وملاحظات: السيّد محمد باقر الخرسان، دار النعمـان للطباعـة والنشـر، النجـف الأشرف، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

٢. الإرشـاد، الشـيخ محمـد بـن محمـد المعـروف بالمفيـد، تحقيـق: مؤسسـة آل البيـت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيـع، بـيروت، لبنـان. الطبعـة الثانيـة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٣. بحـار الأنـوار، العلّامـة محمـد بـاقر المجلسـي (ت١١١١هـ)، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، مؤسسـة الوفـاء، بـيروت، لبنـان، الطبعـة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٤. تاريخ الأُمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعـات، بـيروت، لبنـان، الطبعـة الرابعـة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٥. تفسـير الميـزان، العلّامـة محمـد حسـين الطباطبـائي (١٤٠٢هـ)، مؤسسـة النشـر الإسـلامي التابعـة لجماعـة المدرسـين بقـم المشرفة.

٦. دراسات في العقيدة الإسلامية، محمد جعفر شمس الدين، دار التعاون، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٧. دروس في أُصول العقيدة الإسلامية، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأُولى، ١٩٩٩م.

٨. دروس في العقيدة الإسلامية، محمد تقي مصباح اليزدي، دار الروضة، بيروت، لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٩. دروس في العقيدة الإسلامية، محمد تقي مصباح اليزدي، دار الحقّ، بيروت، لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

١٠. دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٣هـ.

١١. زينب الكبرى عليها السلام من المهد إلى اللحد، السيّد محمد كاظم القزويني، دار المرتضى، بيروت، لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٢. سموّ الموقف، الشيخ حسين الطويل، إصدار المجلس الإسلامي العلمائي، البحرين، الطبعة الأُولى، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

١٣. شبكة المعارف الإسلامية https: //www. almaaref. org.

١٤. شبكة رافد للتنمية الثقافية https: //www. rafed. net/ar.

١٥. الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد،

الشيخ محمد السند، تحقيق: السيّد رياض الموسوي، دار الغدير، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
١٦. العقيلة والفواطم، حسين الشاكري.
١٧. علل الشرائع، الشيخ محمد بن علي الصدوق، تحقيق: السيّد محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م،
١٨. قراءة في المسار الأُموي، مروان خليفات، المطبعة: محمد، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأُولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
١٩. مركز الأبحاث العقائدية http: //www. aqaed. com.
٢٠. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان.
٢١. معالم المدرستين، السيّد مرتضى العسكري، مؤسسة النعمان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٢٢. مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دار القارئ، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٢٣. المكتبة الزينبية، شبكة السراج في الطريق إلى الله
http: //www. alseraj. net\zanab\ayamah/alseraj/.
٢٤. منتخب ميزان الحكمة، محمدي الري شهري، تلخيص: السيّد حميد الحسيني،، دار الحديث، إيران، قم، ١٤٢٢هـ.
٢٥. موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، معهد تحقيقات باقر العلوم، مطبعة دانش، إيران، قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٢٦. النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، الفاضل المقداد السيّوري، دار الأضواء، بيروت، لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

الهوامش

[١] إبراهيم: آية٢٤-٢٧.
[٢] الريشهري، محمد، منتخب ميزان الحكمة: ص٥٢٠.
[٣] هود: آية٨٥.
[٤] القصص: آية٣٨.
[٥] الفتح: آية٢٥.
[٦] (زينب) كلمة مركّبة من (زين) و(أب)، وهو أحد معاني اسم السيّدة زينب عليها السلام، كما احتمل ذلك الفيروزآبادي في كتابه (القاموس المحيط). أُنظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط: ج١، ص٨٠.
[٧] إنّ والدها أجلسها في حِجْره يوم كانت طفلة وبدأ يلاطفها، وقال لها: «بنيّة، قولي واحد، فقالت: واحد، قال: قولي اثنين، فسكتت، فقال لها: تكلّمي يا قرّة عيني، فقالت: يا أبتاه، ما أُطيق أن أقول: اثنين بلسان أجريته بالواحد. فضمّها إلى صدره، وقبّلها بين عينيها». الشاكري، حسين، العقيلة والفواطم: ص٢٩.
[٨] المصدر السابق: ص١٧٧.
[٩] أُنظر: لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤٣٥.

[١٠] البقرة: آية٢٦١.
[١١] النجم: آية ٢٨.
[١٢] اُنظر: مركز الأبحاث العقائدية، على الرابط: http: //www. aqaed. com/faq/٢١٨٣.
[١٣] عن إسحاق بن راهويه قال: «لما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور، وأراد أن يرحل منها إلى المأمون، اجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: يابن رسول الله، ترحل عنّا ولا تحدّثنا بحديث فنستفيده منك؟ وقد كان قعد في العمارية، فأطلع رأسه، وقال: سمعت أبي موسى بن جعفر، يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرئيل عليه السلام يقول: سمعت الله (عز وجل) يقول: لا إله إلّا الله حصني، فمَن دخل حصني أمن [من] عذابي. فلمّا مرّت الراحلة نادانا: بشروطها وأنا من شروطها». المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٩، ص١٢٣.
[١٤] في أخذ مسلم بن عقبة البيعة ليزيد من أهل المدينة «قال هشام: قال عوانة: وأتى يزيد بن وهب ابن زمعة، فقال: بايع. قال: أُبايعك على سنة عمر. قال: اقتلوه. قال: أنا أبايع. قال: لا والله، لا أُقيلك عثرتك. فكلّمه مروان بن الحكم لصهر كان بينهما، فأمر بمروان فوجئت عنقه، ثمّ قال: بايعوا على أنّكم خول ليزيد بن معاوية. ثمّ أمر به فقُتِل». الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٧٩.
[١٥] المقريزي، أحمد بن علي، النزاع والتخاصم: ص٥٨.
[١٦] غافر: آية٨٤.
[١٧] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٥٨.
[١٨] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٥.
[١٩] اُنظر: جمعية المعارف الإسلامية، دروس في أُصول العقيدة الإسلامية (مراتب التوحيد): ص٦٩ وما بعدها.
[٢٠] القزويني، محمد كاظم، زينب عليها السلام الكبرى من المهد إلى اللحد: ص٥٧٨ـ ٥٧٩.
[٢١] اُنظر: لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٢٩٩.
[٢٢] المصدر السابق: ص٣٢٤.
[٢٣] المصدر السابق: ص٣٣٠.
[٢٤] الفرقان: آية٤٣.
[٢٥] الفاتحة: آية٥.
[٢٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٦٠.
[٢٧] المصدر السابق: ص١٧٩.
[٢٨] الأعراف: آية١٢٨.
[٢٩] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٣٥.
[٣٠] لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤٩٣.

[٣١] المصدر السابق: ص٤٩٦.
[٣٢] الأحزاب: آية٣٩.
[٣٣] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٢٦.
[٣٤] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٢٧.
[٣٥] المصدر السابق.
[٣٦] المصدر السابق: ص٣٣٣.
[٣٧] المصدر السابق: ص٣٣٤.
[٣٨] السماوي، محمد بن طاهر، إبصار العين في أنصار الحسين: ص٢٢٧.
[٣٩] اُنظر: الأمين، محسن، لواعج الأشجان: ص١٦٥.
[٤٠] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١١٢.
[٤١] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٥.
[٤٢] المصدر السابق: ص١١٢.
[٤٣] المصدر السابق: ج٤٥، ص١١١.
[٤٤] آل عمران: آية١٧٨.
[٤٥] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٥٨.
[٤٦] المصدر السابق: ص١٣٤.
[٤٧] القمي، عباس، مفاتيح الجنان: ص٣٠٠ (دعاء عرفة).
[٤٨] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٥.
[٤٩] المصدر السابق: ص١١٦.
[٥٠] القزويني، محمد كاظم، زينب عليها السلام الكبرى من المهد إلى اللحد: ص٢٥٥.
[٥١] القمي، عباس، مفاتيح الجنان: ص٣٠٠ (دعاء عرفة).
[٥٢] اُنظر: اليزدي، محمد تقي مصباح، دروس في العقيدة الإسلامية: ج١، ص١٩٠،١٩١.
[٥٣] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٣٤.
[٥٤] الرحمن: آية٦٠.
[٥٥] اُنظر: القزويني، محمد كاظم، زينب عليها السلام الكبرى من المهد إلى اللحد: ص٤١٧.
[٥٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١١.
[٥٧] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٥٤.
[٥٨] البقرة: آية٢٨٦.
[٥٩] يونس: آية٥٤.
[٦٠] يس: آية٥٤.
[٦١] اُنظر: اليزدي، محمد تقي مصباح، دروس في العقيدة الإسلامية: ج١، ص١٩١.
[٦٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٣٣.
[٦٣] آل عمران: آية١٧٨.
[٦٤] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٥٨.
[٦٥] ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص١٠٧.
[٦٦] الروم: آية١.
[٦٧] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٧.
[٦٨] القزويني، محمد كاظم، زينب عليها السلام الكبرى من المهد إلى اللحد: ص٤٧٢.
[٦٩] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢،

ص٢٨.
[٧٠] الحديد: آية٢٢-٢٣.
[٧١] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٢٨.
[٧٢] قال القاضي عبد الجبّار في أبواب العدل والتوحيد من (المغني): «أظهر معاوية أنّ ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه، ويوهم أنّه مصيب فيه، وأنّ الله جعله إماماً وولّاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني أُميّة». نقلاً عن كتاب جهاد الإمام السجاد عليه السلام للسيد محمد رضا الجلالي: ص٨٩.
[٧٣] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٦.
[٧٤] الطويل، حسين، سموّ الموقف: ص٢١٩.
[٧٥] السيوري، الفاضل المقداد، النافع يوم الحشر: ص٨١.
[٧٦] الأنعام: آية٩١.
[٧٧] النجم: آية٤٣.
[٧٨] الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١، ص٣٧-٣٨.
[٧٩] الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج٣، ص٢٦١.
[٨٠] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٧٣.
[٨١] لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين: ص٤٣٤.
[٨٢] المصدر السابق: ص٤٥٨.
[٨٣] المصدر السابق: ص٦١٤.
[٨٤] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٥.
[٨٥] المصدر السابق: ص٢٧.
[٨٦] الشورى: آية٢٣.
[٨٧] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٤٨.
[٨٨] لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة شهادة المعصومين: ج٢، ص٣١٥.
[٨٩] اُنظر: الطويل، حسين، سموّ الموقف: ص١٨٤.
[٩٠] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٠.
[٩١] المصدر السابق: ص٨٨.
[٩٢] لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الحسين عليه السلام: ص٤٩٧-٤٩٨.
[٩٣] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١٢١.
[٩٤] اُنظر: اليزدي، محمد تقي مصباح، دروس في العقيدة الإسلامية: ج٢، ص٣٤٠.
[٩٥] اُنظر: المصدر السابق: ج٢، ص٣٤٠.
[٩٦] اُنظر: المصدر السابق: ج٢، ص٣٤٨.
[٩٧] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٢٧.
[٩٨] الطبري، محمد بن جرير، دلائل الإمامة: ص٤٣٦-٤٣٧.
[٩٩] الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع: ج١، ص١٢٣.
[١٠٠] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٠.
[١٠١] المصدر السابق: ص١١١.
[١٠٢] الأحزاب: آية٣٣.
[١٠٣] اُنظر: لجنة الحديث في معهد باقر

العلـوم عليه السلام، موسـوعة كلمـات الإمـام الحسين عليه السلام: ص٢٩٣.
[١٠٤] المصدر السابق: ص٥٨٥.
[١٠٥] الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ص٥٠١.
[١٠٦] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٩٣.
[١٠٧] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٠.
[١٠٨] ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج٤، ص١٧٢.
[١٠٩] لواعج الأشجان، السيّد محسن الأمين: ص٢٠٠-٢٠١.
[١١٠] اُنظر: القزويني، محمد كاظم، زينب عليها السلام الكبرى من المهد إلى اللحد. استُفيد من شرح خطبة السيّدة زينب عليها السلام في الكوفة.
[١١١] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٥٠.
[١١٢] المصدر السابق: ص٣٢٢.
[١١٣] اُنظر: المصدر السابق: ص٣٢٢. لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤١٩.
[١١٤] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٢٢٧. لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤٣٤.
[١١٥] النساء: آية٦٥.
[١١٦] الكهف: آية٥٠.
[١١٧] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٦-٣٧.
[١١٨] شمس الدين، محمد جعفر، دراسات في العقيدة الإسلامية: ص٢٢٥.
[١١٩] السيوري، الفاضل المقداد، النافع يوم الحشر: ص١١٩.
[١٢٠] خليفات، مروان، قراءة في مسار الأُموي: ص٣٠.
[١٢١] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٤.
[١٢٢] المصدر السابق: ص٣٦.
[١٢٣] آل عمران: آية١٦٩-١٧٠.
[١٢٤] المؤمنون: آية١٠٠.
[١٢٥] غافر: آية٤٦.
[١٢٦] النبأ: آية٤٠.
[١٢٧] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٥٩.
[١٢٨] الأمين، محسن، لواعج الأشجان: ص٢٠١.
[١٢٩] المصدر السابق: ص٢٠٣.
[١٣٠] آل عمران: آية١٦٩-١٧٠.
[١٣١] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٦.
[١٣٢] المصدر السابق.
[١٣٣] المصدر السابق.
[١٣٤] المصدر السابق: ص٣٧.
[١٣٥] النساء: آية١٠.
[١٣٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٢.
[١٣٧] روي عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) أنّه قال: لمّا اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وآله مرضه الذي مات فيه، وقد ضمّ الحسين عليه السلام إلى صدره يسيل من عرقه عليه، وهو يجود بنفسه ويقول: «ما لي

وليزيد لا بارك الله فيه، اللّهمّ العن يزيد. ثم غشي عليه طويلاً، وأفاق وجعل يقبّل الحسين، وعيناه تذرفان، ويقول: أما إنّ لي ولقاتلك مقاماً بين يدي الله (عز وجل)».

ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مثير الأحزان: ص١٢.

[١٣٨] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٣٦.

[١٣٩] طه: آية١٠٩.

[١٤٠] أُنظر: اليزدي، محمد تقي مصباح، دروس في العقيدة الإسلامية،: ج٢، ص١٧١.

[١٤١] الأنبياء: آية٢٨.

[١٤٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٨، ص٣٧.

[١٤٣] المصدر السابق: ج٤٤، ص٣٢٨.

[١٤٤] الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد: ص٤١١-٤١٢.

أ. د. جاسم يونس الحريري
باحث متخصص في الشؤون الدولية والاستراتيجية

توظيف زيارة الأربعين
قوة ناعمة تجاه دول مجلس التعاون الخليجي

أن التركيز على توظيف زيارة الأربعين كقوة ناعمة لانها تحمل مضامين عديد ة منها سياسية، واجتماعية واسعة النطاق، بحيث أصبحت رسالة متنقلة عبر الأجيال في مواجهة الظلم والطغيان، ويعتبر الخليجيون الزيارة والمسيرة إلى ضريح الإمام الحسين عليه السلام منظومة روحية متكاملة بعيدة عن التحزب السياسي، وترفع منها كل الألقاب، والناس تكون سواسية تحت عنوان زائر. ووصل البحث إلى عدة استنتاجات لتكون الزيارة الأربعينية قوة ناعمة تجاه دول الخليج من خلال جعل هذه الشعيرة تلفت نظر الخليجيين وانظمتهم للقيمة الإنسانية والحضارية لها.

تعتبر زيارة الأربعين شعيرة مقدسة لدى الشيعة عموما وشيعة الخليج خصوصا، أذ يتوجه سنويا إلى مدينة كربلاء المقدسة الآلاف لا بل ملايين الزائرين من مختلف دول العالم العربي، والإسلامي، ومن الدول الأوربية، والغربية، والولايات المتحدة

الأمريكية، لزيارة ضريح الإمام الحسين عليه السلام بن علي عليه السلام والمشاركة بواجب العزاء بهذا المصاب الجلل بمواكب ضخمة.

وتعتبر هذه الزيارة واجب ديني وأخلاقي بالرغم من الضغوطات الحكومية الخليجية لمنع سفر مئات من شيعة الخليج إلى الأضرحة المقدسة بسبب الموقف الحكومي الخليجي المشحون، وتصاعد التوتر المذهبي السني –الشيعي في منطقة الخليج العربي وخاصة خلال العقود الماضية. ومن الأمثلة على تلك الضغوطات من الماضي القريب المضايقات الحكومية في مملكة البحرين على سبيل المثال لا الحصر من خلال منع السفر إلى العراق للمشاركة في الزيارة الأربعينية بسبب عدم الحصول على أذن مسبق للسفر إلى العراق والجهات المعنية عام٢٠٢٢م وتحت هذه الذريعة منع سفر سماحة السيد «مجيد المشعل» رئيس المجلس الإسلامي العلمائي وهو شخصية لها وزنها في الشارع البحريني بمغادرة البحرين متوجها إلى العراق لأداء زيارة الأربعين. ويمكن أن تكون زيارة الأربعين عامل من عوامل القوة الناعمة من خلال جعلها عامل جذب للأنظمة الخليجية نفسها خاصة بعد التطبيع السعودي – الإيراني في بكين في ١٠ أذار / مارس٢٠٢٣ وجعل تلك الأنظمة عامل دعم لتسهيل زيارة الخليجيين إلى العراق لحضور مراسيم الزيارة الأربعينية. ويساهم الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب والمنشورات التي تظهر الحالات الاستثنائية التي برزت في الحالات السابقة من كرامات أهل البيت وشفاء البعض من الزائرين الذين جاءوا من دون سابق إنذار وسيكونون حريصين على المشاركة كل عام في الزيارة الأربعينية باعتبارها عاملا مهما في ترغيب أبناء الشعب الخليجي وحتى من أبناء الطائفة الأخرى إلى زيارة العتبات المقدسة

باعتبار هذه الزيارة لا تقتصر على الشيعة فحسب بل أنها وسيلة للخشوع واستذكار التضحية، والإيثار للثورة الحسينية وخاصة في الدول الخليجية التي يتصاعد بها التيار السلفي (الوهابي) والاخواني المشوّه للزيارة وأبعادها الإنسانية والحضارية التي تتلاقى العادات وتتوحد الإرادات لخدمة مبادئ الثورة الحسينية التي تدعم الحرية ورفض العبودية وكل هذه المفاهيم تظهر في حيثيات الزيارة فعند قدوم المواطن الخليجي لأول مرة سيرى إرادة شعبية غير حكومية لاستذكار هذه الزيارة والكل مشغول بخدمة الزوار بعيدا عن الجنس أو التمييز الطائفي، وتفعيل العمل التطوعي، والتكافل الاجتماعي، وهذه ابرز وسيلة لجعل زيارة الأربعين قوة ناعمة في الخليج.

أهمية البحث: -

أن التركيز على توظيف زيارة الأربعين كقوة ناعمة لأنها تحمل مضامين عديد ة منها سياسية، واجتماعية واسعة النطاق، بحيث أصبحت رسالة متنقلة عبر الأجيال في مواجهة الظلم والطغيان، ويعتبر الخليجيون الزيارة والمسيرة إلى ضريح الإمام الحسين عليه السلام منظومة روحية متكاملة بعيدة عن التحزب السياسي، وترفع منها كل الألقاب، والناس تكون سواسية تحت عنوان زائر.

إشكالية البحث: -

بعد التطبيع السعودي- الإيراني أنخفض نوعا ما التجاذب الطائفي في المنطقة بعد أن كانت زيارة الأربعين تشكل ثقلا على الزائر الخليجي بسبب مضايقات الأنظمة الخليجية لكن بعد التطبيع يطرح التساؤل الاتي: - كيف يمكن أن يستثمر العراق الزيارة الأربعينية كقوة ناعمة لجعل الأنظمة الخليجية عامل مساند لها وليس معرقل لها؟.

فرضية البحث: -

بني هذا البحث على فرضية مؤداها «أمكانية جعل زيارة الأربعين وتوظيفها كقوة ناعمة من خلال جعلها عامل ترابط بين العراق ودول مجلس التعاون الخليجي عبر منظومة الثقافة والقيم الحسينية كعامل حب ووحدة في القيم الإنسانية لآل البيت عليهم السلام».

منهجية البحث: -

يستخدم هذا البحث منهج «التحليل النظمي الوصفي» لتحليل نظرة الخليجيين إلى الزيارة الأربعينية، والوسائل الممكنة لجعلها قوة ناعمة تجاه دول مجلس التعاون الخليجي.

أسئلة البحث: -

يحاول هذا البحث أن يجيب من خلال أقسامه الثالثة عن الأسئلة التالية: -

١. ما هي نظرة الخليجيين إلى زيارة الأربعين؟

٢. ما هي حجم مشاركة الخليجيين في الزيارة الأربعينية؟

٣. ما هي الوسائل العملية والموضوعية لجعل زيارة الأربعين قوة ناعمة؟.

كلمات مفتاحية للبحث: -

زيارة، الأربعين، قوة، ناعمة، دول، مجلس، التعاون، الخليجي.

هيكلية البحث: -

ينقسم البحث إلى ثلاثة أقسام وهي كما يأتي: -

١. نظرة الخليجيين إلى زيارة الأربعين.

٢. حجم المشاركة الخليجية في زيارة الأربعين.

٣. الوسائل العملية والموضوعية لجعل زيارة الأربعين قوة ناعمة

١. نظـــرة الخليجيـــين إلى زيـــارة الأربعين

يشارك المسلمون الشيعة في الخليج كل عام بمناسبة ذكـرى «عاشـوراء»، عبر فعاليات منبريـة تقـام في المسـاجد والحسـينيات، وتشـهد إقامـة مئـات المجـالس التـي تحمـل صـفة الـوعظ الديني واستذكار واقعة كـربلاء التـي تتمتع بأهمية للمسلمين الشيعة امتدادا إلى الزيـــارة الأربعينيـــة، وخـــلال السنوات ٢٠٢١-٢٠٢٠ كانـت دول مجلـس التعـاون الخليجـي تشـارك بمواكـب في مدينـة كـربلاء المقدسـة لتضيف تأكيدا جديدا بأن شـيعة أهـل البيت في الخليج مخلصين لهذه الزيـارة خاصة بعد انتهاء أزمة وباء كوفيـد١٩ «كورونا» حيث تسبق الزيارة فعاليات كثيرة، ومتعددة في دولهم خلال شـهر محرم الحرام وكما يأتي: -

١. الكويت:

تشهد الحسينيات ومجـالس العـزاء في الكويت حضورًا كثيفًا مع انحسـار جائحة كورونـا٢٠٢١-٢٠٢٠ التـي فرضت وضعًا احترازيًـا هنـاك أسـوة ببقية دول الخلـيج والعـالم. وشـهدت أماكن إقامة العزاء حضورًا واسـعًا في شـهر المحـرم بـذروة الصـيف شـديد الحـرارة. وعـادة مـا تشـهد المجـالس إقامة محـاضرات دينيـة تليهـا قصـائد الرثاء والعزاء.

وقبـل مراسـم أربعينيـة الإمـام الحسين عليه السلام لعام، ٢٠٢١ قررت دولـة الكويت، في شـهر سـبتمبر مـن نفـس العـام، تسـيير رحـلات جويـة ذهابًـا وايابًا لنقـل المـواطنين المحصـنين مـن الكويـت إلى العـراق بـشرط إحضـار فحـص PCR سـلبي لا يزيـد عـن٧٢ ساعة من موعد رحلة العودة وتطبيـق الحجر المؤسسي داخـل الـبلاد لمـدة ٧ أيام، وحجر منزلي لمدة ٧ أيام أخـرى. وأثار القرار استياء المواطنين الكويتيين الشـيعة الـذين مـن المفـترض أنهـم سينطلقون إلى كـربلاء لإحيـاء زيـارة

أربعينية الإمام الحسين عليه السلام، وقال بيان نشر على مواقع التواصل الاجتماعي، مفاده «إن المواطنون يرفضون التمييز الحكومي للشعب الكويتي في إلزامهم الحجر المؤسسي عند ذهابهم زيارة الأربعين في العراق بالرغم من عدم تطبقيه للقادمين من الهند ومصر وأمريكا والذي يعتبر الوضع الوبائي أشد وأكبر مع العلم انه لم يتم تطبيق الحجر المؤسسي للقادمين من الزيارة الأربعينية عام ٢٠٢٠ بالرغم من عدم اكتشاف اللقاح والتطعيم وتم اقتصار الإجراء على الحجر المنزلي»، مؤكدين أن «الكويتيين خط أحمر».

٢. البحرين:

قامت «شرطة خدمة المجتمع» خلال أيام المحرم على تقديم التسهيلات

اللازمة وتوفير الخدمات ذات الصلة من أجل إنجاح موسم عاشوراء وتعزيز السلامة العامة، حيث تبذل جهودها لتأمين الموسم من خلال توفير الخدمات الأمنية والمجتمعية للمعزين ومرتادي مناطق العزاء، والقيام بحملات توعوية من أجل سلامة الجميع. «إن هذه الجهود تأتي في إطار تعزيز الشراكة المجتمعية، وانطلاقا من الحرص على توفير أجواء آمنة في موسم عاشوراء».

ورأى الجميع، أن نظام الحكم في البحرين ليس ملتزما وحريصا فقط على ضمان ممارسة الشيعة لشعائرهم الدينية، بل حريص أيضا على حماية هذه المناسبة بالذات ورعايتها، وقد تميز وانفرد دون غيره من الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية كافة ودول الخليج، ومنذ عقود طويلة أيضا بـ «تخصيص يومي التاسع والعاشر من محرم عطلة رسمية للجميع»، ما يسهل ويمكن الراغبين في تأدية هذه الشعائر من المشاركة في طقوس وفعاليات المناسبة، وبما يرمز إلى تفهم الدولة وتعاطفها، وإلى

مواساة أطياف المجتمع الأخرى لأشقائهم الشيعة، هادفة في الوقت نفسه إلى التأكيد على أرض الواقع أن الإمام الحسين عليه السلام هو إمام كل المسلمين شيعتهم وسنتهم، وأن قضيته تهم وتؤلم كل المسلمين سنتهم وشيعتهم. وتحرص البحرين كذلك على توفير الظروف والأجواء المناسبة، وَتستنفر أجهزتها الأمنية والتنظيمية لتوفير الحماية الأمنية والإجراءات التنظيمية اللازمة، وتنظيم حركة المرور وإغلاق الشوارع والمنافذ التي تعبرها مواكب العزاء.

وفي هذه المناسبة تجند الدولة أيضا إمكانياتها ومرافقها المعنية كافة، مثل الخدمات البلدية، والتنظيف، والعناية الصحية، والتأكد من استعداد وجاهزية المستشفيات، والعيادات، وخدمات الطوارئ الطبية، وضمان توفر المواد، والأجهزة المطلوبة. وفي إطار التزامها بقيم التعايش والتسامح واحترام حقوق مختلف الأطياف بممارسة شعائرهم ومعتقداتهم الدينية، فقد تمسكت الدولة بهذه السياسة رغم ما يكتنفها من محاذير وتبعات نتيجة لما تشهده المنطقة من تشنج واستقطاب طائفي منذ نهاية عقد السبعينات من القرن الماضي، بحيث كان وال يزال الشيعة في الخليج وغيره من المناطق، يغبطون شيعة البحرين على ما يتمتعون به من حرية تأدية طقوسهم الدينية، «حتى أن البعض أطلق على البحرين كربلاء الخليج» ويعتبرها وجهة مفضلة بعد كربلاء والنجف الأشرف بالعراق لممارسة وتأدية شعائر عاشوراء والتمتع بالحرية الدينية التي توفرها الدولة؛ فكان وال يزال يتقاطر على البحرين المئات منهم في كل موسم من مواسم عاشوراء من مختلف دول الخليج، وكان «موكب الإحسائيين» على سبيل المثال من أكبر مواكب العزاء خلال فترة المواكب الحسينية التي كانت وال تزال تقام وتنظم في

قلب العاصمة وخارجها، وكذلك الحال بالنسبة لمواكب الشيعة من جاليات شبه القارة الهندية المقيمين في البحرين. عاشوراء البحرين بال شك يختلف عن بقية الدول بالمنطقة لتنوع المجتمع البحريني، ففي شهر محرم الحرام وذكرى عاشوراء حيث الشعائر الدينية المختلفة، حيث يقيمون الحداد على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام الذي أستشهد على أيدي الفئة الباغية، لذا هذه الأيام لها مكانة خاصة لدى المسلمين بالعالم، سنة وشيعة، ومن يتأمل ذكرى عاشوراء بالبحرين فوزارات الدولة ومؤسساتها كانت حاضرة وبقوة حيث سخرت كل طاقاتها وإمكاناتها حيث يمكن رؤية رجال الشرطة وخدمة المجتمع – رغم حرارة الجو والرطوبة – وهم يسهلون حركة المعزين حفاظًا على سالمتهم. ما يلفت النظر رجال الشرطة والصحة والبلديات، فجميعهم في مواقعهم ولساعات طويلة، رجال الشرطة لحفظ الأمن، والصحة لتقديم الخدمات الصحية، والبلديات للمحافظة على نظافة الشوارع والطرقات، لقد كان مشهَدا حضارًيا كبيرًا لفت انتباه الأصدقاء الأوروبيين حينما علموا بأن كل ذلك خدمات مجانية تقدمها الدولة لشعبها بخلاف ما يجري في الدول الغربية حين تفرض عليهم رسوم وضرائب وتلزمهم بتنظيف الشوارع والطرقات! الشعائر الدينية في عاشوراء أو غيرها من المناسبات هي تأكيد على مساحة الحرية التي يمارسها الفرد وفق النظام والقانون، وهو ما نص عليه دستور البحرين في المادة (٢٢): «حرية الضمير مطلقة، وتكفل الدولة حرمة دُور العبادة، وحرية القيام بشعائر الأديان والمواكب والاجتماعات الدينية طبقا للعادات المرعية في البلد»، ويمكن رؤية شوارع المنامة أثناء مرور المواكب الحسينية،

فهناك من يحمل الإعلام، ومن يردد الشيلات، ومن يضرب على الصدر والظهر، ومن يقدم الطعام والشراب وغيرها. وفي موسم عاشوراء لعام٢٠٢٢ ومع اقتراب الزيارة الأربعينية واستعداد آلاف المواطنين الشيعة من البحرين للتوجّه إلى زيارة العتبات المقّدسة في العراق، أقدمت «إدارة شؤون الجنسّية والجوازات والإقامة» التابعة لـ «وزارة الداخلّية» في البحرين على فرض «استمارة طلب تصريح سفر». وأظهر الرابط الإلكتروني للاستمارة اشتراط الوزارة تحديد المواطنين لوجهة السّفر وأسبابه، في حين أثار المواطنون هواجس من تعّمدها إصدار هذا القرار المفاجئ في هذا التوقيت، مع اقتراب موسم زيارة الأربعين وتوجّه آلاف المواطنين البحرينّيين إلى مدينة النجف الأشرف وكربلاء المقدسة في العراق، ألداء الّشعائر الدينّية من كّل عام، ضمن ماليين الزّوار الّشيعة في هذا الموسم السنوّي. ورأى مركز البحرين لحقوق الإنسان عبر حسابه على موقع تويتر، «أّن هذا الإجراء يقّيد الحرّيات الفردّية والجماعّية في البلاد، كما يجب التراجع عنه ألّنه تمييزّي بشكٍل خاص ضّد المواطنين الّشيعة».

٣. السعودية:

تعتبر عاشوراء أكبر فعالية دينية في البلاد حيث يشارك بها ما يزيد على مليون مواطن شيعي في جميع مناطق المملكة بما فيها العاصمة الرياض، والمدينة المنورة، التي يسكن فيها عشرات الآلاف من المواطنين الشيعة ويقيمون مجالس عزاء في بيوتهم. وتشهد مناطق القطيف، والإحساء إغلاقا واسعا للمحلات التجارية، والتغيب عن العمل، وفصول الدراسة. وشهدت مدن وقرى الإحساء والقطيف والمدينة المنورة إقامة آلاف المجالس الحسينية لتبلغ

الذروة بإحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء عام ٦١ هـ.

وفي مدينة صفوى بمحافظة القطيف تقيم مهرجانا خطابيا وشعريا ومسرحيا وفنيا شارك فيه أبرز رجال الدين والشعراء وفناني المدينة. كما تشهد بلدة القديح إقامة أكبر العروض التمثيلية المفتوحة لواقعة كربلاء تقدم في ساحة مفتوحة عشرات الممثلين والخيالة بحضور آلاف المشاهدين. وتشهد مختلف مدن وقرى المنطقة خروج المواكب العزائية في الشوارع العامة رافعين الرايات الحمراء والسوداء التي تضمنت شعارات حسينية وعبارات للإمام الحسين عليه السلام. وتنتشر في شوارع وأزقة المدن والقرى في القطيف اللافتات العاشورائية التي حملت شعارات «هيهات منا الذلة» والحديث النبوي الشريف «حسين مني وأنا من حسين».

وتكتظ الساحة المركزية في قلب مدينة القطيف بآلاف المعزين من أبناء المنطقة والجاليات الأجنبية من الجنسيات الآسيوية وفي بلدة الأوجام التي اشتهرت بين مدن وقرى القطيف بإقامة «موكب الزنجيل» حيث يخرج مئات المعزين ويستمر الموكب حتى حلول المساء. ويخرج موكب التطبير في «تاروت» بمشاركة العشرات من المطبرين فيما تخرج للتطبير مجموعة أخرى من الشبان في «العوامية» سبقتهم مجموعة مشابهة مساءا في «صفوى». وفي «سيهات» اجتذب موكب الإمام الحسين عليه السلام على آلاف الزائرين من داخل وخارج المنطقة لحضور فعالياته الخطابية والفنية ومسيراته العزائية. وهناك جانب من حملات التبرع بالدم في أيام عاشوراء وفي المدن السعودية ذات الكثافة الشيعية الأقل أحيا آلاف المواطنين الشيعة يوم عاشوراء بإقامة المجالس الحسينية في المنازل والاستراحات.

وإلى جانب الفعاليات الحسينية شهدت مختلف مدن المنطقة إقامة المعارض الفنية العاشورائية وتنظيم زيارات الوفود الأهلية النسائية والرجالية من خارج المنطقة للاطلاع على فعاليات عاشوراء. وتعمل القوات الأمنية على توفير الأمن وتأمين المدن والقرى التي تجري فيها هذه الاحتفالات، والتي تستمر على مدى ١٣ يومًا. ويشعر المواطنون السعوديون الشيعة باطمئنان مع الجهود الواسعة التي تقوم بها الحكومة لمواجهة التطرف والسعي لتعزيز التسامح الديني، وكذلك جهود السلطات الأمنية في تأمين المناطق التي تشهد إقامة مناسبات العزاء. وينشط القائمون على المجالس في إقامة «مضائف» يجري خلالها توزيع الطعام، وهو عبارة عن وجبات من الأرز واللحم، مع معجنات وفواكه مع مشروبات ساخنة وعصائر للمشاركين في هذه المراسم. وهذه الحالة تكاد تختلف عن الماضي التي كانت الأوضاع متشنجة في البلاد مع دخول شهر محرم الحرام حيث لوحظ منذ الأيام الأولى لعاشوراء تمنع السلطات السعودية جميع المجالس والحسينيات في جدة من إحياء ذكرى عاشوراء. فضلا عن مهاجمة السلطات الأمنية في الإحساء بلدة الرميلة وعمدت لإزالة اللافتات العاشورائية واستدعت السلطات الأمنية في القطيف القائمين على حسينية المعاتيق في مدينة «تاروت» لغرض التحقق بشأن الازدحام المروري الذي نتج عن تكدس مئات السيارات لمتابعي محاضرات الشيخ «سعيد المعاتيق» - واجبر الآلاف من المواطنين الشيعة من أهالي مدينتي الدمام لحضور الفعاليات العاشورائية في مساجد وحسينيات الإحساء والقطيف في ضوء الحظر الرسمي على إقامة المجالس الحسينية في المدينتين-. في بلدة الخويلدية بمحافظة القطيف

خرجت مئات النساء في مسيرة عزائية حاشدة في أعقاب استدعاء السلطات للشيخ «جعفر الأمرد» بذريعة وقوفه خلف الأعداد للمسيرة قبل أن يتبين زيف هذا الإدعاء. وفي غضون هذه التطورات انتقد الشيخ «فوزي السيف» إثارة التشكيك في الولاء الوطني للمواطنين الشيعة بين الحين والآخر والذي بات يستخدم «فزّاعة» غرضها تبرير الممارسات والتمييز الطائفي بحقهم وإسكات مطالبهم بالمساواة في بلدانهم. واستنكر السيف في محاضرته العاشورائية بحسينية العوامي في مدينة القطيف «التشكيك في ولاء الشيعة بذريعة ارتباطهم بمرجعيات دينية موجودة خارج بلدانهم». موضحا بـ «أن أتباع أوسع الأديان والمذاهب انتشارا في العالم يرتبطون بمرجعيات خارج بلدانهم دون أن يتعارض ذلك مع ولائهم الوطني. ضاربا على ذلك مثال بعالقة المسيحيين الكاثوليك حول العالم بالفاتيكان، وعالقة المالكية والشوافع بالأزهر الشريف، والأحناف بتركيا، وارتباط السلفيين الحنابلة في البلاد الأخرى بعلماء السعودية».

٤. دولة الامارات العربية المتحدة: -

تقام مراسم العزاء في مختلف مدن الإمارات العربية المتحدة تخليدًا لذكرى تضحيات سيد الشهداء عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، تخللها إلقاء الخطب والمراثي الحسينية. ففي مدينة دبي وغيرها يجتمع مئات الآلاف من محبي أهل البيت عليهم السلام في الحسينيات الموجودة في هذه المدينة يخلدون فيها ذكرى الملاحم التي سطرها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه في اليوم العاشر من المحرم عام ٦١ هـ. يعاني الشيعة الموالون في دولة الإمارات العربية المتحدة الوهابية والباغظين لشيعة الإمام علي عليه السلام من مضايقات وتسفيرات للوافدين من

غير دول كالعراق ولبنان وباكستان وإيران وأيضا الإماراتيين الذي قد سحب منهم الجواز الإماراتي وتحويلهم لدول أخرى كجزر القمر حيث أن المجالس الحسينية التي كان يحضرها مئات الأشخاص يحضرها الآن خمسة أشخاص فقط خصوصا في مدينة العين التي تعاني من مضايقات من بناء وتشييد بناء هذا الصرح العلوي الكبير مسجد الإمام علي عليه السلام.

٥. دولة قطر: -

شيعة قطر كما هو الحال في سائر البلدان يقومون بإحياء المناسبات الإسلامية المتعلقة بالرسول وأهل بيته الطاهرين في الحسينيات العديدة والمنتشرة في قطر، حيث يجتمعون لإقامة الاحتفالات الدينية امتثالا لأمر الإمام الصادق عليه السلام: أحيوا أمرنا رحم هللا من أحيا أمرنا)، وتكتظ الحسينيات في مثل تلك المناسبات بالحضور الغفير لشيعة قطر.

للشيعة مآتم وحسينيات، يقيمون فيها العزاء على سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام، وتفتح أبوابها طيلة شهر محرم وصفر ورمضان، وأيام وفيات الأئمة، ومواليدهم ومن الملاحظ، أنه لا توجد أيام عاشوراء أي مظاهر للعزاء، كمواكب اللطم أو الضرب بالسلاسل أو التطبير، كما في الدول المجاورة، وإنما تسير الأمور اعتيادية كأي محاضرة دينية، أما في مآتم النساء، فهناك بعض التشابيه، مثل قبة العباس وخيمة القاسم. وخلال عام ٢٠٢٠ وانتشار وباء كوفيد١٩ أمر أمير قطر «الشيخ تميم بن حمد» الحكومة القطرية أن تفتح جميع الحسينيات الواقعة بالعاصمة القطرية الدوحة وبالتحديد في شرق الدوحة بحي البحارنة وامر كذلك ان تفتح جميع الحسينيات طيلة موسم عاشوراء العشرة أيام من المحرم مع وضع الاحترازات الوقائية والتباعد الاجتماعي وال يوجد أي تحديد لوقت فتح الحسينية ويحق

للطائفة الشيعية بقطر أن تقيم المجلس الحسين عليه السلام مع مجلس اللطم بما يتناسب مع كل ليلة بشرط لبس الكمامات ووجود مواد التعقيم.

وتبرع الشيخ تميم بمبالغ مالية للتكفل بمجلس القراءة واللطم كامال من جميع ما تحتاجه الحسينيات ويحق لكل حسينية فتح مضيف لتقديم الطعام للمستمعين مع شروط الاحترازات الوقائية والتباعد الاجتماعي.

٦. سلطنة عمان:

لم يتخَّل أهل عُمان يومًا عن نصرة إمامهم سيد الشهداء عليه السلام وإحياء شعائره المقدسة، بهذه الكلمات تحّدث جمُّع من المؤمنين من شيعة أهل البيت عليهم السلام في سلطنة عُمان، عن أجواء إحياء ذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام.

وقَال العمانيون في أحاديث متفرقة، «إّن أجواء الحزن والعزاء انتشرت في الشوارع والإحياء السكنية وحتى القرى البعيدة، إيذانًا بقدوم شهري الأحزان المحّمدية». وأضافوا بأّن «أهالي السلطنة يستحضروَن الثورة الحسينية الخالدة فكرًا ويتعّلمون منها الدروس والِعبر في التضحية من أجل الدين والوطن».

ويقيم العمانيون عدة فعاليات في عاشوراء من «إقامة مجالس العزاء ومواكب اللطم والمحاضرات الدينية والمسيرات الراجلة، فضلًا عن طبخ الطعام وتوزيعه باسم سيد الشهداء عليه السلام».

ويرون أن «مثل هذه المصيبة الرازية أقرحت جفون آل البيت عليهم السلام فبالتأكيد هي عظيمة ومؤلمة لمحبيهم وشيعتهم، وخصوصًا ما حّل بالامام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام من الظلم العظيم».

كما لفتوا أيضًا إلى أن «العمانيين يستعدون في الوقت ذاته للمشاركة

الفاعلة بإحياء الزيارة الأربعينية في مدينة كربلاء المقدسة وتلبية نداء نصرة الحسين الشهيد عليه السلام».

يقول أحد العمانيين المشاركين في الزيارة الأربعينية «العالم وهو يحتفي هذه الأيام بأربعينية الامام الحسين عليه السلام بن علي بن أبي طالب، ليشاهد تلك المسيرة المليونية وهي تزحف نحو مشهده في كربلاء، من كل أصقاع العالم، متوجهة نحو ضريحه تُسلم عليه، وتستنشق من تراب كربلاء روح العزة والكرامة، والتي قُتل الحسين عليه السلام لأجلها.

مجرد وجود الزائر في أرض -أيًّا كانت الأرض- شهدت ملحمة تاريخية، أو ضمت جسد عظيم من عظماء التاريخ، كفيل بأن يأخذ ذهنه ليستلهم من تلك الذكرى ما يبعث في نفسه الحماس والطاقة، وما يفيده لحاضره. وجود المسلم على أرض كربلاء، في يوم العاشر من مُحرم، وفي يوم أربعينية الحسين عليه السلام في العشرين من صفر، ما هو الا امتداد لذكريات تلك المسيرة التاريخية التي قدم خلالها العظماء أرواحهم، وضحوا بكل أسرهم وما ملكوه، كي تعيش البشرية بكرامتها، وبعزتها، وكي تستطيع إعمار الأرض كما أراد لها الله، لا كما أراد الطغاة من البشر، حيث الاستغلال والظلم والفقر والجهل والذلة والاستعباد.

ويضيف «إنَّ الزيارة الأربعينية تتجدد كل عام بصور خالبة من الكرم والسخاء، وبكثير من الحب لكل ما يمت للحسين عليه السلام بصلة، وأعداد مليونية هائلة، وهذا كله يفرض على الفعاليات الثقافية والدينية مسؤولية استثمارها بأفضل الأشكال، وأحسن السبل، لتصب في إعمار الأرض، وفي حب الإنسان، وفي رقي المجتمعات، وفي إنشاء أجيال ترى في الحسين عليه السلام تضحيته وفداءه لغيره، وترى في تلك التضحية إحياءً للحياة نفسها».

٢. حجم المشاركة الخليجية في زيارة الأربعين

في كل عام تتزايد الأعداد المليونية في الزيارة الأربعينية من كل أصقاع العالم، ونظر التكرار هذه الحالة دأبت العتبات المقدسة على رصد، وتوثيق، أعداد الزائرين القادمين إلى مدينة كربلاء المقدسة بمنظومة العد الالكتروني من قبل شعبة الاتصالات في العتبة العباسية المقدسة وللعام السابع على التوالي والتوثيق التحليلي الإحصائي لباقي الخدمات في مدينة كربلاء المقدسة من قبل «مركز الكفيل للمعلومات والدراسات الإحصائية» حيث بلغ أعداد الزائرين لعام٢٠٢٢ واحد وعشرين مليونا ومائة وثمانية وتسعين الفا وستمائة وأربعين زائرا. ٢١، ١٩٨، ٦٤٠.

٣. الوسائل العملية والموضوعية لجعل زيارة الأربعين قوة ناعمة

يمكن اللجوء إلى عدة وسائل لتوظيفها لجعل زيارة الأربعين قوة ناعمة وكما يأتي: -

١. تعميق قوة الفعل الاجتماعي العراقي في الزيارة الأربعينية: -

لاحظ الزوار الخليجين في الأعوام السابقة في الزيارة الأربعينية مدى حب الشعب العراقي بجميع ألوانه وطوائفه وحتى بجميع أعراقه حبه لأهل البيت عليهم السلام ومن ضمنهم الإمام الحسين عليه السلام وقد ترجم هذا الحب بمشاركة شرائح المجتمع المختلفة بخدمة الزوار ومن ضمنهم الزوار الخليجيين باعتباره الحاضنة المجتمعية للزيارة وهذا الأمر حرك الشعب الخليجي إلى المشاركة هم أيضا بمواكب العزاء باسمهم ويمكن أن يتأثر الغير من المجتمع الخليجي بهؤلاء وتزداد المواكب الخليجية سنويا.

٢. تشجيع الخليجيين أن يكونوا سفراء للحسين في بلدانهم وتجاوز

المضايقات الحكومية: -

بين فترة وأخرى تحاول الحكومات الخليجية أن تزيل، أو تتحكم بقدسية، وأفعال المواطنين الخليجيين المشاركين في الزيارة الأربعينية ولكن كانت النتيجة فشلا ذريعا إذ أن الحدث له هدف فريد يعبر عن إرادة المواطن الخليجي الذي يبحث عن حياة عادلة ومتحررة من العبودية والظلم وكل تجارب التاريخ تخبرنا أن كل ألوان البؤس الإنساني هو مصدره الحكام والحكومات لكن الثبات على مبادئ الإمام الحسين عليه السلام في الحرية ورفض الظلم والهيمنة من الحاكم سوف تؤثر في المحاولات الحكومية الخليجية في التلاعب بقناعات الزائرين الخليجيين بل فشلت فشال ذريعا عبر استخدام وسائل الترغيب والترهيب في ثنيهم عن المشاركة في الزيارة الأربعينية كل عام لان إرادة الزائرين الخليجيين فرضت نفسها وعليه كان الأجدر من الحكومات الخليجية أن تتقرب من الزائرين الخليجيين الداء مراسيم الزيارة الأربعينية لتتعرف على طبيعة مشاكلهم ورغباتهم وطموحاتهم لتقدم الدعم لهم الن الأمر يتعلق بارتباطهم الروحي والعقائدي مع مبادئ الإمام الحسين عليه السلام لأنه القائد الوحيد والفريد في الميدان برمزيته ومبادئه وليس هم.

٣. تقديم الدعم للزوار الخليجيين لتعميق طقوس زيارة الأربعين: -

تحاول الحكومات الخليجية وبعض الأصوات المتطرفة في دول مجلس التعاون الخليجي التقليل وتسفيه طقوس الزيارة الأربعينية ويحاولون اتهام هذا الطرف أو ذاك بالتطرف لدعمه لها وإشاعة تلك الطقوس غير مقبولة من وجهة نظرهم لكن فشلوا فشلا ذريعا في إيقافها نهائيا مهما كان الطرف المتصدي لها سواء بقوة وزنه الديني والحكومي في دول مجلس التعاون الخليجي والسبب في ذلك انه

لا توجد طقوس محددة تحكم الزيارة فمعظم طقوس الزيارة تكون انعكاسا لثقافات الأمم، والشعوب المختلفة وطالما أن الجميع يريد التعبير عن حبه للحسين عليه السلام والحب عاطفة إنسانية غير ثابتة الشكل إذن لا تستطيع أي جهة في دول الخليج أن تفرض على مواطنيهم طريقة تعبيرهم عن حبهم لمن يرون فيه أنموذجا للثورة والتمرد على الظلم بجميع أشكاله هذا التنوع في الطقوس جعل المشارك في الحدث أسير اللوحة الخالبة من التعبير الإنساني عن الحب ما يميزها أنها ليست لوحة موضوعة على جدار إنما هي لوحة حية ترسمها وجوه مختلفة الأعمار والثقافات والمقامات الاجتماعية فيخذوا بوعي أو الوعي جزء من هذه اللوحة المتحركة وجزء من عناصر تكوينها وعليه تقديم الدعم للمواكب الحسينية الخليجية في أداء طقوس الزيارة مهم جدا.

٤. توفير الحماية الأمنية العراقية لطرق مرور الزوار الخليجيين في الزيارة الأربعينية: -

على الرغم من التطور التكنولوجي الهائل في وسائل النقل الحديثة يصر الزوار الخليجيين القادمين الداء الزيارة الأربعينية المتعلقين بحب الحسين عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام من بعض دول مجلس التعاون الخليجي كالكويت، والمملكة العربية السعودية لقرب الحدود العراقية حيث أنهم يصرون على مختلف ثقافاتهم، وتوزيعهم الجغرافي هناك على القيام بها من خلال المشي سيرا على الأقدام من مناطق سكناهم، أو من لحظة نزولهم في المطارات العراقية وصولا إلى كربلاء المقدسة استنادا إلى روايات دينية عدة تحبذ هكذا عمل وبصرف النظر عن قوة سند هذه الروايات إلا أن من الواضح قوة تأثيرها في عقول وقلوب المؤمنين بها من المواطنين الخليجيين حيث يشكل هذا الحدث بطريقة أدائه فرصة عظيمة لثقافات

ولغات عدة للتلاقي والتعارف فيما بينهم على ارض العراق والاختلاط بأهله على طول مسالك مرور الناس مما يعطي للعراقيين فرصة عظيمة الظهار قوتهم القيمية والثقافية ومحورية دورهم في هكذا حدث مقدس لن تجد له مثيلا بعمقه في أي مكان آخر مما يحتم توفير حماية أمنية كافية لحماية الزائرين ليحكى بها إلى الآخرين ورسم صورة مثالية للأمن والأمان في العراق لكل من يريد المشاركة في الزيارة الأربعينية للسنوات القادمة.

الخاتمة والاستنتاجات: -

بعد الانتهاء من أعداد هذه الدراسة تم التوصل إلى الاستنتاجات التالية: -

١. تعتبر زيارة الأربعين حدثا مهما لكل المسلمين في العالم شيعة وسنة، وتشغل اهتمام مواطني دول مجلس التعاون الخليجي لأنها عهد أنساني، لتجديد البيعة والولاء لسيد الأحرار الإمام الحسين عليه السلام.

٢. يحرض المواطنين الخليجيين وخاصة من دولة الكويت والمملكة العربية السعودية لقرب الحدود مع العراق على السير على الأقدام من منازلهم أو من خروجهم من المطارات العراقية إلى العتبة الحسينية المقدسة.

٣. يساهم المواطنين الخليجيين بالمواكب الحسينية لخدمة الزوار وطبخ الطعام والمشاركة في كل طقوس الزيارة حيث تزداد أعدادهم سنة بعد أخرى.

٤. يتعرض الزوار الخليجيين إلى مضايقات حكومية أثناء بدء رحلتهم للسفر إلى العراق للمشاركة في الزيارة الأربعينية، حيث تغيرت أساليب المضايقات وتغليفها بأسباب صحية أثناء وبعد انتشار وباء كوفيد١٩ (كورونا) أو السباب سياسية، وإجبار الزائرين إلى ملء استمارة ما تسمى

(تصريح سفر) كنوع من الإزعاج لهم وخاصة الذين يرغبون السفر إلى العراق للمشاركة في الزيارة الأربعينية.

٥. وجود أصوات خليجية دينية متطرفة داخل دول مجلس التعاون الخليجي تعمل على تشويه صورة الزيارة الأربعينية وتضليل الجمهور بمعلومات مزيفة لكن إرادة المواطن الخليجي الموالي الآل البيت عليهم السلام ومبادئ الثورة الحسينية المتجددة لا تنطلي عليها تلك المحاولات البائسة لأنها تولد وهي ميتة لأنه يعشق الثورة الحسينية والعشق يغلب على الحقد والضغينة.

٦. هناك زيادة مضطردة ونوعية في أعداد الزائرين الخليجيين الذين يرغبون المشاركة بالزيارة الأربعينية.

٧. يمكن أن تكون الزيارة الأربعينية قوة ناعمة من خلال عدة مدخلات لعل من أبرزها تعميق قوة الفعل الاجتماعي العراقي في الزيارة الأربعينية، وتشجيع الخليجيين أن يكونوا سفراء للحسين في بلدانهم وتجاوز المضايقات الحكومية وتقديم الدعم للزوار الخليجيين لتعميق طقوس زيارة الأربعين، وتوفير الحماية الأمنية العراقية لطرق مرور الزوار الخليجيين في الزيارة الأربعينية.

الهوامش

[١] الشرق الأوسط، السعودية، دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر، ورد على الموقع الشيعة في الخليج يحتفلون بعاشوراء وسط أجواء أمنة (٧ أغسطس ٢٠٢٢)، صحيفة التالي: - https: //aawsat. com/home/article /٣٨٠٣٥٥٦

[٢] كذلك أنظر: - عمر، فاتن (١٧ سبتمبر ٢٠٢١)، بعد فرض حجر مؤسسي على زوار العراق: نواب ومواطنون كويتيون يحتجون على القرارات الحكومية التعسفية بحق زوار الأربعين ويغردون: لا للتمييز، والكويتيين خط أحمر، صحيفة رأي اليوم اللندنية، ورد على الموقع التالي: - https: //www. raialyoum. com/

[٣] الشعلة، عبد النبي (١٠ أغسطس ٢٠٢٢)،

ذكرى عاشوراء والحكومة الجديدة، صحيفة البلاد، المنامة، ورد على الموقع التالي: -
https: //albiladpress. com/news/ ٢٠٢٢ ٥٠٤٨//columns/ . ٧٧٠٤٨١html
[٤] الجودر، صالح (١٤أغسطس٢٠٢٢)، عاشوراء البحرين والحريات الدينية، صحيفة
[٥] الأيام، العدد،١٢١٨١ المنامة، ورد على الموقع التالي: -
https: //www. alayam. com/Article/courts-article/٤١٩٧٧٦/Index. html
[٦] أنظر: - البحرين تفرض قيودا على الراغبين بالسفر مع قرب زيارة الأربعين) ٢٨ أغسطس٢٠٢٢ (، موقع أخبار الشيعة،، ورد على الموقع التالي:
- https: //shiawaves. com/arabic/news/١١٦٩٢٤
[٧] المصطفى، حسن (١١ أغسطس٢٠٢٢)، عاشوراء في السعودية: أفاق النقاشات المشرعة، ورد على الموقع التالي: -
https: //www. alarabiya. net/saudi-today/١١/٠٨/ ٢٠٢٢/
[٨] جاسم، صباح (٣٠ ديسمبر٢٠٠٩)، عاشوراء في السعودية: قمع رسمي وتهميش أعالمي، شبكة النبأ المعلوماتية، ورد على الموقع التالي: -
https: //annabaa. org/munasbat/ashura/ .٠٥٩/١٤٣١htm
[٩] الشيعة في الامارات (بال تأريخ)، مركز الأبحاث العقائدية، ورد على الموقع التالي: -
https: //www. aqaed. com/shia/country/emirates
. www: //https com. aqaed /qatar/country/shia/
[١٠] كذلك أنظر قطر تمنح الطائفة الشيعة في قطر (بال تأريخ)، مركز الأبحاث العقائدية، ورد على الموقع التالي: -
الشيعية في الدولة حق فتح الحسينيات لإحياء موسم عاشوراء في ظل تواجد جائحة كورونا. (٢٤ أغسطس٢٠٢٠)، ورد على الموقع التالي:
-
https: //www. facebook. com/Jqlmlbh/photos/a . ١٠٣١٦٧٥٣٧٧٢٦٠٢٦ ٣٣٧٥٧٢٥٢٧٦١٨٨٥٨//?type=٣
[١١] شوارع سلطنة عمان تتشح بالسواد وتشهد إقامة فعاليات العزاء بذكرى عاشوراء الأليمة (٢ أغسطس٢٠٢٢)، موقع أخبار الشيعة، ورد على الموقع التالي: -
-https: //shiawaves. com/arabic/news/١١٥١٠٨
[١٢] الأربعينية الحسينية، صحيفة رؤية العمانية، ورد على الموقع التالي: -
/ https: //alroya. om/post/٣٠٨٠٤٨
[١٣] العتبة العباسية تكشف عدد المشاركين في زيارة الأربعين لهذا العام (أحصائية رسمية) (١٧سبتمبر٢٠٢٢)، موقع كلمة الأخباري، ورد على الموقع التالي: -
https: //kalimaiq. com/contents/view/details?id=١٧٢٩٨
[١٤] أنفوجرافيك عن عدد زوار أربعينية الحسين عليه السلام لعام٢٠١٥ (١٤مايو٢٠١٧)،

صحيفة الوسط البحرينية، ورد على الموقع التالي: -
http: //www. alwasatnews. com/news/ .١٠٥٣٠١٥html
[١٥] أنفو جرافيك الوسط٢٠ : مليونا زوار الأربعين للعام، ٢٠١٦ صحيفة الوسط البحرينية، ورد على الموقع التالي: -
http: //www. alwasatnews. com/news/ .١١٨٢٤٠٨html
[١٦] بالأرقام أحصائية زيارة الأربعين لسنة٢٠١٧ (٩نوفمبر٢٠١٧)، ورد على الموقع التالي:
/ https: //www. skypressiq. net/٩/١١/ ٢٠١٧
[١٧] الحريري، أ. د. جاسم يونس (٢٠٢٠)، قراءة في التحديات تجاه العراق ودول مجلس التعاون الخليجي بعد عام، ٢٠٠٣ عمان، دار الجنان للنشر والتوزيع، ص. ٢٦-٢٤.

المصادر والمراجع

الكتب

- الحريري، أ. د. جاسم يونس) ٢٠٢٠ (، قراءة في التحديات تجاه العراق ودول مجلس التعاون الخليجي بعد عام، ٢٠٠٣ عمان، دار الجنان للنشر والتوزيع.

الصحف

- أنفو جرافيك الوسط٢٠ : مليونا زوار الأربعين للعام، ٢٠١٦ صحيفة الوسط البحرينية، ورد على الموقع التالي: -
http: //www. alwasatnews. com/news/١١٨٢٤٠٨. html
- أنفوجرافيك عن عدد زوار أربعينية الحسين عليه السلام لعام٢٠١٥ (١٤مايو٢٠١٧)، صحيفة الوسط البحرينية، ورد على الموقع التالي: -
http: //www. alwasatnews. com/news/١٠٥٣٠١٥. html
- الجودر، صالح (١٤أغسطس٢٠٢٢)، عاشوراء البحرين والحريات الدينية، صحيفة الأيام، العدد، ١٢١٨١المنامة، ورد على الموقع التالي: -
https: //www. alayam. com/Article/courts-article/٤١٩٧٧٦/Index. html
- الشعلة، عبد النبي (١٠أغسطس٢٠٢٢)، ذكرى عاشوراء والحكومة الجديدة، صحيفة البلاد، المنامة، ورد على الموقع التالي: -
https: //albiladpress. com/news/٥٠٤٨/ ٢٠٢٢/columns/ ٧٧٠٤٨١. html
الشرق الأوسط، السعودية، دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر، ورد على الموقع الشيعة في الخليج يحتفلون بعاشوراء وسط أجواء أمنة (٧أغسطس٢٠٢٢)، صحيفة
https: //aawsat. com/home/article/ - : ٣٨٠٣٥٥٦/
الشيعة في قطر (بال تأريخ)، مركز الأبحاث العقائدية، ورد على الموقع التالي: -
www: //https/qatar/country/shia/com. aqaed
ومواطنون كويتيون يحتجون على القرارات

الحكومية التعسفية بحق زوار الأربعين عمر، فاتن (١٧سبتمبر٢٠٢١)، بعد فرض حجر مؤسسي على زوار العراق: نواب ويغردون: لا للتمييز، والكويتيين خط أحمر، صحيفة رأي اليوم اللندنية، ورد على التالي الموقع

https: //www. raialyoum. com: -

- اللواتي، مصطفى بن محسن (١٧سبتمبر٢٠٢٢)، وقفات مع الزيارة الأربعينية الحسينية، صحيفة رؤية العمانية، ورد على الموقع التالي: -

https: //alroya. om/post/٣٠٨٠٤٨

مواقع أخبارية

بالأرقام أحصائية زيارة الأربعين لسنة٢٠١٧ (٩نوفمبر٢٠١٧)، ورد على الموقع التالي: -

www: //https. skypressiq. ٩/١١/٢٠١٧/ net

- جاسم، صباح (٣٠ ديسمبر٢٠٠٩)، عاشوراء في السعودية: قمع رسمي وتهميش أعالمي، شبكة النبأ المعلوماتية، ورد على الموقع التالي: -

https: //annabaa. org/munasbat/ashura/٠٥٩/١٤٣١. htm

المواقع الألكترونية

- البحرين تفرض قيودا على الراغبين بالسفر مع قرب زيارة الأربعين (٢٨ أغسطس٢٠٢٢)، موقع أخبار الشيعة، ورد على الموقع التالي: -

-https: //shiawaves. com/arabic/news/١١٦٩٢٤

- شوارع سلطنة عمان تتشح بالسواد وتشهد اقامة فعاليات العزاء بذكرى عاشوراء الأليمة (٢ أغسطس٢٠٢٢)، موقع أخبار الشيعة، ورد على الموقع التالي: -

https: //shiawaves. com/arabic/news/١١٥١٠٨

الشيعة في الإمارات (بلا تأريخ)، مركز الأبحاث العقائدية، ورد على الموقع التالي: -

www: //https. emirates. com. aqaed. shia/country

الشيعة في قطر (بلا تأريخ)، مركز الأبحاث العقائدية، ورد على الموقع التالي: -

//https www: qatar. com. aqaed /country/shia/.

- قطر تمنح الطائفة الشيعية في الدولة حق فتح الحسينيات لإحياء موسم عاشوراء في ظل تواجد جائحة كورونا. (٢٤ أغسطس٢٠٢٠)، ورد على الموقع التالي: -

https: //www. facebook. com/Jqlmlbh/photos/a. /١٠٣١٦٧٥٣٧٧٢٦٠٢٦ ٩/٣٣٧٥٧٢٥٢٧٦١٨٨٥٨type=٣

- المصطفى، حسن (١١ أغسطس٢٠٢٢)، عاشوراء في السعودية: أفاق النقاشات المشرعة، ورد على الموقع التالي: -

https: //www. alarabiya. net/saudi-today/١١/٠٨/ ٢٠٢٢

آية الله السيد محمد باقر السيستاني
أستاذ بحث خارج في الحوزة العلمية / النجف الأشرف

تكامل الذكر والأنثى في الحياة
دراسة ميسرة في تكامل الجنسين ونقد الاتجاهات الشاذة الحديثة

القسم الأول

إنّ أحد الأسس الفطرية المهمة للحياة الإنسانية والنوع الإنساني هو التنوع البشري الرائع المنقسم إلى الذكر والأنثى، وتكاملهما في هذه الحياة من خلال الاقتران الزوجي الأسري، وتوزيع اقتضاءات الأسرة على الجنسين وفق الملائمات الفطرية مع تكونهما الجسدي والنفسي

والسلوكي ومشاركتهما إنجاب الأولاد.

إلا أنّ هذا الأساس تعرض في العصر الحاضر لتحد خطير من خلال اتجاهات ونظريات متعددة انتشر تسويقها باسم العلم والأدوات العلمية.

ومن أبرز تلك النظريات نظريتان:

١ــ نظرية تحور معنى الذكورة والأنوثة وهما أمران معروفان للإنسان منذ نشأة الإنسانية بادعاء أنهما لا يتمثلان في التنوع الفطري الجسدي والوظيفي والنفسي والسلوكي للإنسان، بل هما يعبران عن انطباع الإنسان عن نفسه.

فإذا رأى الذكر جسدي ا أنه أنثى كانت هويته أنثى سواء احتفظ بخصائصه الجسدية الذكرية، أم سعى إلى تغييرها، فله أن يتأنث ويظهر ويتصرف ويتزوج كأنثى تماماً ويكون بين الإناث في اجتماعهن، وعلى الأسرة والمجتمع أن يتقبله ويتعامل معه كذلك رغم خصائصه الذكرية الكاملة، وكذلك الحال في الانثى!.

بل يجوز أن يختار الشخص أن يكون ذكرا وأنثى في آن واحد، أو يكون حالة وسطى بمزيج من المظاهر والسلوكيات الذكورية والأنثوية حسبما يشاء!

وقد عبّر عن مورد الانطباع المغاير للجسد عن الذات بالتحول الجنسي، كما عبّر منذ حين عن الهوية التي يختارها الشخص لنفسه سواء كان موافقا لجسده أ م لا بالنوع الاجتماعي.

٢ـ نظرية أخرى تنقض تكامل الذكر والأنثى في الحياة كما تقتضيه الفطرة الإنسانية بأدعاء أنّ الميول الشاذة) المماثلة (هي ميول طبيعية، وأنّ الاقتران الشاذ بالمماثل يمثل خياراً للزواج على حد زواج الذكر والأنثى!.

فهاتان نظريتان تبرران السلوكيات والاقترانات والميول الشاذة، وتعتبرها اموراً طبيعية وخيارات مقبولة ومشروعة على حد الخيار السائد في المجتمع البشري من تمايز الجنسين وتكاملهما في الحياة.

وقد حدثت هاتان النظريتان في هذا العصر في بعض الأوساط العلمية على أساس أنهما من جملة معطيات العلم الحديث!.

ومن الملفت أنه يجري تسويقهما ثقافياً واجتماعياً بقوة واندفاع بالغ في المجتمعات البشرية من خلال جميع الإمكانات المتاحة المحلية والدولية من الجوا نب المالية والقانونية والسياسية والاعلامية والثقافية والتربوية.

والواقع أنّ هذه النظريات تمثل انتكاسة كبيرة في الفكر الإنساني المعاصر، بل تقهقر غريب لما يطرح باسم العلم وعجز كبير عن رصد البديهيات الفطرية الإنسانية التي يدركها عامة العقلاء الراشدين وفق ما يجدون بوجدانهم ويشهدونه بالخبرة العامة، وقد وقع من قبل التنكّر لمبادئ بديهية أخرى باسم العلوم الإنسانية.

كما أ نّ تسويقها في المجتمع الانساني عملياً يمثل تحدياً خطيرا للإنسانية في أحد أهم ركائزها وبناها في وجودها وديمومتها وقيمها وأخلاقها ونظمها الأسري والاجتماعي.

وهذه دراسة موجزة تتضمن توضيح تكامل الذكر والأنثى في الحياة وفق القواعد العامة الراشدة للتفكير المبنية على مبادئ خمسة:

١ـ الإدراك السليم.

٢ـ الفطرة الإنسانية الجسدية والوظيفية.

٣ـ الفطرة النفسية والسلوكية.

٤ـ الضمير الإنساني الذي يمثل الهدي الملائم للإنسان ويحدد ما يحسن

وما يقبح منه.

٥ـ الحكمة الصائبة التي ترعى الصالح الإنساني.

هذا مع دراسة الموضوع وفق هذه المبادئ في المستوى الفطري، وفي المستوى العلمي المعتمد على العلوم ذات العلاقة بهذه المبادئ، من جهة وجود أبعاد للموضوع ذات علاقة بكل واحد من هذه المبادئ الخمسة.

كما تضمنت الدراسة توضيح بداهة هذا المبدأ نعني التكامل بين الجنسين في الدين بداهة بالغة لا مزيد عليها، فإنه ملء تعاليم الدين ونصوصه في ذِكْر الذكر والأنثى وأحكامهما، على أنّ الدين ي تضمن التأكيد على أنّ هذا التكامل مطابق مع المبادئ الفطرية والأخلاقية والحكمية.

وكنت قد أ عددت دراسة أكثر تفصيلاً من بعض النواحي قبل ثلاث سنوات عندما بلغني استفحال هذه النظريات في أوساط الجاليات الإسلامية في بعض بلاد المهجر، وحدثت ظروف حالت دون إنهائها، وقد حدث في هذه الأيام سعي بليغ إلى نشر هذه الأفكار الخاطئة في داخل البلاد الاسلامية فاهتممت بإيجاز البحث مع بعض الإضافات ليكون أسهل تناولا.

وقد أعددت هذا البحث في الأصل لإلقائه كمحاضرات على طلبة الجامعات ولكن حالت الظروف عن إلقائها، ولذلك اكتفيت بنشره وذلك ليكون مذكِّرا لمن عُني بالتبصر في الموضوع وتحفيز معاني الرشد والفطرة والأخلاق والحكمة في المجتمع الإنساني بشكل عام وللمجتمع الديني على وجه خاص.

تمهيد:

لقد تضمنت هذه الدراسة توضيح أمرين:

١ــ إنّ الذكورة والأنوثة اللتين تمثلان الهوية الجنسية في الإنسان ترتكز

على الفوارق الجسدية الكاملة المعروفة بين الجنسين، وتترتب عليها الميول والمشاعر النفسية المستقيمة، والتي تؤثر بدورها في السلوك السليم والملائم، فالفوارق الجسدية ليست مظاهر محضة في الإنسان، بل هي تنوع ضارب في العمق الجسدي والنفسي للإنسان، وجزء من بنيته التي بُني عليها، وراسم للسلوك السليم والحكيم والملائم للإنسان، فهذا هو معنى الذكورة والأنوثة بحسب إدراك العقل السليم وشهادة الفطرة التي فُطر الإنسان عليها جسدياً ونفسياً وأخلاقياً وبدلالة الحكمة التي تفرضها سنن الحياة الاجتماعية وبحسب معطيات العلوم ذات العلاقة جميعاً مثل علم الأحياء وعلم وظائف الأعضاء) الفسيولوجيا).

وهذا القسم من البحث يبيّن الخطأ الفاحش للغاية في افتراض هوية جنسية للإنسان على أساس شعوره عن نفسه ورغبته في تعامل الآخرين معه وإن كان متقاطعاً مع وضعه الجسدي، ويفنّد الاتجاه المتجدد في الموضوع الذي فصل الهوية الجنسية للإنسان عن التكوين الجسدي واعتبّرها أمرا طارئاً وعارضاً لأسباب ثانوية، وأنّها تابعة لانطباع الإنسان عن نفسه، وقد عبّر عن هذه الهوية المفترضة للإنسان بالنوع الاجتماعي[1]، كما عبِّر عن افتراض الإنسان لنفسه هوية جنسية على خلاف جسده بالتحول، ويراد به تحوّل الإنسان من الذكورة والأنوثة عن وضعه

وبالنظر إلى هذا الأمر الثالث نرى أنه قد يفرع على نظرية النوع الاجتماعي الحاجة إلى إنصاف المرأة في دورها الاجتماعي وإحقاق ما يستحقها قانوناً ورفع الحيف الاجتماعي عنها. فهذه أمور ثلاثة تُفرع على نظرية النوع الاجتماعي.

والأمران الاولان يخالفان بديهة

الدين والشريعة الإسلامية، من حيث القبول بانطباع الشخص

عن جنسه على خلاف جسده والإذعان بالميول والاقترانات الشاذة، والتسوية بين الجنسين في الأحكام الشخصية مثل الستر والحجاب والعدة وغير ذلك. واما الأمر الثالث فهو في حدّ نفسه وعلى إجماله لا يخالف الدين والتشريع الاسلامي، ولا يتفرع بالضرورة على نظرية النوع الاجتماعي، لأنه يدعو الى تمكين المرأة مما ثبت لها في التشريع، وإزاحة العوائق الاجتماعية دون ذلك، ولا يدعو الى تشريع مختلف كما هو الحال في الأمرين الأولين.

ولكن من الملاحظ وقوع الالتباس في شان هذا المصطلح وسوء استخدامه في مقامات حساسة

للغاية قد تكون له تبعات ثقافية وقانونية سلبية جداً، حيث أطلق النوع الاجتماعي على الرجل والمرأة بمعناهما العرفي، وتمّ تغليب دلالة المصطلح على إنصاف المرأة فحسب أو بتصور أنّ مؤدى هذا المصطلح لا يزيد على إفادة ذلك، من غير التفات إلى عمق متبنيات مصطلح النوع الاجتماعي من نفي أي اقتضاء فطري للذكورة والانوثة الجسدية في شأن الهوية الجنسية والميول المقبولة والسلوكيات المشروعة والادوار الملائمة، ولا ما يقتضيه هذ ا المصطلح من تجويز الانطباعات والميول والسلوكيات الشاذة.

و من جملة الموارد التي أطلق فيه هذا المصطلح على وجه غير دقيق:

١ــ نصوص قانونية وقرارات تشريعية وتنفيذية في بعض الدول الإسلامية كانت غايتها إنصاف المرأ ة بإيفاء حقوقها الشرعية الدستورية والقانونية فحسب، ولكنها استخدمت في التعبير عن ذلك مصطلح النوع الاجتماعي.

٢ـ توقيع بعض الدول الإسلامية على اتفاقيات دولية وثنائية بمحورية هذا المصطلح، كانت

غايتها من منظور تلك الدول الإسلامية إنصاف المرأة فحسب، بينما كان منظور الطرف الاخر هو المصطلح بجميع متبنياته ولوازمه.

٣ـ أذونات صدرت من الدولة لمنظمات وجمعيات ومؤسسات تقوم بنشاطات على اساس

مصطلح النوع الاجتماعي كان الغرض من الإذن أنصاف المرأة فحسب بينما استغلت تلك المنظمات الأذونات الصادرة للعمل وفق ما يعنيه مصطلح النوعي الاجتماعي وتثقيف الناس على أن الذكر والأنثى لا يختلفان إلا جسدياً وأن كون الشخص امرأة أو رجلاً ناشئ عن التربية الاجتماع فحسب، علما أن العديد من تلك المؤسسات مرتبطة مالياً وثقافياً بمنظمات اجنبية تعمل على مبادئ هذا المصطلح بعمقه وليس على إنصاف المرأة بالمنظور المفهوم في البلاد الاسلامية.

إذن من المفروض تصحيح النصوص المتقدمة وأمثالها وإيضاح المراد بها على نحو مؤكّد كي لا يظن الإقرار فيها والالتزام من خلالها بالمعنى المصطلح وشرعية أبعاده المخالفة لثوابت الدين التي كان عدم مخالفتها شرط ا دستوري ا في صحة أي تشريع أو قرار أو تعليم، كما ينبغي تثقيف الناس على ما يعنيه هذا المفهوم م ن تجاوز قواعد الفطرة وثوابت الدين واصول الثقافة الاسلامية والشرقية والعربية والاعراف المبنية عليها فلاحظ. هذا وكون النوع الاجتماعي بالمعنى الذي ذكرناه أمر ظاهر وبديهي لمن اطلع على المصطلح، وفهمه فهماً فنياً، وفق سياقات استعماله في هذا العصر وبيان معناه في مصادر الموضوع كافة، ولم يبن في معناه على انسباق ذهني ناشئ عن

استعمالات غير دقيقة أو ارتكازات سائدة في بيئة الشخص، ولا يتوقف ذلك على أن يكون متخصصاً في علم النفس والاجتماع المعاصر، فمن البديهي أنه لا يراد به الرجل

والمرأة وفق الخصائص الجسدية، ولذلك يعد النوع الاجتماعي لمن كان ذكرا ولكن يرى نفسه أنثى هو الأنوثة لا الذكورة، والنوع الاجتماعي لمن كان أنثى ولكن يرى نفسه ذكرا هو الذكورة لا الأنوثة، والنوع الاجتماعي لمن يرى نفسه ذكرا وأنثى في آن واحد هو ازدواج الهوية لا الذكورة محضاً وإن كان ذكراً جسداً ولا الأنوثة محضاً وان كان جسداً أنثى.

ويكفي منبهاً على ذلك تأمل معنى جملة) النوع الاجتماعي (وفهمه، فالتعبير بالنوع بدلا عن الجنس الذي يعبّ عن الذكر والأنثى إنّ ما كان ناظرا إلى أمر مختلف، كما أنّ توصيف النوع بالاجتماعي يعني أنّ هذا التنوع ليس أمراً فطرياً بل هو أمر اجتماعي ناشئ عن التربية الاجتماعية والأعراف الموضوعة السائدة.

وقد يتساءل عن العلاقة بين النوع الاجتماعي بالمعنى المعروف الذي بيناه وبين الاقتران الشاذ بالمماثل.

والجواب أنّ هناك علاقة بينهما فعلاً، من وجهين:

١ـ أنّ الاقتران الشاذ بالمماثل يقع على وجهين:

الأوّل: أن يكون مع إذعان كل من المقترنين بجنسه، فهما مثلاً ذكران ويريان أنفسهما ذكرين فعلاً.

والثاني: أن يكون الاقتران الشاذ بالمماثل جسدياً على أساس اعتقاد أحد الطرفين عن نفسه بخلاف جنسه، فيقترن ذكر يرى نفسه ذكرا بذكر آخر يرى نفسه أنثى.

ومن الواضح أنّ الاقتران الشاذ في الوجه الثاني مبني على فكرة النوع الاجتماعي الذي يتضمن أنّ الهوية

الجنسية للإنسان إنما تكون وفق انطباع الإنسان عن نفسه، وليس على أساس خصائصه الجسدية، فاقترن شخصان ذكران جسدياً بعضهما ببعض على أساس أنّ أحدهما ذكر والآخر أنثى بحسب النوع الاجتماعي.

٢ـ إنّ فكرة النوع الاجتماعي من حيث مبناها تعتمد على أنّ كل ما يتعلق بالجنس عدا البعد الجسدي هو أمر غير فطري، بل مكتسب من البيئة والتربية الاجتماعية، ويندرج في ذلك طبعاً الميل الغريزي للإنسان إلى الجنس المخالف، فهذا الميل هو ميل مكتسب حسب التربية الاجتماعية، وليس الاقتضاء الفطري كما يراه جمهور العقلاء وذكره القرآن الكريم بقوله إنكاراً على قوم لوط اصحاب الفعل الشاذ: ﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالمين * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ (سورة الشعراء: آية ١٦٥ -١٦٦) وعليه فلو أنّ الإنسان تربى على الميل الشاذ إلى المماثل كان ذلك في حقه طبيعياً وسائغاً كما هو الحال إذا كان على الميل المتعارف إلى الجنس المغاير، وكيف لا يكون الميل الشاذ إلى الجنس المماثل مقبولا وفق مبنى اتجاه النوع الاجتماعي الذي يرى مشروعية انطباع الانسان عن جنسه على خلاف جسده!

على أنّ هناك من يتوسع في إطلاق النوع الاجتماعي وما يرادفه في اللغات الاجنبية ويطلقه على مجموعة العناصر غير الجسدية المتعلقة بالذكورة والانوثة وهي اربعة:

١ـ انطباع الإنسان عن جنسه سواء كان على وفق جسده أم لا.

٢ـ ميله إلى الجنس المخالف أو المماثل جسدياً أو إليهما معاً.

٣ـ السلوك الغريزي الفعلي مع المخالف والمماثل أو معهما.

٤ـ المظاهر والسلوكيات والأدوار التي يميل الشخص إليها مثل الزي

والزينة وغير ذلك.

وعلى هذا المعنى فأن النوع الاجتماعي يتضمن التعبير عن التنوع في الميل والسلوك الغريزي.

وقد يطرح أنه متى كان المقصود بالنوع الاجتماعي الاشارة الى التنوع الجسدي إلى الأنثى) المرأة (والذكر) الرجل (دون المعنى المعروف فلا ضير في التعبير به، إذ لا ينبغي المشاحة في التعبير. ولكن يلاحظ بشأن ذلك أنّ دقة التعبير مهمة في النصوص القانونية والاتفاقات الرسمية إذ يجري الاحتجاج بالمفهوم الفني، ولا يعتني بدعوى التوسع والمسامحة في التعبير، وذلك أمر ظاهر ومعروف، كما أنّ ذلك مهم من البعد الثقافي لانه يكون مدخلاً إلى تمرير أفكار خاطئة وخطيرة من حيث لا يحتسب المخاطبون، وهو من الاساليب الناعمة للتأثير على الآخرين وتزريقهم بالأفكار المقصودة من حيث لا يشعرون، وقد نبه بعض علماء المنطق كالعلامة المظفر في مباحث التصورات إلى دور غموض المصطلحات والتعابير في التأثير في أفكار العامة وإثارة مشاعرهم في اتجاه المقصود من غير أن ينتبهوا إلى ذلك. إذن دقة التعبير أمر مهم، ولكن لا ينبغي استغلال ذلك لغايات أخرى. الجسدي سواء سعى إلى تغيير الوضع الجسدي من خلال العمليات الجراحية إلى ما يلائم انطباعه عن نفسه أم لا.

٢ــ إنّ طبيعة الخلية الأسرية الإنسانية وفق الفطرة المشهودة التي خلق عليها الإنسان جسداً ونفساً وأخلاقياً ووفق الحكمة الراشدة والدين الإلهي جميعاً مؤلفة من ذكر وأنثى، وعليه يكون الميل الغريزي المستقيم هو الميل إلى الجنس الآخر وليس إلى الجنس المماثل.

وهذا القسم من البحث يوضح الخطأ الفاحش في الميول والاقترانات

المماثلة ويُفنّد الاتجاه المتجدد حديثاً من القبول بهذه الاقترانات كضرب من الاقتران المشروع في الحياة على حد الاقتران الزوجي بين الذكر والأنثى. وقد كان هذا الاتجاه الثاني مؤثرا في البناء على الاتجاه الأوّل بعض الشيء؛ لأنّ رغبة الشخص في افتراض هوية جنسية لنفسه على خلاف خصائصه الجسدية يبتني كثيرا على الميل الغريزي الشاذ إلى الجنس المماثل. على أنّ فصل مطلق السلوكيات الاجتماعية بما فيها الزواج والاقتران الأسري عمّا فطر عليه الإنسان في الأبعاد الجسدية والوظيفية والنفسية والسلوكية يعني أنّ الاقتران بين الجنسين هو مجرد توجه اجتماعي غالب في أشد الأعراف والتقاليد وليس نظما فطر عليه الجنسان، وهذا بطبيعته يعني مشروعية التوجه الغريزي إلى الجنس المماثل.

هذا وكان الموجب للاهتمام بهذا البحث كما أشرنا من قبل هو أنّ ثنائية الذكر والأنثى وتكامل أحدهما بالآخر واشتراكهما في تكوين الأسرة وما يتفرّع عليه من الإنجاب هي مسألة أساسية وعميقة وبالغة الأهمية في الحياة الإنسانية لأجل سلامتها واستقامتها ودوامها، وهذا الأمر جزء أساس في الحضارة والثقافة البشرية، كما أنّ ذلك من جملة ثوابت الدين الإلهي الجامع بين الرسالات كلها، وإنّ الاتجاهات الحديثة الخاطئة التي أشرنا إليها والتي تؤصل للحالات غير المستقيمة لهي تلاعب خطير ذو آثار كارثية على تكوين الإنسان الجسدي والنفسي والأسري والاجتماعي وبنيته التي فطر عليها من غير حجة علمية حقيقية ولا مستند موضوعي بتاتاً بعد التأمّل الجاد والجامع في مباني هذه الاتجاهات، كما أنّه مصادمة للبديهة الدينية التي تتفق عليها الأديان والرسالات الإلهية التي جرت وأكدت على الفطرة الإنسانية في تكامل الرجل والأنثى.

وبذلك كان من الضروري إيضاح الموقف الراشد في الموضوع، وإثارة قواعد الفطرة ودفائن العقول ومبادئ الأخلاق والحكمة الراشدة في هذا الشأن..

وإنّي أشهد شهادة ناصح تأمل بجد المبتنيات العلمية المدعاة لهذه النظريات بترو وأناة أنّ القانون الذي فطر عليه الإنسان وأودع في داخله وبُني عليه كيانه هو ما جرى عليه عامّة العقلاء ولا يزال عليه جمهورهم وفق استرسالهم الفطري من تكامل الرجل والمرأة في الحياة الأسرية.

وأشهد أنّ الاتجاهات الحديثة البديلة أوهام خاطئة للغاية تشبثاً بأمور واهنة وهي تنطلق في منطلقاتها من أسباب غير موضوعية وواهمة، وتستند إلى حجج تفتقر إلى الدقة في مناهج البحث والتحري ومفرداته جميعاً.

ولست أنطلق في هذه الشهادة من عصبية ضيّقة أو مبادئ موروثة، أو مآرب خاصة ولا عن نية الإساءة إلى الآخرين بتاتاً.

ولكني أشهد بذلك نصحاً لله سبحانه الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى وفطر الإنسان على ذلك وسنّ سنتها في عمق تكوين الإنسان وكان معنياً بالإنسان، ومحذراً له عن تغيير الخلق[٢] بالوساوس والأوهام.

ونصحاً للحقيقة والعلم في غاياته الراشدة من المعرفة الصائبة والفهم الصحيح للامور، وصيانة للإنسان عن الغباء والشقاء.

ونصحاً للإنسانية الكريمة التي بنيت في تكوينها الجسدي والنفسي وألهمت في عقلها الباطن وضميرها الأخلاقي بتكامل الذكر والأنثى، وذلك أداء لحق الوشائج الفطرية من وشيجة الأخوّة الإنسانية نفسها ثمّ سائر الوشائج القائمة من الأخوّة في الدين والقربى والعشرة والجوار

والانتماء وغيرها.

ونصحاً للدين الحق والرسالات الإلهية التي جاءت لتثير دفائن العقول وكوامن الفطرة ولتؤكد على المسيرة الراشدة والسليمة المبنيّة على التعقل والهدى حقاً والتي أخذت على أهل العلم تبليغ الحق وإشاعة الرشد بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولذلك كلّه فإنّ من وظيفة كلّ إنسان راشد أن يقي نفسه من الوقوع في هذه الاتجاهات الخاطئة ويحافظ على نقاء الفطرة وطهارتها في الاكتمال بين الرجل والمرأة، كما أنّ وظيفة الأسرة والمراكز التعليمية والمجتمع العام والدولة وأجهزتها جميعاً السعي في تعليم الأطفال وتربيتهم وفق المبادئ الفطرية وتحفيز تلك المبادئ في نفوسهم بالطرق الملائمة وصيانة الأجيال من الانحراف الذميم والخاطئ.

وليس تعذر خلاص قلة ممن ابتلي بالانحراف- عن الوجهة الفطرية - من وساوسه تلك بالذي يبرر بحا ل شرعنة الحالات الخاطئة وتأصيلها كخيار تعليمي وتربوي وقانوني، بجنب الاقتران الفطري المبني على تكامل الرجل والمرأة من خلال الزواج.

ومن الغريب للغاية أن يُزعم أن المجتمع البشري منذ نشأته حتى هذا العصر اشتبه في أمر أساس مقوّم في الحياة وهو تحديد مناط الذكورة والأنوثة وظن خطأ أنّ الجانب الفطري الجسدي يستبطن الانطباعات والادعاءات المختلفة فهي أيضاً أمور فطرية حتى تقدم علم النفس فاكتشف هذا الخطأ الذريع في أمر بنيوي ومفصل مهم من مفاصل الحياة الإنسانية المؤثر في عامة أبعادها الفردية والاجتماعية.

ويغلب الظن أنّ من الاسباب الأساسية في الاتجاهات الحديثة

الخاطئة والآثمة والغاية التي ترمي إليها هي التسوية التامة بين الذكر والأنثى وإلغاء جميع الفوارق بالمقدار الممكن لينحصر الفرق بينهما في الجانب الجسدي المحسوس بعد تعريته عن أي معنى سلوكي ووظيفي واجتماعي تماماً استشعاراً للنقيصة من أي فرق آخر للمرأة عن الرجل! فألغيت معاني الأنوثة والرجولة وجُعلتا حالة معارة متاحة للرجل والمرأة.

وبذلك أفرغت هذه الاتجاهات الذكورة والأنوثة عن محتواهما وعن دورهما، وتم تفكيكهما إلى قطع متفرقة غير مترابطة بعد أن كانتا بحسب الفطرة كلا مترابطاً في المستوى الجسدي والنفسي والوظيفي والأسري والاجتماعي، وتشوّه بذلك جسد الإنسان، وتكدرت نفسه وتفككت الأسرة الإنسانية، وساءت أحوال المجتمع ولا سيما الأطفال الذين هم الجيل الصاعد، ولم يزل الأمر على أوّله بعدُ، ريثما تضع الأمور أوزارها وتظهر نتاجها عبر الأجيال القادمة، ولن يمكن إرجاع الأمور إلى نصابها في المجتمعات التي انزلقت بعد أن اتجه الناس إلى المسار الخاطئ، وتجذّر ذلك في الأعراف والثقافة الاجتماعية.

إنّ المرء ليجد بالتأمّل في الطروحات الحديثة أنّ كثيرا منها حقاً قبيحة تشمئز منها النفس البشرية النقية بفطرتها وتستحي منها، ولكن من المؤسف أن بعض الثقافات الحديثة قد انمحقت فيها المشاعر الفطرية في الأمور الجنسية مثل حسن العفاف وقبح العهر وتصرفات معيبة أخرى واستخف فيها بمشاعر إنسانية راقية مثل صفة الحياء والغيرة ونحوها، ولذلك قد لا يجد المرء لغة مشتركة لمخاطبتها بالخطاب الوجداني المبني على هذه المعاني الفطرية الرائعة التي قدرت لها أدوار مناسبة ومؤثرة وأساسية في بُنية الإنسان والمجتمع

الإنساني.

وإني لأرى بصدق أنّ مثل هذه الاتجاهات لهي - دون تحامل - واهنة إلى حد السخف والغباء، وهي مهزلة من مهازل الفكر البشري التي حدثت باسم العلم الرصين والحرية المستحقة للإنسان وليست منهما في شيء، اللهم إلّا صورة مستعارة وتجميلاً متكلفاً.

منهج البحث

وقد جاء البحث في مقدمة وقسمين وخاتمة..

أمّا المقدمة فهي تتضمّن عرضاً توضيحياً للهدي الفطري الداخلي للإنسان بأقسامه من الهدي الإدراكي والهدي الجسدي والوظيفي والهدي النفسي والسلوكي والهدي القانوني والأخلاقي والهدي الحكمي كما يتضمن بيان اشتمال الهدي الفطري إجمالا على تأصيل العفاف والحياء وتكامل الذكر والأنثى كما يشمل على تفصيل للاتجاه الفطري في شأن الذكورة والأنوثة والذي كان ولا يزال يجده جمهور العقلاء بما جهزوا به في تكوينهم الجسدي والوظيفي والنفسي والسلوكي وألهموا به في ضميرهم الأخلاقي والحكمي، وأكدته تجاربهم في الحياة، هذا مع عرض الاتجاهات

الحديثة في مقابل الاتجاه الفطري.

وأما القسم الاول من البحث فكان حول الهوية الجنسية للإنسان) وهي الذكورة والأنوثة (وبيان أنّها مبنية بحسب الفطرة والعلم والدين جميعاً على الاختلاف الجسدي المشهود مع ما يرافقه ويرتبط به من الاختلاف النفسي والسلوكي بين الجنسين، ولا يصح بناء هذه الهوية على الميول والاتجاهات الشاذة المكتسبة على خلاف الوضع الجسدي للإنسان.

وأما القسم الثاني فهو حول أنّ الميل والسلوك المستقيم للجنسين بحسب الفطرة والعلم والدين هو ما

كان ملائما مع وصفهما الجسدي من خلال تكامل الذكر والأنثى بالاقتران الزوجي الأسري، وأنّ أيّ ميل واقتران شاذ فهو حالة غير مستقيمة نفسياً وسلوكياً وأخلاقياً.

وقد اشتمل البحث في هذين القسمين على أبحاث مختلفة متعلقة بالموضوع، منها أمران:

١ـ بيان أنّ الدراسات الحديثة في العلوم الإنسانية هي عرضة للأخطاء الكبيرة في رصد الأمور الوجدانية، وذكر نماذج واضحة من تلك الأخطاء. وهذا البحث يجيب عن استبعاد خطأ الدراسات الحديثة في اتجاهها في تحليل الذكورة والأنوثة.

٢ـ ذكر الأسباب الحقيقية للاتجاهات الحديثة حول الذكورة والأنوثة غير ما تتذرع من الوجوه العلمية المدعاة، وهي في حقيقتها نحو استخدام للادوات العلمية الصناعية في غير موضعها الفني.

وأما الخاتمة فهي في توصيات تذكر المجتمع الإنساني بشكل عام والمجتمع الديني بشكل خاص والمجتمع الإسلامي على وجه أخص بالوظائف العقلية والشرعية الراشدة في العمل على مبدأ) تكامل الذكر والأنثى (في الحياة وصيانة الفرد والمجتمع عن الانحراف عن هذا المبدأ المهم والرائع، والأساس في الحياة الإنسانية.

وأؤكد أنّ هذا البحث موجّه لطلاب الجامعات وما يعادل الدراسات الجامعية والمراحل التي بعدها، كما أنّه ناظر إلى خصوص من وقف أو دخلته الشبهة في إثر الاتجاهات الحديثة الخاطئة التي استعاضت عن ثنائية الذكر والأنثى، أو افترض هوية جنسية واهمة للإنسان وفق تخيله عن نفسه بعيداًعن خصائصه الجسدية، ولا حاجة إلى اطلاع سائر الناشئين عليه ممن يجري على فطرة الانسجام مع نفسه

والتكامل بين الجنسين الذكر والأنثى، على أنني راعيت الأدب الملائم للحديث الاجتماعي العام في مثل هذه المواضيع ما استطعت، واكتفيت بالبيان العام أو الإشارة أحياناً تجنباً عن ذكر تفاصيل لم تكن ضرورة إلى ذكرها، ويستطيع أهل العلم من المراجعة إلى المصادر الخاصة إذا وجدوا حاجة إلى ذلك.

وقد استوثقت عموماً من المعلومات التي ذكرتها من خلال مطالعة مصادر ودراسات وأبحاث وأخبار مختلفة وإن لم أثبتها كي أرجع إليها عند تدوين هذا البحث، ومن خلال الأدوات العلمية الملائمة مع العلوم ذات العلاقة بالموضوع، من التأمل التحليلي والاستبطان الذاتي والخبرة العامة الحاصلة من استقراء الأحوال الاجتماعية، واهتممت في بعض الموارد بإرجاع المخاطب الحصيف إلى امور وجدانية يجدها ولا يتوقف فيها من خلال ما يشهده بوجدانه أو يطلع عليه من خلال معايشته للحياة.

ومن الجائز أن تكون بعض الجزئيات فيما ذكرت محل نظر أو مناقشة، إلا ان ذلك نوعاً لا يوثر على نتيجة البحث، لأنني لم اعتمد في البناء على موقف ما والبناء على نتيجة معينة على شاهد مفرد، بل استوثقت في مجمل ما ذكرته بتأمل الموضوع من الزوايا المختلفة وسوق الشواهد المتعددة والمتنوعة على الوقف الذي تم ترجيحه، حتى يكون واضحاً وجلياً

والله أسأل أن ينفع بذلك المتبصرين في الحق والباحثين عن الحقيقة والساعين إلى واقع العلم ومعطياته الناضجة، وهو سبحانه ولي التوفيق.

المقدمة

١ـ الهدي الفطري الداخلي للإنسان:

لا شك بحكم الوجدان المشهود

لدى كل إنسان راشد أنّ الله سبحانه جهز الإنسان فيما جهزه به بقواعد الإدراك والسلوك السليم الملائم مع خلقه وصلاحه، كما جهز سائر الكائنات الحية عامة والحيوانات خاصة في تكوينها وصياغتها وهندسة وجودها بسنن وقواعد ملائمة لها كما يجده علماء الأحياء.

وقد اكد الدين الإلهي من خلال رسالاته على تجهيز الإنسان بالفطرة السليمة، وعلى ضرورة جري الإنسان وفقها، كما قال سبحانه في القرآن الكريم ﴿ فطْرَةَ الله التِي فَطَرَ النَاسَ عَلَيْهَا﴾ (٣)، وقال عز من قائل: ﴿ ونفس وما سواها *فَأَلهمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٤)

وقد أقسم القرآن الكريم في الموضع الأخير بكل ما يجده الإنسان ويحيط به من ﴿ الشمْسِ وَضُحَاهَا * وَالقمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنهَارِ إِذَا جلاها *وَاللَيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * والسماء وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْس وَمَا سَواها﴾ (٥) على أنّ فلاح الإنسان في هذه الحياة وفي ما بعدها مرهون برعاية ما أودع في باطنه من مبادئ التقوى والفضيلة، وتجنّب ما ألهم الابتعاد عنه من وجوه الفجور والرذيلة، وحذره من الخيبة والخسران في هذه الحياة وما بعدها إذا استرسل في السلوك وفق الشهوات والانفعالات والآمال الخادعة.

فالقواعد التي ينبغي أن يرعاها الإنسان ليست في أصولها محددات خارجية تفرض عليه، بل هي المبادئ التي كون عليها فهي ضاربة في أعماق وجوده من أقصى مراتب اللاوعي الإنساني حتى مرتبة الوعي التفصيلي الذي يجده على وجه واضح.

فإذا راعى الإنسان تلك القواعد والمبادئ بورك له في حياته وأثمرت في هذه الحياة إنساناً فاضلا سليماً ومجتمعاً سالماً مستقيماً، وأورثت فيما بعد هذه

الحياة سعادة وقرباً شأن الشجرة الطيبة التي تؤتي ثماراً طيبًا، وإن انتهك تلك المبادئ أورث ذلك للإنسان في المستوى الفردي والاجتماعي في هذه الحياة ثم فيما بعدها عناء وشقاء ومرارة وسقما.

المراد بالفطرة الإنسانية

والمراد بالفطرة الإنسانية خلق الإنسان وتكوينه الخاص بأبعاده المختلفة، فإنّ للإنسان تكويناً جسدياً وإدراكياً اونفسياً وسلوكياً وأخلاقياً وحكمياً خاصاً، كما هو ملحوظ بالوجدان وهو أمر ظاهر في علوم التشريح ووظائف الأعضاء والطبّ وفي علوم النفس بأنواعها.

وهذا التكوين يملي على الإنسان وفق قواعد الإدراك السليم بعيداً عن وجوه التفكير الارتغابي استجابات وحدود ا وقوانين خاصّة لسلوكه هي ملائمة مع هذا التكوين، وهي أشبه بالتوضيحات التي تقرن بالأجهزة الصناعية في بيان أسلوب تشغيلها والانتفاع بها وصيانتها.

فهذه الاستجابات والحدود نعبر عنها بالاقتضاءات الفطرية؛ لأنّها مما فطر عليها الإنسان.

وتقع في مقابل ذلك اقتضاءات وحوائج مكتسبة ينجذب الإنسان إليها في إثر عوامل حادثة كالانفعالات والعادات والأعراف وحدوث الإدمان عليها وغير ذلك.

فالفارق بين الاقتضاءات الفطرية والمكتسبة أنّ الاقتضاءات الفطرية هي اقتضاءات ثابتة كامنة في تكوين الإنسان كما هو الحال في الأكل والشرب والنوم والحركة وطلب الراحة والمعاشرة والزواج والتوليد والاستطلاع والنظافة.

وأما الاقتضاءات المكتسبة فهي ما يتعلق بها الانسان وفق عوامل متجددة، نظير أكثر تفاصيل العادات الغذائية والاجتماعية، فإنها ليست بهذه

التفاصيل مما تتضمنه خلقة الإنسان، بل هي مناحي مكتسبة لتعلقات فطرية، فالإنسان مفطور على تناول الطعام، ولكنه ليس مفطوراً على تناول هذا الطعام أو ذاك، وإنما يحصل التعلق بطعام ما من خلال العادات والميول المتجددة.

وتختلف الاقتضاءات الفطرية عن الاقتضاءات المكتسبة من وجهين:

الوجه الاول: اختلافهما في تقديرها والاعتبار بها في القوانين الفطرية.

فالاقتضاءات الفطرية المتعارفة ذات دلالات تشريعية وأخلاقية ودينية، بمعنى أنّ ممارسة الإنسان لما فطر عليه يكون على الإجمال أمراً مشروعاً وأخلاقياً وشرعياً لا محالة، فيجوز للإنسان الأكل والشرب والزواج والتوليد ونحوها.

وأما الاقتضاءات المكتسبة فليس لها دلالات من هذا القبيل، بل القبول بها بحسب القانون الفطري يتوقف على شرطين:

١. عدم مجافاتها مع الحاجات الفطرية ومع القانون الفطري.

٢ـ أن لا يكون الإيفاء بها خلاف الحكمة لعدم ملاءمتها مع الصلاح الإنساني.

ولذلك فإنّ حاجة المدمن على المخدرات مثلاً ليست حاجة مشروعة في التقدير العقلائي العام وإن كان هناك شعور قوي بها، لعدم توفر أيٍّ من الشرطين فيها.

أما **الشرط الأول**: وهو عدم المجافاة مع الفطرة فلأنها من جهة أضرارها مجافية مع الحاجة الفطرية إلى الصحة والسلامة النفسية.

وأما **الشرط الثاني**: وهو عدم مخالفتها مع الحكمة والصلاح فلانها توجب ابتلاء الآخرين بها فينافي الصلاح الإنساني العام.

إذاً يستخلص من ذلك أن كون

الإنسان مطبوعاً على اقتضاءات معينة متعارفة دليل صوابها ومشروعيتها بحسب القانون الفطري، فلا يصح المنع عما بني عليه الطبع واقتضته الفطرة.

فإن انطوت الفطرة العامة التي اقتضت تلك الحاجة على اتجاه محدد كانت دليلاً على مشروعية ذلك الاتجاه الخاص دون ما يغايره، وإن خلت الفطرة العامة عن أي اتجاه محدد ينبغي الانتباه إلى مقتضى الحكمة في شأن القبول العام بهذا الاتجاه أو ذاك

من خلال تقدير الصالح العام بالنظر إلى آثار كل اتجاه سلوكي على الإنسان والمجتمع الإنساني، فإن لم يكن هناك محدد حكمي لاتجاه معين تعين القبول بكل اتجاه مكتسب والبناء على مشروعيته، وإن كان هناك محدد حكمي لاتجاه ما لموافقته للصلاح العام دون غيره لزم تحديد مشروعية تلك الحاجة بالاتجاه الحكيم.

الوجه الثاني: الفارق بين الاقتضاءات الفطرية والاقتضاءات المكتسبة

هو ما يتعلق بالمنظور الطبي، وذلك في مقام التشخيص بين الحالة السليمة والحالة المرضية وشبهها.

وذلك أنّ الاقتضاءات الفطرية تكون حالات سليمة من المنظور الفطري، ولن تعتبر حالات مرضية بتاتاً، بل يكون فقدانها ووجود أضدادها حالة مرضية أو شبه مرضية استوجبها اختلال في أصل الخلق من خلال تشوّه الإنسان عند نشأته حيث كان جنيناً، أو اختلال طارئ لاحقاً في أثر حوادث خاصة.

وأما الاقتضاءات المكتسبة فيجوز أن تكون حالات غير سليمة حتى وإن تجذّرت بحيث لم يمكن التخلص منها كما هو الحال في الإدمان على الأشياء على وجه يشلّ النشاطات الطبيعية للإنسان، وكذلك الحالات المستدامة من الكآبة والقلق والاضطراب

والخوف والوسوسة والهلاوس البصرية والسمعية والتخيلات الواهمة، وكذلك الحال في الميول الغريزية إلى الأطفال والحيوانات والميل إلى ممارسة العنف الزوجي والأسري والاجتماعي) السادية (، أو الميل إلى أن يقع الإنسان مورد العنف الزوجي ونحوه) المازوخية).

ومما يتعلق بهذا الفرق هو المحددات الصحية للتغذية الإنسانية وللنشاطات التي يمارسها وللبيئة التي يعيش فيها، فما كان ملائما مع الحاجات الفطرية الإنسان فإنها تكون صحية طبعاً وما كان منافراً لها فإنها لن تكون صحية، وهناك محددات صحية لكل ذلك معروفة لدى العقلاء وفق الخبرات العامة وأخرى يهتدي إليها بعض دون بعض، وتتكفل علوم الطب والصيدلة بتوضيح الأبعاد المتشابهة في ذلك، كما يحدد آلية للتعامل مع الحالات الطارئة مثل العوارض المرضية على وجه ملائم لرفعها أو تخفيفها والحد من أذاها، فالتعليمات الصحية فيما يتعلق بالتغذية والنشاط والبيئة هي نوع من القانون الذي تمليه فطرة الإنسان وخلقه بتكوينه البدني والنفسي الخاص.

هذا وقد حدّدنا الحاجات الفطرية ذات الدلالة القانونية والأخلاقية والصحية بالمتعارفة منها للاحتراز عمّا يمكن أن يتفق أحياناً من حالات مرضية أو شبه مرضية خارجة عن النسق العام والمعتدل، فإنّ مثل ذلك لن يكشف عن مشروعية السلوك الذي يقتضيه بشكل عام حتى لو كان مبنياً على اقتضاء جيني نادر مثلاً، ولم يكن حالة مكتسبة في إثر حادث ما أو بيئة معينة وتشتبه العديد من الأمور الفطرية بالأمور المكتسبة فيظن ما هو فطري مكتسب ا من جهة تعليم الإنسان عليها قبل موعد انفتاقها الفطري فيكون أشبه بالمعلومات المتعلقة بالجنس التي يطلع عليها الطفل قبل الموعد المناسب، أو يظن ما هو مكتسب فطرياً من جهة التربية

الإنسانية العامة عليها، ولكن يمكن تمييز أحد القسمين عن الآخر عند الاشتباه باختبار مدى عموم الشعور بالحاجة وتجذرها والآثار السلبية المترتبة على إهماله وغير ذلك كما ذكر في العلوم ذات العلاقة.

أقسام الهدي الفطري

ينقسم الهدي الفطري المودع في داخل الإنسان إلى عدة أقسام بالنظر إلى الأبعاد الوجودية المتعددة للإنسان..

البعد الاول: فطرة الإدراك) الهدي الإدراكي).

والمراد بها ما جهز به الإنسان وألهم به من أمور ثلاثة:

١ـ ضرورة سلوك المنهج الملائم للتفكير في مقابل التفكير الارتغابي وهو ما ينشأ عن الرغبات والميول النفسية كما قيل في المثل إنّ حُب الشيء يعمي ويصمّ.

٢ـ الإدراكات العامة السليمة التي تمثل رأس المال الفكري والمعرفي للإنسان، كالقضايا الرياضية مثل) ١+١=٢ (أو الفلسفية مثل أنّه لا يعقل كون الشيء في آن واحد موجودًا ومعدوماً، أو أنّ لكل شيء حادث سبباً لا محالة.

٣ـ الإدراكات الخاصة ونعني بها ما ألهم به من الشعور بأشياء خاصة مثل إيداع الشعور بالخالق في داخل الإنسان، وكذلك الشعور بالبقاء بعد هذه الحياة، وإيداع الشعور بالأم في نفس الطفل.

البعد الثاني: فطرة الجسد) الهدي الجسدي).

والمراد بها أن تتمثل حاجة الإنسان في ما جهز به من أعضاء وأدوات، فإن التفاصيل الجسدية للإنسان لها مقتضياتها ودلالاتها، بالنظر إلى نشاطاتها ومتطلباتها، فالدماغ مثالا بأجزائه التي يختص كل جزء منها

بنشاطات خاصة إدراكية وشعورية يشير إلى الحاجات المتعددة للإنسان.

وكذلك أدوات الإحساس والحركة والأكل والشرب وغيرها تمثل حوائج فطرية للإنسان، وعلى هذا المثال سائر الأعضاء والخصائص الجسدية فلكل مقتضياتها ومسالكها.

وتشمل فطرة الجسد نوعين:

١ــ الخصائص التشريحية من الأعضاء وما بمثابتها من الخصائص الدقيقة كأجزاء الخلية مثلاً.

٢ــ الخصائص الوظيفية، وهي الوظائف التي تؤديها الأعضاء والخصائص الجسدية.

البعد الثالث: فطرة النفس والسلوك) الهدي النفسي ــ والسلوكي).

والمراد بفطرة النفس الميول والغرائز والمشاعر التي طبع الإنسان عليها من قبيل الميل إلى التفكير والاطلاع والاجتماع والإحساس والراحة والحركة والاختيار الحر ونحوها، فهذه الميول الفطرية العامة تمثل حوائج للإنسان.

وتتطابق فطرة النفس وفطرة الجسد لدى الإنسان نوعاً، بمعنى أن كل حاجة جسدية تقترن بميل نفسي ملائم لها، كما أنّ كل ميل نفسي مقرون بجزء من بدن الإنسان يكون أداة أو مساعداً على ممارسة هذا الميل، ولكن قد يكون ذلك على وجه غامض.

فيلاحظ أن الإنسان مثلاً يحتاج إلى الأكل للبقاء والنشاط، وهناك أدوات في بدنه لممارسة الأكل، كما أن له ميلاً نفسياً ورغبة له إليه، فكانت تلك الأدوات الجسدية والميل عاملين متكاتفين على الإيفاء بهذه الحاجة الجسدية والغريزية.

وأما فطرة السلوك فالمراد بها ما جُبل عليه الإنسان أو الحيوان مطلقاً من السلوكيات الخاصة من غير أن

يكون هناك صفة نفسية بالضرورة مثل ما جُبل عليه بعض الطيور من بناء عُشّها في أعالي الأشجار، حيث لا يحرز أنّها تنطلق من الخوف النفسي الفعلي في بنائها في أدناها من جهة خطر افتراسها من قبل الحيوانات المفترسة على الأرض، ولكن ذلك سلوك جبلت عليه في داخلها.

البعد الرابع: فطرة القانون والأخلاق) الهدي القانوني والأخلاقي).

وهي حدود مودعة في داخل الإنسان في قوة يعبر عنها بالوجدان أو الضمير الإنساني أو القانون الطبيعي والفطري أو العقل العملي، وينطوي على أصول اللياقات السلوكية للإنسان، وهي حدود متفق على أصولها بين العقلاء.

فكان مما جهزه به من السلوكيات الحميدة حسن الصدق والوفاء بالالتزام والعدل والعفاف والإحسان والرحمة والحقوق المترتبة على الوشائج المختلفة، مثل حقّ الله سبحانه في معرفته وشكره والإصغاء لرسله، وكالحق العام للإنسان على أخيه الإنسان، وحق الوالدين والأولاد والأرحام والأزواج والجوار والأصحاب، كما جهزه بقبح السلوكيات الذميمة كالكذب والخيانة والظلم والفحشاء والإساءة والقسوة وهدر الحق، وكذلك جهزه بتسويغ سلوكيات أخرى له أن يفعلها أو يتركها حسب مذاقه ومزاجه ودواعيه الخاصة.

وتبتني هذه الحدود على رعاية ما يلائم الإدراك السليم وكذلك التكوين الجسدي والنفسي، وحاجات الإنسان وصلاحه الشخصي والنوعي بالنظر إلى ذلك. ولذلك تكون تلك الحدود مناسبة للحاجات الفطرية الإنسانية في المستوى الجسدي والنفسي كما تراعي الحاجات المكتسبة أيضاً على وجه ملائم.

وقد دعمت المبادئ الأخلاقية في داخل الإنسان بمشاعر نفسية ملائمة لها مثل الشعور بالاستحسان والاطمئنان النفسي عند فعل ما ينبغي فعله، والشعور بالاستياء والحزازة والنكد والاستقباح والاستهجان النفسي عند فعل ما لا ينبغي فعله، وذلك ما يعبر عنه العرف بقولهم) هذا عيب أو معيب (، فهذه مشاعر راقية تساعد الإنسان على الالتزام بالمبادئ السلوكية والقانونية والأخلاقية، واستئصال هذه الصفة أو إخمادها وإسكاتها في شأن أمر قبيح ومنكر يؤدي إلى إزالة المصدات النفسية والاجتماعية عن الأمور المنكرة.

الهوامش:

[١] والمراد بالنوع الاجتماعي الذي يطلق في مقابل الجنس الجسدي البيولوجي كل شيء يتعلق بالذكورة والانوثة في الانسان غير البعد الجسدي العيني بدء من انطباع الانسان عن جنسه ومروراً بالميول والسلوكيات الغريزية وانتهاء بسائر السلوكيات والادوار التي تقوم بها على انها تلائم هذا الجنس او ذاك كلها مما يتلقاه الانسان من المجتمع، ولذلك فهي لا تزيد على امور مكتسبة من خلال التربية الاجتماعية، ولا تنطلق من ذاته وداخله وجنسه الجسدي (البيولوجي).

ويفرع على هذا الاصل امور ثلاثة:

١ـ ان شيئاً من هذه الانطباعات والميول والسلوكيات والادوار ليست فطرية بتاتاً فلا موجب للالتزام والالزام بها على اساس انها الحالة الطبيعية والفطرية، كما لا يصح اعتبار التخلف عنها حالة مرضية وغير مستقيمة فلو ان الذكر جسدياً رأى نفسه انثى اجتماعياً واراد ان يتزوج بذكر اخر على انه انثى ويتزين ويظهر كالاناث فانه لا مانع من ذلك من المنظور الفطري بحسب افتراضهم.

٢ـ كما انه ينبغي ان يجوز ذلك كله قانوناً للذكر جسدياً وللانثى في الدول كلها استناداً الى مبدأ الحرية الشخصية في قانون حقوق الانسان واي قانون يحدد ذلك ولو اعتمد على الدين والشريعة الاسلامية والاعراف الاجتماعية السائدة فأنه لابد من العمل على الغاءه لانه ينافي المواثيق والاتفاقيات الدولية في حقوق الانسان والمرأة. وبناء على ذلك فان من الضروري المساواة التامة بين الذكر والانثى في القانون والتشريع في الحقوق والواجبات لان التفاوت بينهما جسدي محض ولا اقتضاءات فطرية له في شأن السلوك والادوار والحقوق والواجبات.

٣. انه لابد من تمكين الانثى كما الذكر من استيفاء حقوقه القانونية واصلاح الاعراف الاجتماعية التي تحول دون وصول المرأة الى تلك الاستحقاقات من خلال العمل الثقافي والاجتماعي.

[٢] اشارة الى قوله تعالى ﴿ولأمرنهم فليبتكن اذان الانعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ (سورة النساء: اية ١١٩).

[٣] سورة الروم: الاية ٣٠.

[٤] سورة الشمس: الاية ٦-٧.

[٥] سورة الشمس: اية ١-٧.

محاضرة لآية الله السيد منير الخباز القطيفي
خطيب مفكر وكاتب واستاذ بحث خارج / السعودية

الحرب الناعمة والشذوذ الجنسي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عَنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللهَ عَلِمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات (١٣)

صدق الله العلي العظيم

تمهيد

عند قراءة الواقع في ضهور هذه الحركات والافكار المنحرفة بدفعات منظمة قراءة موضوعية وفق ابعاد فكرية وعلمية وعقدية سليمة سوف نترجم كل ما يدور حولنا ترجمة عقلائية واضحة وضوح الشمس، عندما نعود لتاريخ الماسونية العالمية التي انتقلت من مرحلة الحروب الصلبة والمباشرة في استعمار العالم والسيطرة عليه بقوة الحديد والسلاح والنار لتعود في محاولاتها للسيطرة على العالم اليوم وقرروا ان يصوبوا بنادقهم فدخلوا في مطابخهم المشبوهة وغرفهم المظلمة وجمعوا السحرة والمردة والمشعوذين ليتدارسوا هذا الامر ويخرجوا بسلاح بارد ومؤثر بافكار جديدة وبأساليب ناعمة هدفها طرح الاصدار الثاني في سيطرتها على

الشعوب بتكتيك المعارك الفكرية الناعمة بعد نشرها للفكر الالحادي لغرض التمهيد لنشر كل فكر فيه معادات للكتب السماوية وخصوصا الاسلام المحمدي الاصيل وما جاءت به الشريعة المقدسة التي تعطي لكل ذي حق حقه وتمييز الانسان عن باقي المخلوقات بعقله وجسمه وجنسه، بقوله تعالى ﴿لقد خَلقنا الإنسانَ في أحسَنَ تَقْويم﴾، وقد استخدمت قوى الظلال هذه استراتيجيات وطرق خبيثة في نشر التحلل والشذوذ الجنسي لشرعنة «اللواط والسحاق» تحت شعار المثلية في العالم، لضرب الاسرة والنسيج الاجتماعي والفطرة التي فطر الله عليها جيمع الكائنات في عالم الوجود عندما خلق النبات والحيوان والإنسان وجميع المخلوقات في عالم الوجود فلابد لكل ذكر انثى ولكل انثى ذكر لغرض بقاء الخليقة والتكاثر كوله تعالى ﴿يا أيُّها النَّاس إنَّا خَلقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأنثى﴾. فهؤلاء يريدون تغيير فطرة الله التي فطر الناس عليها للإنسان وتغيير شريعته المقدسة كونه المكرم من قبل الله تعالى وخليفة الله في ارضه بقوله تعالى ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرضِ خَليفة**﴾.

فعندما ما نستعرض الشذوذ الجنسي التي تدعو إليه ماكنة الماسونية العالمية بقيادة رأس الشيطان اميركا التي اعلنت جهارا انها دولة مثلية تريد ان تلغي ابسط مفاهيم الإنسانية وهي الغاء رجولة واناقة الرجل التي يمتاز بها من خشونة وقوة وهيبة وشجاعة وجمال في دفاعه عن دينه ووطنه واسرته وعرضه وتحدي لمصاعب الحياة التي تؤهله إلى قيادة الاسرة والمجتمع على هذه الأرض والتي هي كمال جماله التي تحتاجها وتعشقها كل الانثى في الوجود والتي تتلذذ بها ويعد القطب الاخر والمكمل لشخصيتها في الوجود كونها تتصف فطرتها بالجمال والحب والانوثة والرقة

والقلب العطوف والصدر الدافئ لبناء الاسرة واحتضان الرجل وتربية الابناء وقيادة المجتمع لخلق جيل صحيح غير مهجن نقي وطاهر كقوله تعالى ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأَنْتُم لِباسٌ لَهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧].

الحرب الناعمة والشذوذ الجنسي- والجندر

الحرب الناعمة التي شنتها الماسونية العالمية اخذت ماخذها في عقول العالم الذي يعيش ازدواجية التفكير بين التطور التكنولوجي الكبير وبين التخلف العقدي في الثوابت التي دعت اليها الكتب السماء وحرب الاحتراق الذاتي والحروب بالنيابة ووصفوها بالاجيال فحرب الجيل الاول والجيل الثاني والثالث وحتى السادس واعتقد ان هذه الاجيال مستمرة بالتصاعد لأن عقلية البشر في حال تطور ونمو مستمر باتجاه المادة فقط والذكاء الاصطناعي والتقنيات العسكرية واستراتيجيات الحروب المسلحة بالسلاح الصلب أو الحروب الاقتصادية والنفسية والفكرية تنوعت وارتقت إلى مستويات مخيفة فلم يعد البعد الزمكاني ولا البعد اثقافي أو البعد العقدي والديني عائقا امام اجندات الماسونية الاوربية المرعبة للشعوب الرخوة التي ابتعدت عن شريعة السماء.

و بهذه الشعارات الملغومة التي نشرتها هذه الماكنة في حروبها الناعمة فتحت ستار الدفاع عن المرأة وحقوقها أو الدفاع عن النوع الاجتماعي نرى ان الامم المتحدة والاتحاد الاوروبي والسفارات والمنظمات النسوية المتطرفة القادمة من الدول الماسونية والغربية حملة شعواء لتغيير معتقدات ومبادئ واخلاق الشعوب في العالم عن طريق نشر ثقافة «الجندر أو النوع الاجتماعي» وما يتضمنه هذا المفهوم من مفاسد وتحلل

وشذوذ. ومصطلح «الجندر أو النوع الاجتماعي» الذي تتبناه مواثيق الامم المتحدة والدول الغربية ومنظماتها النسوية يقوم على فكرة إلغاء الفطرة الإنسانية السليمة وثنائية الخلق البديع من ذكر وأنثى وإحلال كائن هجين محله اسمه (الجندر أو النوع الاجتماعي) الذي يحدد هويته بنفسه ويختار كيف يريد من المجتمع ان ينظر اليه اما كذكر أو كأنثى بغض النظر عما إذا كان قد ولد ذكر أو أنثى. ان هذا يعني ترويج فوضى إختيار الجنس وتغييره حسب الرغبة الشخصية اضافة إلى تبادل الأدوار ما بين الرجال والنساء وتشبه النساء بالرجال وارتداء ملابسهم وتقمص سلوكهم وتشبه الرجال بالنساء وارتداء أزيائهن وتقمص سلوكهن تحت عنوان حرية اختيار الهوية الجندرية وبالنتيجة مسخ الفطرة الإنسانية السليمة وفساد الإنسان وهدم الكيان العائلي والاجتماعي من الأساس.

المحور الأول: بيان الفرق بين الجندر والحركة النسوية

هناك مصطلحان مصطلح الجندرية ومصطلح الحركة النسوية، الجندر هي كلمة انجليزية من أصل لاتيني وتعني الجنس ذكر وأنثى، ولكن استخدم في عدة معاني أخرى بينها قاسم مشترك؛ وهو رفض تجذر الوضع الأنثوي والوضع الذكوري؛ أي ليس هناك صفة حتمية اسمها الأنوثة، وليس هناك صفة حتمية اسمها الذكورة، وتوضيح ذلك عندما نراجع موسوعة «ستانفورد الفلسفية» نجد أنها تفرق بين الجنس وو الجندر، الجنس هي صفة يكتسبها الإنسان من عامل بيولوجي؛ أي أن صفة الأنوثة أو صفة الذكورة تكتسب من خلال الهرمونات ومن خلال الأعضاء التناسلية والجينات، إذن الجنس صفة ثابتة يكتسبها الإنسان من عوامل بيولوجية ترجع إلى الجينات أو الهرمونات أو الأعضاء التناسلية، بينما الجندر صفة وهوية يكتسبها الإنسان من

عوامل اجتماعية كموقع هذا الإنسان في الأسرة، ودوره الاجتماعي، سلوكه، هويته الرسمية، والقانونية، كل هذه العوامل تحدد هويته أنه رجل أو امرأة، إذن ليس هناك ملازمة بين الطبيعة التكوينية والطبيعة الاجتماعية، لا ملازمة ولا سببيه، قد يكون هو بطبيعته التكوينية أنثة لكنه يحمل هوية الرجل، وقد يكون بطبيعته التكوينية ذكر لكنه يحمل هوية الأنثى، يكتسب كل من الجنسين جندرا يتناسب مع موقعه الاجتماعي، ويتناسب مع سلوكه، ويتناسب مع هويته القانونية أو الرسمية، لذلك عندما نرجع إلى الموسوعة البريطانية نرى أنها تقول أن «الجندر» هو شعور كلٍ بالذكورة أو الأنوثة لا أنه ذكر أو أنثى بل بما يشعر، شعور كل من الطرفين بهوية معينة نتيجة العوامل النفسية والعوامل الاجتماعية، لذلك الحركة الجندرية أصرت على التغيير وإلغاء الأدوار مما يعني أنه من الممكن للرجل أن يقوم بدور الأم، ويمكن للأنثى أن تقوم بدور الأب، ولا مائزة بينهما من حيث الأدوار».

و يؤكد الاستاذ الخباز كذلك على أن: مصطلح الحركة النسوية نظرية مرحلة ضمت مدارس مختلفة وضمت اتجاهات متاينة، تذكر الباحثة خديجة العزيزي في كتابها «الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي» أن الحركة النسوية تضمن عدة مدارس منها النزعة الأنثوية المتطرفة التي تهدم كل أشكال وأنساق الترابط بين البشر، ومنها النزعة الأنثوية التي تتمركز حول الأنثى، «سيمون دي بيفور» فيلسوفة فرنسية لديها كتاب اسمه «الجنس الآخر» وتذكر في كتابها أن الزواج والأسرة هي سجن للمرأة؛ لأن الأسرة تحطم طموحات المرأة وأحلامها وآمالها، لذلك لا يمكن للمرأة أن تأخذ دورها إلا بتجاوز هذا السجن، وعندها كلمة معروفة وهي لا يولد الإنسان رجلا بل يصير رجلا، يعني يكسب من المجتمع

صفة الرجولة وإلا يمكن هو أنثى، ولا يولد الإنسان امرأة بل يصير امرأة؛ يعني ممكن هو ذكر ويصبح امرأة نتيجة المحيط الاجتماعي والعوامل النفسية والاجتماعية.

و هناك النزعة الأنثوية أو الحركة النسوية الليبرالية وهي منتشرة في المجتمع الخليجي والدول العربية؛ وهي التي تدعو إلى المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات بين الذكر والأنثى، بحيث لا يبقى تمايز بين كل منهما من حيث الدور ومن حيث الأداء. وكذلك هناك الحركة النسوية الراديكالية التي تعتبر أن الرجل هو المشكلة، وأن الرجل هو المسؤول عن استغلال المرأة وعن قمع المرأة وعن حصرها في المنزل حتى يقتل طموحاتها وأحلامها وتطلعاتها. لذلك نحن أمام اتجاهين اتجاه أصلا يلغي الفوارق بين الرجل والمرأة وبالتالي هو يلغي الدور التي تتميز به الأنثى، وواضح أن أهم دور تتميز به الأنثى هو كونها ربة منزل وكونها مصدر لتربية الأطفال، إلغاء هذا الدور بالنتيجة سيلغي كيان الأسرة الذي هو أهم المؤسسات الاجتماعية، وأما التيار الثاني الذي يعترف بالفروق بين الرجل والمرأة لكنه مع اعترافه بالفروق يدعو بكل قوة إلى المساواة والتماثل في الحقوق والواجبات بين الطرفين وبين الجنسين، فلهذا هذه الحركات النسوية التي هبت الآن على الدول العربية والإسلامية ومنها المجتمعات الخليجية بشكل واضح لها تداعيات خطيرة مستقبلية كما حدثت في الغرب تماما؛ لأن نتيجة هذه الحركات هو سحق إنسانية المرأة، وإنسانية المرأة تتجلى في الدور الأسري وما تقدمه من عطاء وما تمنحه من بذل، فعندما يسد أمامها هذا الباب تسحق إنسانيتها ويزج بها في المصانع والمقاولات التجارية والأعمال الشاقة، لتعيش كل يومها تكدح من أجل تحصيل لقمة

العيش، مما يحرمها عن ذلك الدور الذي ينسجم مع طبيعتها الأنثوية وينسجم مع فطرتها وحقيقتها.

المحور الثاني: في تداعيات هذه الحركة على الواقع الاجتماعي

تداعيات هذه الظاهرة وهذه الحركة النسوية وآثارها الخطيرة على المجتمع الإسلامي:

الأثر الأول: هدم دعائم الأسرة

ما دامت الحركة النسوية تعتبر أن أهم عامل لمعاناة المرأة ومأساتها هو وجودها داخل الأسرة وداخل كيان الزوجية، فهذا يشجع الفتيات الفتيات على عدم الزواج أو تأخيره لفترة طويلة، باعتبار أن الأسرة تقيد طموحاتها وتحجم آمالها وتطلعاتها.

الأثر الثاني: تدنيس موقع الأمومة

هذا الموقع العظيم بما يحمل من بذل وتضحية وإيثار وعطاء أصبحت الحركة النسوية تنادي بأن موقع الأمومة هو موقع ثانوي وهامشي لا قيمة له، والمهم أن المرأة تثبت جدارتها في ميدان العمل لا في ميدان الأمومة، وأن الأمومة مجرد صفة ثانوية لا أكثر من ذلك، لذلك حتى مع وجود يوم عالمي باسم يوم الأم مع ذلك هذا اليوم العالمي بدأ يخفت ويتضاءل نتيجة هذه الصيحات، أن الأمومة عمل تستطيع أن تقوم به الخادمة والشغالة ودور الحضانة ورياض الأطفال ولا حاجة لأن تنهك الأم وتتعب نفسها في القيام بهذا الدور، لهذا مثل هذه الحركات تدعو إلى التقليل من شأن دور الأمومة، بينما إذا نظرنا فهناك الكثير من النساء يرون أن دورهن في الأسرة في أن تكون مصنعا ومهدا لإنشاء مواطنين صالحين ومواطنات صالحات، ترى أن دورها الذي ينسجم مع طبيعتها هو دورها كأم من خلال الأسرة فلماذا نحن نصادر هؤلاء وندعوهن للخروج إلى ميدان العمل بكل وسيلة وتهميش دور الأمومة؟! ليس من الصائب قانونيا ولا أخلاقيا زج

المرأة التي هي غير مقتنعة بهذا الدور إلى أن تتخلى عن الدور الأسري وتتجه إلى دور آخر، المفروض أن مبادئ الحرية الفكرية ومبادئ الحرية القانونية تفرض أن المرأة هي التي تختار قرارها وهي التي تقرر الدور الذي ينسجم مع طبيعتها، فإذا اختارت أن تكون أما وزوجة وتقوم برعاية الأسرة وتغذيتها واحتضانها فلا معنى للوقوف أماما وهي تمارس دورها الطبيعي.

الأثر الثالث: الدعوى إلى الإجهاض:

بمعنى أن المرأة من حقها أن لا تحمل وإذا حملت من حقها أن تجهض لأن الإجهاض يخلصها من قيود الإنجاب والحمل والإرضاع وما أشبه ذلك، وهذا الامر سيؤدي إلى الحد من الإنجاب وتقليل النوع البشري وهذه الفكرة هي من متبنيات الماسونية العالمية لتقليص السكان في العالم لغرض السيطرة عليه بشكل كامل.

الأثر الرابع: فتح الباب أمام الحرية الجنسية بألوانها المختلفة

و هذه دعوة واضحة للتحلل الجنسي والميوعة وانتهاك الحدود الأخلاقية والشرعية من خلال التثقيف للزنا ن المثليين والمحارم وممارسة اللواط والسحاق تحت عنوان الزواج في الكنائس والمحاكم اللاشرعية في بعض البلدان الغربية وهناك تداعيات وآثار خطيرة تترتب تحت عناوين اتساع الحركة النسوية خصوصا في الدول الشرق أوسطية:

المحور الثالث: في النقد والملاحظة على هذه التيارات المتنوعة:

الحركة النسوية تعتمد على ركيزتين: ركيزة فلسفية وركيزة قانونية.

أولاً: الركيزة الفلسفية:

هي التي تثبتها «سيمون دي بيفور» في كتابها «الجنس الآخر» أن الرجل والمرأة جنس واحد ليس هناك

جنسان ونوعان، صحيح أن هناك فوارق طبيعية ولكنها لا قيمة لها، الرجل والمرأة ينحدران من جنس واحد وأصل واحد ويمتلكان الصفات الثلاث: العقل، الإرادة، والحرية، فلأن كل منهما يمتلك هذه العناصر الثلاثة إذن المرأة إنسان واعي مستقل، وصاحب قرار مستقل لا يمكن أن نخضعه لقيادة الرجل، طبعا هي تأثرت بزوجها الفيلسوف الفرنسي الوجودي المشهور سارتر وتأثرت بنظرته أن الكيان الوجودي للرجل والمرأة كيان واحد ولا ميز بينهما من هذه الجهة.

ثانيًا: الركيزة النسوية الراديكالية:

استغلت هذه الركيزة الفلسفية ولذلك طرحت على أنه يمكن للفئات من النساء أن يعشن بلا رجال ويستغنين عن الرجال، تعيش المرأة مع المرأة بدون حاجة إلى أن تكون هناك علاقة بينهما وبين الرجل، وأما الحركة النسوية الليبرالية فركزت على الركيزة الثانية وهي الركيزة القانونية تقول: ما دام كل منهما إنسان وكل منهما يمتلك عقل وإرادة وحرية إذن يجب أن تكون الحقوق متماثلة، ويجب أن يكون هناك مساواة تامة؛ لأن الحركة النسوية تستند إلى فقرات في مفردات هيئة الأمم المتحدة، وتدعو الحكومات والمؤسسات وجميع المنظمات الحقوقية في العالم إلى لائحة المساواة التامة في الحقوق بين الرجل والمرأة في مجال العمل وفي مجال التعليم وفي المجالات المؤسسية المختلفة بناءً على ذلك، من هنا نفهم أن هناك ركيزتان فلسفية وقانونية.

الملاحظات التي أكد عليها السيد الخباز على هذه الظاهرة بتبنياتها المختلفة:

١- **الملاحظة الأولى**: المرأة مربية والرجل يقود الأسرة فهذه هي

الأدوار الطبيعية المعروفة، فلو فرضنا أن هذه الأدوار هي أدوار اجتماعية؛ أي أدوار لا ترجع لطبيعة الإنسان، وإنما هي أدوار فرضتها الثقافة التاريخية وفرضتها عملية اجتماعية بعيدة المدى وإلا ما كان الناس هكذا، لو فرضنا ذلك لا يمكن تجاهل الاختلافات الفسيولوجية بين الرجل والمرأة، المرأة تملك الاستعداد للدورة الشهرية وللحمل والولادة والإرضاع، وهي ليست تغيرات جسمية وليست تغيرات فسيولوجية فقط، بل تفرض هذه الاستعدادات تفاعلات نفسية وتفاعلات فكرية تفرزها عن الرجل شاءت أم أبت. فهذه الاختلافات الفسيولوجية بين الجنسين تفرض حتما اختلافات سيكولوجية بينهما، أي تفرض اختلافات نفسية وتفرض اختلافات فكرية شاء كل من الجنسين، هو أمر تفرضه الفطرة والطبيعة ويفرضه الواقع، لذلك لا يمكن التغاضي عن الاختلافات الفسيولوجية والسيكولوجية بين الطرفين، بل يؤكد علم النفس الاجتماعي أن النظر العاطفي من قبل الرجل للمرأة يختلف عن النظر العاطفي من قبل المرأة للرجل، النظر العاطفي من الرجل للمرأة هو الحاجة إلى السكينة والاستقرار، والنظر العاطفي من المرأة للرجل هو حاجتها للدفء والحماية والحضن الذي يحتضنها، كل ممنهما تختلف عاطفته تجاه الآخر، ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾: [الروم: ٢١]

و يؤكد الخباز في دراسته كذلك أن «بيتر سون» عالم النفس الغربي المشهور وله صيت واسع يقول: لأ يمكن إلغاء الفروق الجوهرية بين الرجل والمرأة والبناء على قانون المساواة بينهما، بل لابد من التفصيل والتدقيق في هذه المسألة ولا يمكن إلغاء هذه الفروق لحساب شيء آخر،

وهذه الفروق بين الرجل والمرأة ليست فروق تفضيلية؛ بمعنى أن الرجل أفضل من المرأة أو أن المرأة أفضل من الرجل، بل إن هذه الفروق جعلت العلاقة علاقة تكامل، وكل منهما يكمل الآخر. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُم لِباسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] كل يكمل الآخر تماما كما في اختلاف البشر في القدرات، هناك ذكي وهناك أذكى، هناك شخص لديه قدرة عقلية، وهناك شخص لديه قدرة بدنية وهناك شخص لديه قدرة فنية، وهناك شخص لديه قدرة رياضية، وهناك شخص لديه قدرة مهنية، كلها قدرات وزعها الله بين البشر، فهل اختلاف القدرات تفضيلط؟ أبدا بل إن اختلاف القدرات لكي يتكامل البشر بعضهم ببعض ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنَّا خَلَقنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلنَاكَمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتعَارَفوا**﴾ [الحجرات: ١٣] ليستفيد بعضكم من بعض، لتتلقح تجاربكم ومعارفكم ﴿**إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتقَاكم**﴾ [الحجرات ١٣] تماما مثل أعضاء البدن، البصر والسمع والشم كل حاسة لها دور معين وتحتاج إلى الحاسة الأخرى، والإنسان لا يتكامل إلا بحواسه الخمس مع أن لكل حاسة قدرة متميزة، كذلك المجتمع لا يتكامل إلا بقدرات وطاقات متنوعة ذكر وأنثى، لذلك يقول القرآن الكريم وهو يتحدث عن تمايز الأدوار: ﴿**إِنَّ المُسلِمِينَ وَالمُسلِمَاتِ وَالمؤمِنِينَ والمؤمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ والقانتَاتِ والصَّادقين والصادقات والصَّابرين والصَّابرات والخَاشِعينَ والخاشعاتِ وَالمُتَصَّدقينَ وَالمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمينَ والصَّائماتِ والحَافِظينَ فروجَهُم وَالحافِظاتِ والذَّاكِراتِ وَالذَّاكِرينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكرات أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغفِرَةً وأَجْرًا عَظِميَا**﴾ [الأحزاب: ٣٥] فاختلاف الأدوار واتلاف المواقع هو نتيجة اختلاف القدرات، إذن لا يمكن

التغاضي عن هذا الاختلاف.

٢. **الملاحظة الثانية**: لنفترض جدلا أن اختلاف الأدوار نشأ من عملية تاريخية وأنه ليس اختلاف طبيعي كون الأنثى أما وكون الرجل أبا، بل اختلاف نشأ عن بناء اجتماعي وتصالح اجتماعي على ممر التاريخ، فلو افترضنا ذلك ففي أي لحظة من لحظات التاريخ تحول المجتمع من ندين إلى أم وأب، إلأى زوج وزوجة؟ يعني هذا من يدعي هذه الدعوة أن البشر كانوا يعيشون في حالة ندية الذكر والأنثى كل منهما ند للآخر وكل منهما في عرض الآخر وبعدها نتيجة بناءات اجتماعية وعادات وتقاليد وثقافات أصبحت هذه أم وهذا أب وهذا زوج وهذه زوجة، لو فرضنا هذا فمتى حصل هذا؟ وفي أي لحظة تاريخية تحول المجتمع من تعامل الندية إلى اختلاف في الأدوار؟

لا يوجد لا مؤرخ ذكر ولا أثر من الآثار يدل على أن المجتمع مر بتاريخ الندية ثم تحول إلى توزيع في الأدوار نتيجة اختلاف الطبائع، من الواضح أن صياغة المجتمع بهذه الصياغة رجل والمرأة، زوج وزوجة، أب وأم، أن هذه الصياغة الاجتماعية جاءت نتيجة الاختلافات الطبيعية، بمعنى أن البشرية حينما التفتت إلى أن المرأة تملك صفات عاطفية لا يمكلها الرجل وأن الرجل يملك سمات قيادية لا تملكها المرأة وزع الأدوار حسب الاختلاف الطبيعي بينهما، لا أن هذه الاختلافات جاءت نتيجة خلفية اجتماعية بالعكس الخلفية الاجتماعية هي التي جاءت نتيجة اختلاف الطبائع بين الطرفين وبين الجنسين، إذن في أي لحظة تاريخية اختلف الدور! لا يوجد أي شاهد تاريخي على هذا، ولذلك إذا رجعنا إلى علم النفس الاجتماعي نراه يؤكد أن الرجل كلما كانت صفات الذكورة فيه أكثر يميل إلى الأنثى التي صفات فيها الأنوثة أكثر، والأنثى التي صفات الأنوثة فيها أكثر تميل إلى الرجل الذي

فيه صفات الذكورة أكثر، فلا يميل الرجل إلى الأنثى التي بها صفة ذكورية، ولا تميل الأنثى إلى الرجل الذي فيه صفة أنثوية، كل منهما يميل إلى المختلف لا إلى المتفق هكذا خلقوا، خلق الطرفان وميولهم الطبيعية إلى المختلف لا إلى المتفق، الرجل يميل إلى الأنثى المتمحضة في الطبيعة الأنثوية، والأنثى تميل إلى الرجل المتمحض في الطبيعة الذكرية، هذه قاعدة سيكولوجية موجودة في علم النفس الاجتماعي ولا يمكن التغافل عنها ولا يمكن تجاهلها.

٣- **الملاحظة الثالثة**: التي طرحها الخباز كذلك: عندما استشهد بقول الباحثة الأمريكية «كارول جيليغان» لديها ملاحظة على ما تطرحه الحركة النسوية فتقول: كل من الطرفين الذكر والأنثى، والرجل والمرأة يعش حس المسؤولية، لأن طبيعة الإنسان الإحساس بالمسؤولية، ﴿**كُلُّ امرئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ [الطور: ٢١] ﴿**وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**﴾ [النجم: ٣٩-٤٠] كل إنسان يعيش حس المسؤولية، وكل من الجنسين يعيش حس المسؤولية تجاه الآخر، لكنهما يختلفان في الدوافع، الرجل يعش حس المسؤولية لكن بنزعة قانونية حقوقية، والمرأة تعيش حس المسؤولية لكن بنزعة أخلاقية اجتماعية، أي أن الرجل حينما يتجه للمسؤولية تراه يركز على الحقوق وعلى قانون العدالة، الرجل يركز على نظرة الاستحقاق ويطالب بتطبيق العدالة وإعطائه حقه الكامل، هذه نزعة موجودة في الرجل، أما المرأة تتجه إلى المسؤولية بشعور التضحية والإيثار، والعفو والتسامح، فإذا حملت مسؤولية الأسرة أو إدارة مكان معين فهي لا تتحمل المسؤولية بروح العدالة وتطبيق القانون، بل تتحمل المسؤولية بروح الإيثار والتضحية والتسامح والعفو والرأفة، هكذا طبيعة المرأة.

و لـذلك فاتجـاه الرجـل لتحمـل المسؤولية يكون بنزعة فردانية، واتجاه المرأة نحو المسؤولية بنزعة اجتماعية وأخلاقية، ولهذا تحلت الأم بالإيثار والتضحية والعطاء المجاني اللا مقابل بشيء في سبيل زوجها وأولادها وأسرتها لأن طبيعتها بنيت على ذلك، فمن هنا أن الدعوة لتحرير المرأة من ميدان الأسرة ونقلها إلى ميدان العمل بتمامه هو عبارة عن تهميش هذه المبادئ الخلقية، وتهميش هذه المبادئ يعني إلغاء الأسرة وإلغاء كيانها، لأنه من المستحيل أن الأسرة تتحول إلى مؤسسة وظيفية، يكون فيها الرجل موظف والمرأة موظفة، الأسرة لا يمكن أن تقوم على الروح الوظيفية، ولا يمكن أن تقوم على الندية بين الطرفين، فالأسرة لا تقوم إلى على المبادئ الخلقية من الإيثار والتضحية والعطاء المتبادل بين الطرفين، ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧] فعندما يُطلب من الرجل أن يتحول إلى الأم فيعمل في وظيفتها، ويطلب من الأنثى أن تدير العمل ﴿**وَلا تَتَمَنَّوا مَا فضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتُسَبْنَ وَاسْألوا اللهَ مِنْ فَضلِهِ إنَّ اللهَ كانَ بكلِّ شيءٍ عَليما**﴾ [النساء: ٣٢] لم يقل أن الرجل أفضل المرأة، ولا المرأة أفضل من الرجل، كل منهما في طاقته أفضل من الآخر.

من هنا «جيليغان» تقول أن هناك شيء اسمه أخلاق الرعاية والعناية، وهذه الأخلاق متوفرة في الأنثى أكثر من توفرها في الرجل، فلا يمكن وضع الرجل مكان الأنثى أو وضع الأنثى مكان الرجل.

أما المحور الرابع الذي تطرق اليه السيد الخباز: في بيان المفهوم الإسلامي نحو دور كل من الرجل والمرأة تجاه الآخر.

عندها ركز على القيمة الدينية التي

تعتمد على ركائز ثلاث:

الركيـزة الأولى: هنـاك فـرق بـين الهدف وبين الأدوار، فما هو الهدف من وجـود الرجـل ومـا هـو الهـدف مـن وجـود المـرأة؟ وهـل هنـاك هـدف لوجود المرأة يختلف عـن الهـدف مـن وجود الرجل أو العكس؟

الهدف من وجـود الرجـل والمـرأة واحـد لأن كـل مـن الرجـل والمـرأة إنسـان، وكـل إنسـان يحمـل العقـل والإرادة وحـس المسـؤولية، لـذلك الهدف من وجودهما هدف واحد وهو إعـمار الأرض وإقامـة الحضـارة، وتجسيد العبـادة واقـد استشـهد بعـدة آيات كريمات بهذا الخصوص:

- ﴿**هَـوَ أنشَـأَكُمْ مِّـنَ الأرضِ وَاستعمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١]

- ﴿**الـذي خَلَـقَ المَـوْتَ والحَيَـاةَ لِيَبلُـوَكُمْ أَيُّكُـم أَحسَـنُ عَمَـلًا وَهُـوَ العَزِيزُ الغَفُور**﴾ [الملك: ٢]

- ﴿**مَنْ عَمِلَ صَـالِحًا مِـنْ ذَكَـرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مؤمِنٌ فلنُحيينَّهُ حَيَاةً طَيِّبَـة**﴾ [النجل: ٩٧]

- ﴿**إِنَّـا عَرَضـنَا الأَمَانَـةَ عَـلى السَّماواتِ والأرضِ وَالجِبَـالِ فـأَبَيْنَ أَنْ يُحمِلنَهَا وَأشفَقنَ مِنها وَحَمَلَها الإنسـانُ إِنَّه كانَ ظلومًا جَهُـولا**﴾ [الأحـزاب: ٧٢]

- ويقول وهـو يخاطـب الإنسـان: ﴿**بَـل الإنسـانُ عَـلَى نفسِـهِ بَصِـيرة**﴾ [االقيامة: ١٤]

- ﴿**يَا أَيُّها الإِنسانُ إِنَّـكَ كَـادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا فمُلاقيهِ**﴾ [الإنشقاق: ٦]

- ﴿**يَا أَيُّها الإِنْسَانُ مَا غـرَّكَ بِرَبِّـكَ الكَـريم * الَّـذي خَلَقَـكَ فَسَـوَّاكَ فَعَـدَلَكَ * في أيِّ صُـورةٍ مَـا شـاءَ ركَبَكْ**﴾ [الإنفطار: ٦-٨] فالإنسـان بما هو إنسان له هـدف واحـد ذكـر أو أنثـى وهـو إعـمار الأرض، وتجسـيد العبادة على الارض

- ﴿**وَ مَا خلقـتُ الجِـنَّ الإِنْـسَ إِلَّا لِيَعبُدُونَ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

إذن الهدف واحد لكن الأدوار في تحقيق ذلك الهدف تختلف بين الرجل والمرأة، بنظرة قانونية عندما نرجع إلى علم القانون فإنه يقول بأنه لا يمكن وضع قانون واحد لكل المستويات، بل لابد أن يراعي في القانون اختلاف الموقع الاجتماعي لكل طرف، والموقع الاجتماعي لكل طرف يتحدد بما قدم من أدوار وإنجازات، وهذه الإنجازات إنما تتحدد بمقتضى طاقاتك وقابلياتك، مستحيل أن يكون جميع الناس جورها الاجتماعي واحد وموقعها واحد، تختلف البشر في مواقعها الاجتماعية نتيجة اختلاف إنجازاتها، واختلاف إنجازاتها ينشأ عن اختلاف طاقاتها وقابلياتها، فما دام للمرأة طاقة وللرجل طاقة مختلفة إذن سيختلف الموقع الاجتماعي، وإذا اختلف الموقع الاجتماعي فمن الطبيعي أن تختلف الحقوق والقوانين بين الرجل والمرأة، لجل ذلك القانون الإسلامي روعي فيه اختلاف الموقع الاجتماعي بين الرجل والمرأة وقسمت الأدوار حسب اختلاف الطبائع وحسب اختلاف الطاقات.

الركيزة الثانية: القاعدة الأولى هي المساواة بين الرجل والمرأة في التكاليف والواجبات ولكن هناك استثناء من هذه القاعدة في بعض المواطن نتيجة الأسرة، مثلا لا يمكن أن يتساويا في الدور الأسرى، نتيجة اختلاف طاقة كل منهما عن الآخر، وهذا الاختلاف يفترض أن للأم دورا وللأب دورا وللأخت دورا وللأخ دورا، ونتيجة اختلاف الطاقات اختلاف الموقع الأسري بين كل منهما والآخر.

الركيزة الثالثة: ربما البعض يقول أن الإسلام يمنع عمل المرأة، ويمنع أن تكون المرأة تاجرة أو رئيسة شركة، أو أن تكون كابتن طيار، أو مهندسة بترول، ولكن الصحيح أن الإسلام لا يمنع المرأة أن تنتهج عملا ميدانيا

خارج الأسرة، ولكن ما هو المعيار في عمل المرأة هذا هو الأمر المهم. وبهذا نرى الفرق بين اتجاه الحركة الجندرية وبين الفكر الإسلامي ان اتجاه الحركة النسوية الجندرية يرى أن المعيار في عمل المرأة هو المعيار في عمل الرجل، فمن حق المرأة أن تكتسب ثروة، ومن حق المرأة أن يكون لها موقع ريادي، وفي بناء الدولة، وفي بناء المجتمع كما للرجل تماما، إذن المعيار في عمل المرأة هو معيار مادي ووضعي بحت. بينما الاتجاه الإسلامي يقول من حق المرأة أن تكتسب ثروة وأن يكون لها عنوان اجتماعي من خلال كونها مديرية شركة أو مديرة مقاولات ما دامت في حدود شرعية لا توقعها في أسر شهوي أو علاقات غير مشروعة، لكن المعيار في عمل المرأة أعمق من ذلك، فالمعيار معيار رسالي وليس معيارا ماديا، ليست قيمة المرأة في أن تكون لها ثروة وليست قيمة المرأة بأن يكون لها لقب اجتماعي وليست قيمة المرأة أن تكون صفا إلى صف الرجل، هناك معيار أعمق من ذلك، معيار رسالي أنيط بالمرأة وهو أن تكون هذه المرأة مصدرا للإنسان الصالح.

و بهذا نرى ان الامم المتحدة تدفع باتجاه أن تكون حرية اختيار (الهوية الجندرية والتحول الجنسي) من حقوق الإنسان الدولية واعتبار الهوية الجندرية هي الهوية الوحيدة المعترف بها دوليا. وتقسم وتصنف مواثيق الامم المتحدة الشاذين إلى اقسام واصناف عدة يجمعها الشذوذ وسلوك قوم لوط والزنى والسحاق والتحول الجنسي من ذكر لأنثى وبالعكس، وينضم الجميع تحت ما يسمى بـ "مجتمع المثليين (الشاذين) أو مجتمع الميم أو تجمع أل جي بي تي كيو LGBTQ".

محاضرة لآية الله الشيخ حسن الجواهري
أستاذ بحث الخارج في الحوزة العلمية / النجف الأشرف

محاربة اللّه والدين بعنوان الجندر أو النوع الاجتماعي

جاءتني تساؤلات كثيرة عن كيفية إجابة الشباب حول هذه الكذبة أو النظرية الجديدة (الجندر) للوقوف أمام الدين وتهديمه.

أقول: لا داعي للقلق من هذا الشعار (النظرية) الجندر أو النوع الاجتماعي وان كان يسوق على انه حقيقة علمية وصل إليها العلم. وذلك: لان الصراع بين الحقّ والباطل «أو قل الدين واللادين» كان موجوداً سابقا ولا زال هو محتدم على الساحة وسيبقى. وهذا هو الامتحان الذي جعله الله للعباد الذي ينجح بعضهم فيه ويسقط البعض.

فالصراعات على طول التاريخ وستستمر إلى الأبد مادام هناك شيطان أقسم ان يضل الناس ويخدعهم ويأمرهم بتغيير خلق الله تعالى، قال تعالى على لسان الشيطان في مواجهة مع الله ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ**

﴿الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[٦] فالشيطان أقسم أنه بصدد تغيير الخلقة فيجعل الذكر أنثى تقارب وجعل الأنثى ذكرا تساحق وهذا هو ما يعبر عنه بالمثلية الذي تدعو إليه الدول الكافرة التي تريد تغيير دين الناس إلى اللادين.

واليك الصراعات السابقة في الساحة الأرضية:

١ ـ صراع بين الإنسان واللإنسان (الحيوان)، فقد أراد الله للإنسان أن يتبع عقله ويتبع العدل، وأراد الحيوان أن لا يتبع إلا الشهوات كالحيوان، ولا يتبع العدل، بل يتبع نظام الغابة الذي يقول: أن الغلبة للقوي ضد الضعيف فلا عدل في قانون الغابة.

٢ ـ صراع بين التوحيد والصدق مع الشرك والكذب والنفاق.

٣ ـ صراع بين إبراهيم عليه السلام ومن كان معه لتنفيذ أمر الله تعالى «الذي هو أمر امتحاني بذبح ولده» وبين الشيطان الذي يريد من إبراهيم أن يعصي الله تعالى. فرماه إبراهيم بسبع حصيات في المواطن التي تمثل له يريد إغواءه في عصيان أمر الله تعالى، فصارت سنّة للحاج في اليوم العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة الحرام.

٤ـ صراع بين علي ومعاوية، وصار علي ضحية نتيجة شيطنة معاوية، الذي غير دين الله من نظام الخلافة إلى نظام وسقط علي ونجح معاوية الملوكية والوراثة، ولكن بعد ذلك انتبه العالم إلى شيطنة معاوية وما جره من ويلات على الإسلام فصار سبة لكل مهتدي ملتزم بالدين.

٥ـ صراع بين الحسين ومنهجه الديني النبوي الإصلاحي وبين المنهج الأموي الذي اضر بالدين أيما إضرار، فسقط الحسين عليه السلام ضحية الفساد والابتعاد عن الدين هو وأهل بيته

وأصحابه حتى طفله الرضيع، وسيرت بنات الرسالة اسارى إلى يزيد بحجة أنهم خوارج خرجوا على الحاكم الإسلامي العادل.

ولا زال الصراع بين منهج الحسين عليه السلام ومنهج يزيد في كل عرصات الأرض «كل يوم عاشوراء وكل ارض كربلاء».

٦ ـ صراع بين الإسلام والشيوعية التي تعادي الإسلام.

٧ ـ صراع بين الإسلام كنظام اجتماعي واقتصادي وسياسي وأخلاقي وتشريعي وبين الاشتراكية.

٨ ـ صراع بين الإسلام كنظام اجتماعي وبين الرأسمالية المادية التي أصبحت وبالا على البشر في ظلمها وتعديها على الدول الضعيفة والنامية.

٩ ـ صراع بين الإسلام كنظام وبين الوجودية كفلسفة معادية للدين.

١٠ ـ صراع بين الإسلام الذي يجيب على الأسئلة الجادة:

من أين جئنا؟

من جاء بنا؟

إلى أين نسير؟

وما هو الهدف من خلقنا؟

وبين اللا أدرية التي لا تعي ولا تجيب على هذه الأسئلة وهذه الأسئلة لم يجب عليها إلا الدين الذي يقول أن الدنيا قنطرة للوصول إلى الحياة الحقيقية في الآخرة فلابد من رضا الرحمن ومخالفة الشيطان ليعيش الإنسان عيشة كريمة تناسبه ويترك الحيوانية والشيطانية ما دام هناك غاية يريد الله للإنسان ان يصل إليها وهي الكمال والعدالة.

١١ ـ صراع بين الإسلام والعلمانية، فأنه صراع بين مبدأين، مبدأ ديني، ومبدأ دنيوي لا يعترف بالدين ولا يعترف بالله ولا يعترف بالأخلاق.

١٢ ـ صراع بين الإسلام والحداثة كمبدأ يهدم الدين ويعارض الدين، ويجعل الدين والله وفلسفة الدين

خرافة يجب القضاء عليها.

كل هذه الصراعات التي يفوز بها الباطل، ثم بعد فترة يتبين للبشر الخطأ الذي وقعوا فيه ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن حصل الفساد والظلم والاضطهاد نتيجة هذه الأنظمة الفاسدة التي تنبتها القوى الشريرة وطبقتها بالقوة.

وفي الأيام القريبة الماضية، فكرة الحداثة وبريقها، واتّباع البشر والدول المسيطرة على أنها هي الفكرة المنجية للبشرية من المظالم والفساد.

وما أن انقضى زمن قصير حتى تبين ظلم الحداثة وفسادها وتخريب البيئة وإشاعة الحروب والمظالم بين العباد حتى نادوا بالرجوع إلى ما قبل الحداثة نتيجة ما شاهدوا من فضاعة منهج الحداثة وويلاتها.

وفي هذه الأيام: جاءت الدعوة إلى الجندر «النوع الاجتماعي» والمثلية وتغيير الثوابت وادعاء أن الذكورة والأنوثة ليست من خلق الله، بل هي صناعة مجتمعية، فيمكن للأنثى أن تصبح ذكرا وللذكر أن يصبح أنثى لان الذكورة والأنوثة صناعة مجتمعية وتربية خاصة كالعالم يصبح عالما بالتربية الخاصة، وكالسارق يكون سارقا بالتربية الخاصة والحداد والنجار.

والرياضي الذي يكون هكذا بالتربية والصناعة المجتمعية، فلم يفرقوا بين الصفات والعلوم التي تحصل بالتربية وبين الأمور الذاتية التي تكون ثابتة غير متغيرة لأنها من صناعة الله تعالى فهم يقولون: عندنا امرأة بجسد رجل وعندنا رجل بجسد امرأة.

وأنا على يقين بانهيار هذه الدعوة الظالمة، ويثبت بطلانها حتى لمن لم يؤمن بالدين وبفلسفة الدين، ولكن بعد ان تمنّى البشرية بالويلات والفساد والظلم وظهور

الأوبئة والأمراض نتيجة مخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وقد قال نبي الله لوط: لمن نهج منهج المثلية ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[٧] أي هنّ طاهرات فاتجه والى الزواج فلا تتبعوا النجاسة والفساد ومخالفة الفطرة التي فيها العذاب والأمراض والويلات.

إذا مصطلح الجندر الذي هو يعني فلسفة النوع الاجتماعي، ينشأ من فلسفة معادية للدين، وهي الفلسفة المادية التي تقبلها جمع كثير من الناس لأنها تحاكي شهواتهم ورغباتهم الجنسية.

ومن فروع هذه الفلسفة المعادية للدين:

١ ـ المطالبة بالمتع الجنسية بلا حد، فلا حاجة إلى الزواج.

٢ ـ هدم المنظومة الأبوية للأسرة.

٣ ـ لا حاجة إلى مطالبة البنت بالحياء دون الرجل.

٤ ـ الدعوة إلى عدم الزواج، لان الزواج هو لون من ألوان العبودية للزوج.

٥ ـ يعتبر الزواج تابوت (نعش) تدق مساميره الأطفال.

فالأطفال هم الذين يدعمون الأسرة وهم يدعمون عبودية المرأة للرجل، فتكون المرأة منقادة للرجل بواسطة الأطفال.

٦- لا بأس بتناول الكحول والمخدرات واغتصاب الأطفال جنسيا.

وهذه الأمور الستة وغيرها كان الذي يدعو إليها أو يقبلها أو يطبقها مكانه السجن، ولكن الآن اعتمدتها الأمم المتحدة في ميثاقها، واعتبرتها من أسس الحركة النسوية، ولذا قالوا هذه الكذبة وهي:

إن المرأة لا تولد امرأة، بل تصبح كذلك بالتربية. أي أن صفة الأنثى والرجل ليست صفة ذاتية، بل هي

صفة متغيرة، وليست صفة حقيقية بل هي صفة عرضية اجتماعية، فهم يحاربون كل ثابت ويريدون تغييره.

نقول: أننا لا ننفي وجود صفات ترجع إلى التربية مثل الطب والهندسة والفقاهة والرياضة والفن والرقص والغناء، إلا أن التربية لا تشمل صيرورة الرجل أنثى بالتربية، أو صيرورة المرأة رجلا بالتربية أما الجندر «النوع الاجتماعي» والفلسفة المادية تقول: إن الرجولة أيضا تربية والأنوثة أيضا تربية اجتماعية فالأعضاء التناسلية ليس لها علاقة بالذكر والأنثى، ولذا إذا ربيت المرأة ذكرا ستكون ذكرا وكذا الذكر إذا ربي أنثى سيكون أنثى.

ولهذا يمكن ان يصير الرجل أنثى أو العكس، وهذا هو الخطأ الفظيع، حيث إن الأنثى لا تربى أنثى بل خلقت أنثى لوجود الأعضاء التناسلية لها، ورغبات النساء، وكذلك الرجل لا يربى رجلا، بل خلق هكذا لوجود الأعضاء التناسلية ورغبات الرجولة فيه، فالرجولة والأنوثة أمران ثابتان لا يتغيران، فإذا أراد الإنسان أن يغيرهم أفلا يتغيران، بل يبقى الرجل رجلا والمرأة امرأة، ومحاولة التغيير محرمة كما أشارت الآية القرآنية على لسان أبليس ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾[٨] فتكون المرأة واطئة "وهو المساحقة" والرجل مؤطوء "وهو اللواط المحرم" الذي تدعو إليه الدول التي لا تؤمن بدين وأخذت الفلسفة منهجاً لها.

إذا هذه النظرية نشأت من قوم لا يفرقون بين الحقيقة والكذب، بل جعلت الأكاذيب على أنها حقيقة.

والدليل على كذبهم هو تخبطهم في تعريف الجندر.

فانهم في مرة يقولون: ان الجندر هو الجنس.

وفي مرة ترجموها إلى الجنوسية.

ثم قالوا: ان الجندر هو النوع

الاجتماعي (مذكر ومؤنث).

ثم قالوا: ان الجندر هو المساواة بين البشر.

أقول:

١ـ هذا التخبط في تعريف الجندر الذي هو في الحقيقة معاداة الدين وضرب الثوابت، وإيجاد دين جديد لا يؤمن بالثوابت ولا بالفضائل ولا بالآخرة ولا بالأخلاق، وإذا كان الجندر يعني المساواة، فان مصطلح المساواة موجود عندنا، فلماذا جاؤوا بمصطلح الجندر أو «النوع الاجتماعي».

٢ـ نعم من يؤمن بالفلسفة المادية له الحق أن يفرع عليها هذه الأمور أما العجب فهو أن يأتي شخص يتقمص الشريعة ويؤمن بالإسلام وبالآخرة يتبنى هذا المنهج السيئ، يتمسك بنظرية النوع الاجتماعي والجندر، من دون أن يعي ان هذا هو محاربة الدين، فهو يقول: إذا أردنا أن نقف على فقه المرأة بشكل عام فلابد من التطرق لعلم الجندر.

وإذا كان هذا الشخص البذيء الفهم الذي يدعي المرجعية وهو بعيد عن الفهم الفقهي يقدم نظرية الجندر والنوع الاجتماعي على أنها حقيقة وعلم فهو يعني انه لا يعي ما يقول حينما يقول أيضا: ولابد من إتباع الدراسات الحديثة المبتنية على علم الجندر. ولكن هذا السيئ الفكر والصيت لا يعلم أن الجندر نظرية ليست علما ولا حقيقة، ولكن الكفر المعادي للدين يريد فرض هذه النظرية على أنها حقيقة.

بل ان الكفر ومعاداة الدين فرضوا على الدول الضعيفة بالإضافة إلى الكافرة بوضع ميزانيات للنوع الاجتماعي، ودرج نظرية الجندر في المؤسسات والتربية والصحة والتخطيط وحتى في البرلمانات حيث قالوا «كذبا» ان هذه النظرية تحل المشاكل التي تعاني منها البشرية وهذا

كذب صريح، بل نظرية الجندر هي محاولة لمحاربة الدين، فهي كذبة انطلت على بعض من يدعي العلم وعلى بعض المثقفين وقليلي المعرفة بالدين وفلسفته[٩].

٣ـ قد يقال: لماذا قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾[١٠] فان هذا هو أمر بديهي وهو حقيقة لا إشكال فيها، فلماذا ذكرها الله في كتابه الكريم؟

الجواب: أراد الله أن يكذّب نظرية النوع الاجتماعي ونظرية الجندر الذي قُبلت من قبل هيئة الأمم المتحدة على أنها حقيقة. وقالوا عنها: إنها حقيقة علمية اجتماعية، فالقرآن أراد تكذيب هذا الذي يحصل في هذا الزمان من الدعوة إلى المثلية والجندر والنوع الاجتماعي وتهديم الدين.

نعم: كان الكفر العالمي يحارب الدين سرا.

والآن يحاربون الدين علنا، بالكذب الذي يريدون له أن يكون حقيقة، علمية.

ماذا يجب علينا في مواجهة هذه الكذبة؟

الجواب:

١ـ علينا إفشاء ونشر ثقافة وفلسفة الدين ودحر الفلسفة المادية.

٢ ـ الدعوة إلى الفطرة الإنسانية وإنكار وردع ما يضادها.

فالفطرة تدعو إلى الزواج «رجل بأنثى» فينتج منه الينبوع البشري «الأطفال» الذين يكوّنون الأسرة التي تجلب إلى الأفراد الطمأنينة والابتهاج.

٣ـ إفهام الشباب والشابات: بان طريق الجندر ونظريته هو طريق الانتحار وليس هو طريق السلامة. وهو طريق الأوبئة والأمراض والعبث من دون هدف غير الجنس المنفلت الذي يؤدي إلى فساد البشر وزوال الأخلاق والمبادئ الفاضلة.

٤ ـ إن النظريات لا يجوز أن تطبق قبل أن يرى مساوئها لو طبقت، وضررها على البشرية، فلابد من البحث عن نتائج نظرية الجندر، هل أنها ستجلب لنا الأمراض؟ أو تجلب لنا اللامبالاة؟ أو تخرجنا من طريق الفضيلة إلى طريق الرذيلة؟ أو تسبب لنا الحروب؟ أو تؤدي إلى إيقاف النوع البشري والينبوع البشري؟ فتكون نظرية الجندر سلاحا يقضي على النوع البشري فهو سلاح قتل جماعي للبشر إذا اكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وهذا هو السلاح المحرم الذي يكون سببا في قتل النوع البشري.

٥ـ **وأخيرا**: إذا طبّقت هذه النظرية من دون معرفة أضرارها على البشر فتكون جريمة بحق البشرية، لان ما يحدث من أضرار بسببها لا يمكن إيقافه أو تبديله، أو الاعتذار عنه، وهذا طريق لا يؤيده العلم.

٦ـ أنا على يقين بان غضب الله سيحل على المجتمع الذي يقبل الجندر ويدعو إلى المثلية ونبذ الدين والأخلاق والفضائل كما حصل العذاب على قوم لوط عندما أعلنوا عملهم الذي هو خلاف الفطرة (الشذوذ). قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ.... *... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾[١١].

أقول: ولا ينفع ما ذكرته الأمانة العامة لمجلس الوزراء في العراق ـ بكتابها المؤرخ ٢٧/ ٧/ ٢٠٢٣ وعممته على الدوائر الرسمية وخلاصته: إن المراد من «النوع الاجتماعي» الذي أشير إلى التأكيد عليه ويشير إلى الأدوار المحددة اجتماعيا بين النساء والرجال، وأن هذه الأدوار تكتسب بالتعليم، والذي تبنّاه العراق وعبر عنه في المحافل الدولية من خلال (الرجل والمرأة) الوزارة الخارجية، أن المراد منه هو شمول كلا الجنسين،

ويرتبط بدورها في المجتمع وكما هو موضح في الملحق الرابع لإعلان «بيجين» ١٩٩٥م ولا يشير إلى أي معنى آخر مما يتعارض مع الدستور وترفضه القيم الدينية والأخلاقية لمجتمعنا.

وعلى وفق هذا المفهوم جرى التعامل مع مصطلح «النوع الاجتماعي» العراق... ونرفض معنى «الشذوذ في الدول الإسلامية والعربية، ومنها والمثلية»، وقد ذيل هذا بتوقيع. د/ فرهاد نعمة الله حسين ٢٧ / ٧ / ٢٠٢٣م نائب الأمين العام لمجلس الوزراء.

أقول: وإنما لا ينفع، لأن هذا المصطلح هو مصطلح غربي، وضع لمعنى معيّن، وهو المثلية الجنسية، والشذوذ وعدم الفرق أبدا بين الذكر والأنثى، وان الذكورة والأنوثة هي صناعة مجتمعية، وكانت فلسفة هذا الاصطلاح هي القضاء على الأديان ومعاداة الخالق في تشريعاته وزوال الأخلاق في المجتمع، فهو له معنى عالمي وضع من قبل هيئة الأمم المتحدة «وإن لم يصرح به» فعندما يقبل به العراق بواسطة وزير خارجيته يعني قبل به بمعناه الذي أوجده الغرب وتبنّته الأمم المتحدة، ولا ينفع هذا التوضيح كما يقال: إن المراد من الحداثة التي نادى بها الغرب يوما ما هو الحديث والجديد، وكذلك العلمانية بينما معناها عالميا هو محاربة الدين والله تعالى والأخلاق، والقطيعة مع كل وحي متمثل بالقرآن والسنّة. وكما يقال عن الربا المحرم التسهيلات النبيلة، وكما يقال عن الغناء والرقص: إنه لوحة فنية، فكل هذه المعاني هي لإغواء الرأي العام الذي يعارض معاداة الله، وما هي إلا مرحلة لأجل القضاء على ما أشار إليه القرآن: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ**...﴾ [١٢] والتأكيد على أن

الـذكورة والأنوثـة صـناعة مجتمعيـة، فيمكن تغيـير هـذا الخلـق الفطـري فيكون الذكر أنثى بالتربيـة والصـناعة المجتمعية، وكذا العكس والسـعي إلى المسـاواة بـين الـذكر والأنثـى فلـيس عنـدنا إلا نـوع واحـد وهـو النـوع المجتمعـي فـلا أسرة ولا أولاد، ولا وسيلة للينبوع البـشري فهـو سـلاح فتـاك للقتـل الجماعي. فلاحظ.

كـما لا يغـير مـن الأمـر أن كلمـة «جندر» ليس معناها المثلية، بـل المثلية هـي تـرانس جنـدر «gender – Trans» فان هذه اللفظـة المركبـة تعنـي التحـول جنـسيا فيتـصرف الـذكر مثـل الأنثـى ويتعامـل معـه عـلى هـذا الأسـاس في المجتمـع، أو ان الأنثـى تتـصرف مثـل الذكر. وإنما لا يغير من الأمـر شـيئا لأن الجنـدر «gender» هي اختـصار لكلمـة تـرانس جنـدر «gender – Trans» فـالأمر لا يختلـف باختصـار اللفظـة أو عـدم اختصـارها. كـما ان المثليـة التـي يـدعى إليهـا وجعلـت جماعة لها حقوق وتمثل في البرلمـان ولهـم علـم وتـدعمها الهيـآت الدوليـة التـي لا تـؤمن بـدين أصـلا هـي في الانجليزيـة « sexual – homo» وهـي تعنـي ممارسـة اللـواط، وممارسة المساحقة. فلاحظ.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش:

[١] النساء: ١١٩.

[٢] هود: ٧٨

[٣] النساء: ١١٩.

[٤] والعجـب أيضـا ممـن يـدعي نُصـرة الـدين والمرجعيـة "كمـا يـدّعي" شـارك في المـؤتمر السنوي الثالث عشر للمرأة، قد صرّح بأمور خطيرة في مصطلحات معاصرة، وهو غافل عـن المعـنى المـراد ممّـن طرحهـا في السـاحة ويريد تطبيقها بالقوة.

فقـال في كلمتـه: نؤكـد عـلى الأمـور التالية:

١ - نؤكد على نشر ثقافة «الجندر» بما تتضمنه بكلّ تفاصيلها.

٢ - نؤكد على حذف التفاسير الخاطئة للنصوص الدينيّة كتاباً وسنّة.

٣ - نؤكد على التزام العراق بالمعاهدات الدوليّة التي انضمّ لها العراق بالخصوص فيما يخصّ المرأة.

ويرد على ما قاله من الأمور الثلاثة:

أولاً: انّ مصطلح الجندر ليس معناه الوقوف أمام العنف ضد المرأة، بل هو مصطلح جديد لمحاربة الدين، وهو فلسفة ماديّة تحارب الفلسفة التي تمثل الأديان فلماذا ذكر هذا المصطلح الذي لم يتنبه لما يراد منه من معاداة الدين والله والأخلاق وتغيير خلق الله؟!

وحتى إذا كان يراد به المساواة بين الرجل والمرأة، إلّا انه بمطالبته بتطبيق المساواة بكلّ تفاصيلها خطأ واضح، لان التساوي بين رجل والمرأة بكل تفاصيلها يعني التساوي في الميراث والمناصب وأحكام الزواج، فالزوج إذا كان له الحقّ في تعدّد الزوجات وفي الطلاق، فالمرأة كذلك.

ثانياً: إن التطرّق لحذف التفاسير الخاطئة للنصوص الدينية كتاباً وسنّة من دون بيان مَنْ هو الشخص الذي يشخصّ الخطأ يؤدّي إلى إعطاء زمام الأمور لكل فرد يرى أن هذا التفسير لآيات الجهاد خطأ يجب أن يحذف مع أن الصحيح هو إيكال هذه الأمور إلى ذوي الاختصاص الذين يعلمون بخطأ التفاسير للنصوص الدينية وليس للأفراد أو الحكومات التي تريد تغيير التفاسير لهوى في نفسها أو لمحاربة الدين وفلسفته.

أقول: إن المراد من التفاسير الخاطئة لنصوص القرآن والسنّة يعني عند المطالب بها هو تغيير نفس النصوص، لا حذف التفسير الخاطئ منها، فأنهم يريدون حذف آيات الجهاد وحذف آيات الميراث التي تفرق بين ارث الولد وأخته، وحذف قيمومة الرجل على المرأة التي صرّح بها القرآن، وحذف كون الطلاق بيد الزوج وحذف عدم تمكن الزوجة من اتخاذ خليل أو زوج آخر، وهكذا يريدون أن يُبطلوا هذا الدين الذي هو عبارة عن القرآن والسنة وإيجاد دين جديد ينسجم مع متبنيّات الفلسفة المعادية للدين تماماً.

ثالثاً: ما معنى أن يطالب العراق بتنفيذ المعاهدات الدوليّة فيما يخصّ المرأة، وهل المعاهدات الدولية فيما يخصّ المرأة هي معاهدات صحيحة، سليمة، وغير مخالفة للشريعة؟!

ونحن نعلم أن المعاهدات الدولية فيما يخصّ المرأة فيها ما هو مخالف للدين ولضرورات الدين.

والعراق كدولة لو وقّعت على معاهدة دولية لضغط عليها أو لأنها لم ترَ التوجه الديني حاكماً، فما هو المبرّر لمطالبتك بتنفيذ هذه المعاهدات التي لا تكون منسجمة مع الدين؟!

وأخيراً: نرجو ممن تكلّم بهذا الكلام مراجعة كلامه والتنبيه إلى أن ثقافة الجندر ليست صحيحة بل هي مخالفة للأديان وتسعى لتهديم الأديان بأكملها.

[٥] الحجرات: ٥.

[٦] هود: ٨٢-٨٣.

[٧] الحجرات: ٥.

مطارحات فكريّة

أ. سامر توفيق
باحث في الفكر الإسلامي- لبنان.

نقد الإلحاد الغربيّ في أعمال الشيخ محمد رضا الأصفهاني الداروينيّة اختياراً

تمهيد

استفزت رؤية دارون منذ بداياتها مطلقَ العقلَ الدينيّ من حيث بروز تعارضها مع ما هو معلوم الثبوت في نصوص الكتب الوحيانيّة من إبداع خلق الإنسان من تراب -كما ورد في العهد القديم (سفر التكوين، ٢/ ٧): «وجبل الربُّ الإلهُ آدمَ ترابًا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حيّةً». وفي القرآن الكريم (سورة ص: ٧١-٧٢): ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي..﴾ - التي اصطُلح عليها «نظريّة الخلق» مقابل «نظريّة التطوّر». وزاد في الطين بلّة أن استقبلت الاتجاهات المادّيّة والإلحاديّة واللاأدريّة والماركسيّة... كتاب دارون بحفاوة، موظّفةً رؤيته في استغناء المادّة عن الخالق في اكتساب التنوّع الأحيائيّ، مستغلّة لها في بروباغندا التناقض بين الدين والعلم التجريبيّ. في هذا المناخ، وانطلاقًا من الباعث الدينيّ، أبصرت النور مجموعة تجارب في نقد الداروينيّة، مثل: جمال الدين الأفغانيّ ١٨٣٨-١٨٩٧م في «رسالة الرد على الدهريّين»، مهدي بن محمد النجفي الأصفهانيّ (و. ١٢٩٨هـ) في كتابه المرتفق، إبراهيم بن عيسى الحورانيّ ١٨٤٤-١٩١٦م، في كتابيه: «مناهج الحكماء في النشوء والارتقاء» الصادر في بيروت ١٨٨٤م، و«الحقّ اليقين في الردّ على بطل داروين» الصادر عام ١٨٨٦م، حسين الجسر ١٨٤٥-١٩٠٩م في كتابه الرسالة الحميديّة المنشورة سنة ١٨٨٨م، عبد الكريم الزنجانيّ ١٨٨٧-١٩٦٨م في «دروس الفلسفة»، مصطفى صبري ١٨٦٩-١٩٥٤ في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين»، وأبو المجد محمّد رضا النجفيّ الأصفهانيّ ١٨٦١-١٩٤٣م في كتابه «نقد فلسفة دارون»... وآخرون. ولا ريب في أنّ القيمة العلميّة لهذه التجارب متفاوتة، بل لم يوفّق بعضها في فهم الداروينية فضلًا عن نقدها.

وبعد مرور أكثر من ١٦٠ عامًا على صدور كتاب دارون، ما زالت فرضيّته حاضرة بقوّة في طريقة التفكير العلميّ المعاصر، خصوصًا مع استفادة التطوّريّة الجديدة من تقدّم أبحاث البيولوجيا وعلم الأحياء التطوّريّ وعلم الجينات والوراثة والأجنّة والتشريح... فكان لها أنصار كثر في العالم، ليس على مستوى كونها فرضيّة علميّة فحسب، بل بتوظيفها

في توهيم الإله وأسطرة الدين، أمثال: دانيال دينيت[١٣]، وريتشارد دوكينز وغيرهما، وللأخير كتب محوريّة في هذا المجال، «الجين الأنانيّ-١٩٧٦، «الدارونيّة الجديدة صانع الساعات الأعمى-١٩٨٦»، «وهم الإله-٢٠٠٦»... رافضًا كون التعقيد في الكائنات الحيّة دليلًا على وجود التصميم الذكيّ من صانع حكيم، معتبرًا أنّ وجوده مجرّد فرضيّة ضعيفة الاحتمال، مُبدِيًا تحيّره من أنّه كيف يمكن أن يكون العالِم المتطوّر مؤمنًا بالله... وما زال الصراع الفكريّ حول الدارونيّة واللوازم الإلحاديّة التي رتّبها عليها أنصارها دائرًا علميًّا بين البيولوجيّين المثبتين والمضعّفين، وأيديولوجيًّا بين الملحدين والمتديّنين، خصوصًا حركة التصميم الذكي intelligent design movement.

في هذه المقالة نتوقّف عند دراسة نموذج من التجارب الإسلاميّة الأولى في نقد الدارونيّة، وهي محاولة أبي المجد الأصفهانيّ في كتابه نقد فلسفة دارون، منطلقين من التعريف المختصر بشخصيّته.

ملخّص سيرة أبي المجد الأصفهانيّ

أبو المجد محمّد الرضا[١٤] بن محمّد حسين بن محمّد باقر بن الشيخ محمّد تقي صاحب هداية المسترشدين. وُلد يوم ٢٠ المحرم ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) في النجف الأشرف، سافر عام ١٢٩٦هـ إلى أصفهان، ماكثًا فيها بضع سنين، ثم رجع إلى النجف الأشرف سنة ١٣٠٠هـ. ومكث في النجف إلى أن وقعت الحرب العامّة الأوربائيّة، فخرج إلى كربلاء وسكن فيها، ثمّ خرج منها مع زميله مؤسّس حوزة قم العلّامة الشيخ عبد الكريم الحائريّ، متوجّهًا إلى أصفهان، فوصل إليها سنة ١٣٣٤هـ. انشغل في أصفهان بالتدريس والتأليف، وفي عام ١٣٤٤هـ سافر إلى مدينة قم المقدّسة بدعوة من زميله الحائريّ، درس في

المدرسة الفيضيّة لمدّة سنتين، تتلمذ فيها على يديه مجموعة من الفقهاء، منهم: الإمام روح الله الخمينيّ، السيّد محمّد رضا الكلبايكانيّ، السيّد شهاب الدين المرعشي النجفيّ، ثمّ عاد إلى أصفهان، واستقرّ بها حتّى وفاته في ٢٤ من المحرّم ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م).

تتلمذ في مراحله الدراسيّة المختلفة على يد كبار مراجع الشيعة في عصره، مثل: شيخ الشريعة الأصفهانيّ، السيّد محمّد كاظم اليزديّ، الأخوند الخراسانيّ، السيّد محمّد الفشاركي، الميرزا حسين النوري، والآغا رضا الهمداني... وحضر في العلوم الرياضيّة على الميرزا حبيب الله العراقيّ، وتعلّم الشعر وعلوم الأدب بمعاشرة السيّد جعفر الحلّيّ.

له العديد من المؤلَّفات بالعربيّة والفارسيّة، منها: ذخائر المجتهدين في شرح معالم الدين، وقاية الأذهان والألباب ولباب أُصول السنّة والكتاب، سمط الآل في الوضع والاستعمال، تنبيهات دليل الانسداد، الحواشي على أكر ثاوذوسيوس، الردّ على البهائيّة- وأخيرًا وليس آخرًا «نقد فلسفة دارون».

يقول آغا بزرك الطهرانيّ في بيان سموّ مقامه الاجتهاديّ والعلميّ: «... جدّ في الاشتغال في دوري الشباب والكهولة، حتى أصاب من كلّ علم حظًّا، وفاق كثيرًا من أقرانه في الجامعيّة والتفنّن، فقد برع في المعقول والمنقول، وبرز بين الأعلام متميّزًا بالفضل، مشارًا إليه بالنبوغ والعبقريّة، وذلك لتوفّر المواهب والقابليّات عنده، حيث خصّه الله بذكاء مفرط، وحافظة عجيبة، واستعداد فطريّ، وعشق للفضل، وقد جعلت منه هذه العوامل إنسانًا فذًّا، وشخصيّة علميّة رصينة، تلتقي عندها الفضائل. كان مجتهدًا في الفقه، محيطًا بأصوله وفروعه، متبحّرًا في الأصول متقنًا لمباحثه ومسائله، متضلّعًا في الفلسفة، خبيرًا بالتفسير،

بارعًا في الكلام والعلوم الرياضيّة، وله في كلّ ذلك آراء ناضجة ونظريات صائبة، أضف إلى ذلك نبوغه في الأدب والشعر...»[١٥].

«نقد فلسفة دارون»

يمثّل كتاب «نقد فلسفة دارون» لأبي المجد الأصفهانيّ المصدر الوحيد لفهم طبيعة نقده لفلسفة الغرب، وهو في ثلاثة أجزاء، طبع اثنان منها [للمرّة الأولى] في بغداد سنة ١٣٣١هـ [١٩١٢م تقريبًا]، ولم يزل الثالث مخطوطًا وكان الأغا الطهراني رآه عنده بخطّه[١٦]. وحديثًا (٢٠١٥م) أُعيد طبع الكتاب في بيروت، مؤسّسة التاريخ العربيّ، بتحقيق الدكتور حامد ناجي الأصفهانيّ، ولكنّه خالٍ من الجزء الثالث أيضًا، ولا نملك معلومات عنه.

لقيَ الكتاب إعجاب بعض المفكّرين، نذكر نماذج من أقوالهم:

يقول الآغا بزرك: «... الجزء الأول ممحّض للنقود والردود على خصوص فلسفة داروين، المشهورة بفلسفة النشوء والارتقاء، كما أنّ فيه جميع شبهات المبطلة والردّ عليها، وهو من أحسن ما كُتب في إثبات الواجب والردّ على كلمات المادّيّين، كما أنّه أشهر مؤلّفات المترجَم له ومن أجلّ آثاره، وبعد انتشاره بمدّة ردّ عليه الشاعر العراقيّ الكبير الفيلسوف جميل الزهاويّ بكتاب خاصّ، فأجابه الرضا أيضًا بكتابه (القول الجميل) إلى صدقي جميل»[١٧].

ويقول عبّاس محمود العقّاد (١٨٨٩-١٩٦٤م): «... وبعد كتابة الردّ على الدهريّين بنحو من ثلاثين سنة ظهر كتاب «نقد فلسفة داروين»، لمؤلفه الشيخ محمد رضا آل العلّامة التقيّ الأصفهانيّ، وهو باحث فاضل، من علماء الشيعة بكربلاء المعلّى، تحرّى النظر في مجموعة وافية من مراجع النشوء العربيّة والإفرنجيّة التي وصلت إلى الشرق الإسلاميّ...

وأنصف المؤلّف مذهب النشوء، فلم يحسبه من مذاهب الإلحاد والتعطيل، لأنّ القول بالنشوء لا يقتضي إنكار الخالق، وإنّما يتسرّب إليه الإلحاد من تفسيرات المادّيّين لمقدّماته على الوجه الذي يوافق نتائجهم المقرّرة عندهم قبل ظهوره...»[18].

ويقول الأستاذ محمّد أحمد باشميل (١٩١٧-٢٠٠٥م): «لقد ناقش فلاسفة الشرق وجهابذة الفكر من المسلمين والمسيحيّين نظريّة داروين مناقشة واعية مركّزة، عارضوا مذهب داروين، وبرهنوا على اهتزاز هذا المذهب وعدم صحّته... ولعلّ أقوى هؤلاء العلماء حجّة في نقض نظرية داروين... علّامة الشيعة الكبير الشيخ محمّد رضا آل العلّامة التقي الأصفهانيّ من علماء كربلاء... فقد نقد مذهب داروين، إلّا أنّه -مع عدم تسليمه بصحّة هذا المذهب- كان أخفّ وطأة في هجومه على داروين من الفيلسوف الأفغانيّ، وكان مع ذلك أكثر تعمّقًا في المناقشة، وأكثر دقّة في البحث والمقارنة. ولقد كان العلّامة الشيعيّ -مع رفضه لمذهب داروين- لا يرى في القول بالنشوء والتطوّر والارتقاء أيّ إلحاد أو إنكار للخالق سبحانه وتعالى»[19].

مع ذلك، لم يحظَ الكتاب بمنزلته التي يستحق في المناخ الحوزويّ والأكاديميّ، فإلى تاريخ بحثنا لم نعثر على من قد أوفى نظريّات المؤلّف حقّها بالدراسة والتحقيق، بل يكاد الكتاب يكون مجهولًا عند أهل الاختصاص في علم الكلام والفلسفة.

دوافع نقد الداروينيّة عند أبي المجد الأصفهانيّ

يقول أبو المجد: «... إنّما القصد [في هذه الرسالة] النظر في الأمور الجوهريّة التي يتركّب منها الرأي الداروينيّ، وهي النشوء والارتقاء وتعليلها بالانتخاب الطبيعيّ، ثمّ البحث في الغرض الذي أوجب

انتحال المعطّلين لهذا الرأي وإعجابهم به، وتأليف الكتب والمقالات فيه، أعني الاستغناء به عن الصانع الحكيم وإقامة الانتخاب الطبيعيّ مقام الخالق جلّت آلاؤه».

ويقول: «سألت عن أمر هذه الآراء المنسوبة إلى داروين المعروفة فلسفة النشوء والارتقاء، وذكرت ما بلغ من شيوعها عند الغربيّين، وانتحال جماعة لها من الشرقيّين، وجعلهم ذلك أساسًا للزندقة والإلحاد من الجحود للصانع والإنكار للشرائع... وطلبت أن أرسم لك فيها فرقانًا بَيْنَ باطلها وحقِّها وميزانًا تُمَيِّز به كذبها من صدقها..»[٢٠].

ويقول في موضع ثالث: «الغرض الذي أنشأنا هذه الرسالة له، هو دفع شبهات المعطّلين من أهل هذه الأهواء، وإيضاح أنّ التوحيد هو المقصد الوحيد الذي ينتهي إليه جميع الآراء، وبيان أنّ وجود الصانع أظهر من أن يخالفه رأي فلسفيّ أو نظر علميّ، وأنّ هذه الآراء لو تمّت فلا تفضي إلى التعطيل ومفترضاتهم إن صحّت فلا تغني عن الخالق الجليل»[٢١].

يفيد تحليل هذه النصوص وغيرها، أنّ الدافع المحرّك لأبي المجد في مشروع نقده فلسفة دارون يتلخّص في أربعة أمور:

الأوّل: إثبات الصانع وتوحيده.

الثاني: الدفاع عن مطلق الدين أو الدين المطلق وليس خصوص الإسلام، إذ يقول: «وليعلم أنّ كتابي هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق في قبال اللادين المحض...»[٢٢].

الثالث: إنكار الملازمة بين نتائج الدارونيّة وبين الإلحاد، فلو فُرِض التسليم بصحّة فرضيّة دارون، فإنّها لا تستلزم نفي وجود الخالق.

والرابع: نفي تعارض العلم والدين، وبهذا يمكن القول إنّ أبا المجد الأصفهانيّ من أوائل العلماء

المسلمين الذين طرقوا باب البحث حول ثنائيّة العلم والدين، فهو يعتبر رسالته «موضوعة لتطبيق نواميس الطبيعة على الحقائق الدينيّة»[٢٣].

منهج أبي المجد ومصادره المعرفيّة في نقد الدراونيّة

يقول أبو المجد: «... كان أقرب مسالك الكلام إلى ما قصدناه وألصقها بما أردناه، هو الجري على أصولهم ما أمكن، وإن كانت فاسدة، وتسليمها وإن كانت غير مسلّمة، ودفع شبهاتهم على مقتضيات أصولهم ومقرّرات رؤسائهم، فإذا بَنيتُ الردّ على أصل أو التزمت بفرض لدى النقض، فلا يلزم اعتقادي بذلك الأصل أو الفرض، فكثيرًا ما أجري فيها على أمور لا أعتقدها لأنّها أقرب إلى أفهامهم وأنسب بما ألفته نفوسهم من مقرّراتهم... وهذه موضوعة لقوم لا تطمئنّ قلوبهم بغير قوى الطبيعة ولا يسلّمون إلّا ما يطابق نواميسها المعلومة.... وإن كان مذهبي سواه واعتمادي على غيره»[٢٤].

يلتزم أبو المجد في نقده فلسفة دارون بالمنهج الجدليّ، وهو أحد الصناعات الخمس في المنطق الأرسطيّ، الذي لا يهدف إلى إنتاج المعرفة المضمونة الحقّانيّة بما هي مطابقة للواقع –بخلاف البرهان–، بل إلزام الخصم بالاعتراف بالنتائج التي يريدها المُجادِل في مقام النقاش العلميّ. مع ذلك، لم يكن هدفه متمحِّضًا في الجدليّة، بمعنى مجرّد إرادة غلبة الخصم بأيّ وسيلة متاحة، وإنّما إقناعه بالحقيقة إن أمكن؛ لذا يقول: «... ولهم علينا أن نستعمل الإنصاف لا المكابرة، فإنّما غرضنا تمحيص الحقائق لا المجادلة»[٢٥]. ونفيه المجادلة هنا، ليس بمعناها المنطقيّ، بل اللغويّ المرادف للمغالطة المنطقيّة؛ إذ» الجدل لغة هو اللّدد واللّجاج في الخصومة بالكلام مقارِنًا غالبًا لاستعمال الحيلة الخارجة أحيانًا عن العدل والإنصاف، ولذا

نهت الشريعة الإسلاميّة عن المجادلة»[٢٦]. والشاهد، اعترافه باستعمال أسلوب المجادلة في ضوء المنطق القرآنيّ، فيقول: «... توخيّنا حسن المجادلة الذي أُمرنا به في محكم الكتاب، فنزهّنا كتابنا عن الشتم والسبّ ونحوهما مما تثير عواصف العصبيّة؛ فتعشى العيون عن النظر إلى الحقيقة العلميّة...»[٢٧]. ويقول: «آن أنْ ننظر إلى هذه الآراء من الجهة العلميّة، والحقيقة ضالّتنا التي ننشدها ونأخذ بها حيث نجدها، نوافق دارون فيما ظهر لنا أنّه الحقّ من آرائه ولا نستنكف من اتّباعه، ونخالفه فيما خالف الحقّ فيه ولا يهولنا كثرة أتباعه، لسنا من أعدائه فنعادي الحقائق ونرفض كلّ ما قال... والموازين العلميّة هي الحاكمة بيننا»[٢٨]. فمن النقاط المهمّة في منهجه النقديّ العدالة النقديّة، أي لم يدفعه خلافه العقديّ مع فلسفة دارون ليتجاوز العدالة والإنصاف، حيث يقول: «لا تَخَلْ أنّي أنهاك عن تعلّم ما اهتدوا إليه من العلوم وتصديق [معطوفة على: أنهاك عن، والمعنى: لا تَخَل أنّي أنهاك عن تصديق] ما اهتدوا إليه من المسائل وأقاموا عليه محكمات الأدلّة، ولا أنّي أشير عليك بأن تبخسهم حقوقهم وتنكر من ذوي الفضل منهم فضله، كيف وهذا الدين الشريف قد أدّبنا بأحسن الآداب، فنهانا عن بخس الناس في محكم الكتاب، وأمرنا مشرّعه ﷺ بأن نستعين في كلّ صنعة بصالحي أهلها، وجعل الحكمة ضالّة المؤمن يطلبها حيث يجدها، ومثّلها أمير المؤمنين إذا كانت في غير أهلها بدرّة في فم خنزير يأخذها المؤمن ويغسلها ثمّ ينتفع بها»[٢٩].

وفيما يتعلّق بمصادر مشروعه النقديّ ومراجع فهمه لفلسفة دارون يلتفت أبو المجد إلى ثغرة غياب النصّ الأصليّ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ القارئ العربيّ لم يطّلع إلّا في حدود عام ١٩١٨م مباشرة على أطروحة دارون

في «أصل الأنواع» الصادر عام ١٨٥٩، وذلك في تعريب إسماعيل مظهر للكتاب، ثمّ إعادة تنقيحه ونشره عام ١٩٢٨م، وهذا يعني أنّ النصّ الداروينيّ لم يعرّب إلّا بعد مرور ما يقارب ٦ سنوات على نشر أبي المجد الأصفهانيّ كتابه، فيقول: «كَتَبَ دارون وسائرُ رؤساء هذه الفلسفة كتبًا عندنا غير موجودة، وبلادنا عن البلاد التي نشأت فيها هذه الآراء بعيدة، وقد طلبناها من مواضعها، وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب إلى زمن وصولها لولا الباعث الدينيّ»[٣٠].

ويقول أيضًا: «وما فيه من النقل فقد تحرّينا فيه أوثق ما عندنا من المصادر، ولم نذكر أسماءها غالبًا طلبًا للاختصار،... ولا نستبعد خطأ الناقل في فهم مراد القائل، ولا تقصير المترجم في أداء مراده، ولكنّا بالإرشاد إلى الأصل المأخوذ منه النقل نُسقِط عنّا ضمان الصِّحة ونُلقي تبعة الخطأ على ناقله»[٣١].

الوعي بطبيعة شبهات الفلسفة الغربيّة

من الخصائص المضيئة في فكر أبي المجد الأصفهانيّ تسليطه الضوء على طبيعة شبهات فلسفة الغرب وتحليلها بطريقة تبيّن وعيه بنقاط قوّتها وانعكاسها السلبيّ على الفكر الدينيّ. ونعالج المسألة ضمن نقطتين:

النقطة الأولى: تقسيمه أدوار الشبهات في خطّ علاقتها مع الدين الإسلاميّ إلى ثلاثة[٣٢]:

الأوّل: شبهات عصر البعثة: وكانت تنحصر في استبعادات فطريّة واستدلالات بسيطة خالية من البراهين والموازين العلميّة، كاستبعاد المعاد، وعلم الله تعالى بالأشياء... وقد عرض القرآن هذه الشبهات وردّ عليها.

الثاني: شبهات العصر العباسيّ: ففيه «نقلت علوم اليونانيّين إلى بلاد المسلمين، وتُدُوْوِلَت بينهم العلوم

العقليّة، وعُرِفت الموازين المنطقيّة، فتهافت عليها الملاحدة والذين في قلوبهم زيغ، ورتّبوا شبهاتهم على الأصول اليونانيّة، وألبسوها حلل البراهين المنطقيّة، وأخذوا مع ذلك يرعبون الناس تارة بأعلام يونانيّة غريبة واصطلاحات علميّة لا عهد للمسلمين بها، وأخرى بإصاباتهم في العلوم التي مباديها حسّيّة أو قريبة من الإحساس كبعض الطِّب والرياضيّات، وظنوا أنّه قد هدموا بذلك أركان الدين، وبلغوا مرامهم من إضلال المسلمين. ولكن لم تدم لهم تلك الفرحة، بل وعادت عليهم وبالًا وترحة، إذ كانت في تلك الآيات التي وردت للعصر الأوّل كنوز مدّخرة لهذا العصر استخرجها علماء الإسلام، وأضافوا إليها ما وصل إليهم من أحاديث صاحب الشريعة والأئمة القائمين مقامه، فأجابوا عن تلك الشبهات بأجوبة مطابقة لمصطلحاتهم مبنيّة على الصحيح من أصولهم، ودفعوا بساطع البرهان ما كان لهم من الأصول الفاسدة... وبرزت الأصول الدينيّة في حلل البراهين العقليّة الجامعة للشروط المنطقيّة»[٣٣].

والدور الثالث: شبهات عصر الاحتكاك بالغرب المعاصر والتأثّر به، حيث قضت المصالح السياسيّة والعلائق التجاريّة الانفتاح على الغرب، خصوصًا مع رؤية المسلمين أنفسهم في حاجة إلى أشياء كثيرة من لوازم المعيشة قد سبقهم الغرب إلى إتقانها أو اختراعها، ففزعوا إلى قوم منهم أرسلوهم إلى تلك البلاد لينقلوا لهم ما ينفعهم في المعاش، فجلبوا إليهم ما لا ينفعهم فيه ويضرّهم في المعاد[٣٤].

والنقطة الثانية، هي القراءة المقارنة بين شبهات الأدوار الثلاثة قوّة وضعفًا، معتبرًا شبهات الدور الأخير أهون من الدورين السابقين، ولكن الضرر منها على الدين أعظم، والخطر الناتج منها أشدّ. أمّا أنّها قصرت عن

شبهات الدور الأوّل، لما فاتها من رونق الفطرة وحسن صبغتها، ولكنّها لبساطتها وعاميّتها زالت سريعًا بمحكمات الآيات والأدلّة العلميّة. وأمّا أنّها لم تلحق شبهات الدور الثاني فلقوّة مبانيه واستحكام أدلّته، حيث كانت مبنيّة على أصول دقيقة واصطلاحات علميّة جليلة، وأذهان عموم الناس بعيدة عن فهمها، وكان لا يخشى الضرر منها إلّا على أناس قليلين صرفوا في تلك العلوم أعمارهم وقليل ما هم.

أمّا الشبهات الحديثة والمعاصرة لفلسفة الغرب، فإنّها مبنيّة غالبًا على تجريبيّات ودعاوى مشاهدات، وقد جعلوا على طبقها اصطلاحات يسهل على عموم الناس معرفتها، وهذا واضح بالمقابلة بين مباحث الهيولى والصورة وأحكام المعلول والعلّة، وبين مباحث هذه الفلسفة واصطلاحاتها من تنازع البقاء وقانون الوراثة والارتقاء.

والأمر الآخر الذي يُلفِت إليه أبو المجد، أنّ علوم اليونان لم تُنقل إلينا إلّا بعد زوال عزّهم وانقراض دولتهم، ولم يكن لهم في ذلك الزمان رعب متمكّن في النفوس ولا هيبة في الصدور، أمّا آراء الغربيّين فقد دخلت بلاد الإسلام وهم في مجدهم ومنتهى سلطنتهم، وقد ملكت عاداتهم وصفاتهم ولغاتهم البلاد القليلة التي لم تملكها سيوفهم جريًا على ناموس القوّة، حتى زعموا أنّهم رُزقوا من العقل والذكاء ما ليس لسواهم، وصار أقوى البراهين في العلميّات أنّ الأفرنج يقولون كذا، وفي العمليّات أنّ البلاد المتمدّنة يفعلون كذا، وعظم الأمر وتفاقم الخطب حتى جرى الاصطلاح في تسمية من يقلّدهم ويتشبّه بهم وإن لم يكن له حظّ من علومهم بـ «المتمدّن» و«المتنوّر»، ونبز من يخلفهم في شيء بـ «الوحشيّ» و«الجاهل» إلى غير ذلك مما يُبكي طَرْفَ المؤمن الغيور دمًا... [٣٥].

ميدان العلم التجريبيّ وإشكاليّاته المنهجيّة

يعتقد أبو المجد أنّ المنهج التجريبيّ أو الاستقرائيّ له ميدانه الخاصّ، وهو عالم المادّة والطبيعة، فلا ينبغي أن يتجاوزه إلى غيره من العوالم الغيبيّة واللامحسوسة. فإرادة فهم عالم ما وراء الطبيعة والغيب في ضوء المنهج العلميّ التجريبيّ يورّط الباحث في آراء فاسدة، فيقتصر ميدان البحث عن ما وراء الطبيعة والغيبيّات على اختصاص المعرفتين الدينيّة والفلسفيّة. وفي السياق، يعاتِبُ أبو المجد دارونَ على تحيّره في كيفيّة التوفيق بين وجود الصانع وبين ثبوت صفة الرحمانيّة له تعالى لعجزه عن إدراك المصالح في خلق ما يرى أنّه شرور، وهي أزمة تورّط فيها كثيرون؛ إذ لم يتمكّنوا من معالجة كيفيّة الجمع بين وجود إله رحيم محبٍّ للخير وبين مشكلة الشرّ في العالم، فكانت حجّتهم ضدّ الله أنّ الكون يبدو في غاية القسوة والظلم -على حدّ تعبير الكاتب الإيرلنديّ C. S. Lewis-، يقول أبو المجد: «وتصدّي هذا الرجل لهذه الشبهة ممّا يُعاتب فيه لتعاطيه ما لا يدخل في فنّه، وتكلّفه ما ليس من وظيفته، فإنّ حلّ هذه الشبهة وأمثالها شأن العلوم الدينيّة وعلم ما وراء الطبيعة، ولا تُحلّ عقدتها بما صرف فيه نقد عمره من جمع صنوف الزيزان وتربية الحمام ونحوهما من تجاربه التي لا تجديه إلّا في آرائه... وكان الأولى لهما [مضافًا إلى ولس] أن يَدَعَا لغيرهما هذا المجال ويقولا: لكلّ فنّ أهل ولكلّ علم رجال»[٣٦].

وفي الجانب المعرفيّ يشخّص مشكلة ناتج المنهج العلميّ والاستقراء -في نصّ يقترب به مع فكرة كارل بوبر في نظريّة التكذيب-: «إنّه -أي العلم- كما تعلم آراء مبنيّة على ناقص الاستقراء، وتعليلات تختلف باختلاف الآراء، تُبنى زمانًا، ثمّ تهدم وتبرم، ثمّ تُنقض... تمرّ على

الناس أيّام يرونها أحسن ما تعلّل به الأشياء، فيأخذون بها، ويظفر قوم بعدهم بأحسن منها فيعدلون عنها، فكأنّ لكلّ تعليل من تعليلات نظام الكون دولة، تحكم زمانًا على العقول، وتقهر سواها، فتحكم كسابقتها حتى تنقضي أيّامها، ويقوم غيرها مقامها.

ويتابع القول: هذا نظام سكون الأرض وحركة الأفلاك، حكم على علماء العالم أكثر من ألفي سنة، وكانت تعدّ من الواضحات الملحقة بالأوّليّات، ويعدّ المنكر لها كالمنكر للبديهيّات، فكم مُلئت الكتب من أوضاع الأفلاك وكيفيّاتها وعدد تداويرها وممثّلاتها، ثمّ انقضت أيّامها فسقطت، وقام بعدها نظام حركة الشمس حول الأرض وحركة السيّارات حول الشمس، ولم تطل أيّامه حتى قام نظام حركة الأرض والسيارات جميعًا حول الشمس. والله سبحانه وحده هو العالم بما يكون بعده، وكانت الحرارة المركزيّة هي التعليل الوحيد لتكوّن البراكين وحدوث الزلازل، إلى أن قام اللورد كلفن فعلّله بغيره ووافقه دارون. إلى غير ذلك مما إحصاؤه خروجٌ عن مقتضى المقام»[٣٧].

وعليه تكون معطيات العلم التجريبيّ متبدّلة ومتغيّرة، فكلّما تقدّمت البشريّة خطوة في الزمان تبيّن خطأ نظريّة لتحلّ محلّها أخرى وهكذا دواليك، فمن سمات النظريّات العلميّة التغيّر واللاثبات.

أمّا الدين في رؤيته فهو» الثابت الذي لا يعتري حقائقه الزوال، ولا تتبدّل على مرور الأعصار، فكلّ حقيقة أخبر بها أوّل المرسلين يؤكّدها خاتم النبيّين، والجميع قد أخبروا بوجود الخالق العظيم ووحدة ذاته وبديع صفاته ووجود الملائكة وثبوت المعاد والحساب والعقاب إلى غير ذلك من الحقائق المعلومة من الأديان. فهل ترى اختلافًا بين النبيّين كما تشاهده بين الطبيعيّين؟! وهل يهدّد الدين

بمثل هذه الآراء الموقّتة أم على الوحي يُخشَى من خيالات دارون؟!»[٣٨].

ويطرح نموذجًا على ذلك -فيه بحسب وصفه موعظة لهؤلاء لو عقلوا وأمثلة لو أنصفوا- فيقول: «كان الدين يخبرنا بمعراج خاتم الأنبياء وأنّ المسيح صعد بجسده الشريف إلى السماء، وكان برهان امتناع الخرق للفلكيّات يعدّ من الممتنعات، فكم من ملحد صال على الدين بهذا الدليل، ومؤمن لم يجد إلى حلّه من سبيل؟! حتى هدم الزمان أساس ذلك البرهان، وزادت قوّة واستحكامًا قواعد الإيمان.

وكان الوحي يخبرنا بأن الله تعالى خلق سبع أرضين، والمسلمون يرتّلون في صلواتهم: سبحان الله ربّ السماوات والسبع وربّ الأرضين السبع، ويخبرهم المعصوم بأنّ هذه قبّة أبينا آدم، وإنّ لله وراء هذه القبة تسعًا وأربعين قبّة، فيها خلق لا يعلمون أنّ الله خلق آدم، وكان البرهان العقليّ يهدّده بأنّ وجود أرض أخرى يستلزم من المحال أحد ثلاثة أشياء: إمّا الخرق والالتيام في الأفلاك، أو لزوم الخلاء، أو عدم كرويّة السماء. ويردف قائلًا: وأنت تعلم قيمة هذه الشبهة وأمثالها اليوم في سوق العلم. ولعمري إنّ العلم لا يتقدّم إلى الارتقاء خطوة، إلّا وتكشف للدين حقائق خفيّة وتزداد أدلّتها قوة...»؛ ولذا لا يرتضي طريقة تأويل الحقائق الدينيّة القطعيّة في ضوء المعطيات العلميّة التخمينيّة، قائلًا: «... **يتّخذه آخر سلاحًا يهدّد به الدين، وبعضهم يوجب على أهل الدين تأويل الحقائق الثابتة فيه، ومنهم من يقسّمها بين العلم والدين كما تقسم الممالك بين السلاطين**»[٣٩].

ويقسّم أبو المجد القضايا العلميّة إلى قسمين:

القضايا العلميّة اليقينيّة، وهي لا تعارض ما هو معلوم الثبوت من الدين، بل هي من جنود الدين في تشييد قواعد التوحيد وصدق النبوة.

القضايا العلميّة التخمينيّة، والتي لا اعتبار لها في معارضتها للدين.

ويقول: «أمّا المسائل اليقينيّة من العلم الثابتة بالبراهين القطعيّة فليس فيها شيء يخالف المعلوم من صحيح الأديان، بل هذا القسم من العلم من أقوى جنود الدين وأحسن أعوانه وهو حليفه الذي لا يفارقه، فهل شّيدت قواعد التوحيد إلّا به؟! وعُرف صدق النبيّين إلّا منه؟! فمن شاء أن يفرّق بين الدين وهذا القسم من العلم فقد ذهب سعيه باطلًا.

وأمّا القسم الذي دليله الحدس والتخمين، وأقصى مدارجه أوّل درجة الظنّ فضلًا عن اليقين، فأسعده ما وافق شيئًا من ظواهر الدين، وأشقاه ما بُلِيَ بتكذيب الصدّيقين». معتبرًا أنّ فرضية دارون تندرج تحت قسم القضايا العلميّة التخمينيّة، قائلًا: «... فهل مبانيها إلّا حدسيّات جيولوجيّة وعمدة أدلّتها الأعضاء الأثيريّة أو الصورة المزوّرة الجنينيّة؟! وسوف تقف على ضعف تلك المباني والأدلّة في النظر العلميّ...». ويتابع قوله: «كان دارون معترفًا بأنّ آراءه تخمينيّة، فقال في كتاب أصل الإنسان: «إنّ كثيرًا من الآراء التي بسطتها تخمينيّة للغاية، ولا أشكّ في أنّه سيتضح فساد بعضها بالبرهان القاطع، ولكنني قد أوضحت الأسباب التي ساقتني إلى التمسّك برأي دون رأي»[٤٠].

معقِّبًا، بأنّ آراء تلك مبانيها وهذه أدلّتها لجدير بأهلها أن لا يحاربوا بها الأديان. ثمّ يناقش حجج الملاحدة ليدلّسوا بها على ضعفاء العقول من أنّ الدين ينافي البحث عن علل الأشياء وأنّه واقف في طريق العلم، وأنّ المؤمنين لا يرون التعليل إلّا بالإرادة الربّانيّة، مجيبًا: «إنّ المؤمنين يمتازون عن الملحدين بأنّهم يثبتون للكون صانعًا حكيمًا خلق المادّة وجعل لها نواميس يجري عليها الأشياء بحسب ما يريد ويشاء، وتلك النواميس

خاضعة لقدرته موجودة بمشيئة، ولا ينكرون قطّ علل الطبيعة، ولا يطفرون مرحلة الأسباب، ومن الكلام المشهور عندهم: «أبى الله أن يجري الأمور إلّا بأسبابها»، ويصفونه تعالت قدرته بمسبِّب الأسباب، وهذا عندهم أتقن للحكمة وأدلّ على العلم والقدرة، وإلّا لم تضرّ بمعتقدهم تنقّلات النطفة تحت نواميسها الثابتة إلى أن تصير طفلًا، ثمّ شابًا وكهلًا، فماذا عليهم من تنقّلات المادّة تحت نواميسها المجعولة لها إلى أن تصير شمسًا وأرضًا إن تمّت الأدلّة العلميّة لها وسلمت من الانتقاد عليها»[٤١]. وسيأتي مزيد معالجة لهذه النقطة في آخر البحث.

دوائر مناقشة أبي المجد للدارونيّة

إذا أردنا أن نرتّب أفكار أبي المجد الأصفهانيّ بطريقة موضوعيّة في مناقشة فرضيّة دارون، فيمكن أن نلّخصها في عدّة نقاط:

الأولى: النقاش العلميّ في الفرضيّة، وهي أنّها مجرّد احتمال لم يرتقِ بعد إلى مستوى أن يكون نظريّة أو حقيقة علميّة، لأنّها تصبح كذلك إذا تراكمت القرائن حولها بنحو تسدّ أبواب الاحتمالات الأخرى. في حين أنّ القرائن والشواهد لا تؤيّد فرضيّة دارون، بل تضعفها أو تنفيها. فيقول: «لو كان الخصم ممن يبني كلامه على قواعد الدليل والبرهان، ويلتزم بالواضحات المقررة في علم الميزان، ويعرف شيئًا من آداب المناظرة وواضحات المسائل الثابتة في العلوم العالية، فيعلم أنّ الاحتمال لا يكفي في الاستدلال، وأنّ على المُستدِل سدّ جميع أبواب الاحتمال، وأنّ الوقوع لا يَثبت بمجرد الإمكان، ويعلم أنّ الملازمة إذا كانت غير بيّنة لا بدّ لها من البيان...»[٤٢].

ومازال النقاش قائمًا حتى لحظتنا هذه حول كون رؤية دارون هل هي مجرّد فرض لا يمكن اختباره أمبريقيًّا

أم أصبحت حقيقة علميّة ثابتة، فبين مناصر لكونها حقيقة علميّة مثل ريتشارد دوكنز -بغض النظر عن إمكانيّة النقد الإبستمولوجيّ لنزعة اليقين التي يتمتّع بها دوكنز- منزلًا التشكيك بالدارونيّة بمنزلة التشكيك بكرويّة الأرض، وبين من يضعّف من علماء الطبيعة والبيولوجيا -خصوصًا في حركة التصميم الذكي أمثال جوناثان ويلز في كتابه Icons of Evolution ٢٠٠٠- رؤية دارون لعدم تراكم كثرة الشواهد والقرائن حولها، وعلى كلّ حال تبقى فرضيّة دارون موضع خلاف بين علماء الطبيعة أنفسهم.

الثانية: فرضيّة دارون بلحاظ ذاتها فيما يتعلّق بأصل الإنسان. ويناقشها من ناحيتين: علميّة، وسيأتي التعرّض لها، والثانية: الدينيّة، حيث يرفضها لتعارضها ما هو ثابت بالقطع في الرؤية الدينيّة من تكريم الإنسان وتشريفه، وخلقه ابتداءً من تراب، فيقول: «... ما يخالف الدين من هذه الآراء [الدارونيّة]، فأعظمها في مبدأ الإنسان، إذ المعلوم بالضرورة من هذا الدين بل ومن أمّهات الأديان الثلاثة أنّ أصل جميع البشر من إنسان ابتدع الله تعالى خلقه من التراب، ومن امرأة خلقها أيضًا، ولم يكونا قبل ذلك حيوانًا ولا نباتًا، فنوع الإنسان مستقلّ في الخلق عن سائر الأنواع، وكونه ضروريًّا واضح لديهم ولدى غيرهم ممن عرف مذهبهم»[٤٣].

وينقد على من حاول -نتيجة انبهاره بالعلم الحديث- تأويل الحقائق الدينيّة في ضوء هذه المعطيات التخمينيّة، كالقول: إنّ مذهب النشوء لا ينافي الدين في حقيقته، فلا بدّ من تطبيق الوحي على الحقائق العلميّة، بحيث يحملون ما استعمل في الدين عن الإنسان بأنّه من باب المجاز دون الحقيقة، ويُشكِل عليهم بأنّه لو اعتُمِد هذا المنهج في تأويل حقائق الدين بالنسبة للنصوص الدالّة على أصل

الإنسان، فإنّه لن يكون تأويلها بأسهل من تأويل ما دلّ على غيره من ضروريّات الأديان، وحينها ماذا تُبقي يد الشبهات من يقينه؟! وكيف تثبت على زعازع الأهواء أصول إيمانه؟!

النقطة الثالثة: مناقشة فرضيّة دارون باعتبار لوازمها، فينكر الملازمة بين التسليم بصحّتها وبين الإلحاد، منطلقًا من قبليّتين عقليّتين مُستدلَّتين، هما: الاعتقاد بالعلّة الفاعليّة والعلّة الغائيّة بمفهوميهما الفلسفيّ والدينيّ، فـ«جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها صنع إله واحد قادر حكيم... خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار»[٤٤]. ويعتقد أنّ الافتراض بأنّ الكائنات الحيّة خُلقت من مواد قبليّة حيوانيّة، بأن يكون أصل الجمل مثلًا ضفدعًا، أو أصل الفيل سنونوًا، فإنّ ذلك لا يضرّ بالاعتقاد بضرورة وجود الصانع الحكيم، بل يؤكّده كون أدلّة الصنع ظاهرة في هذه الكائنات، فيقول: «أمّا كيفيّة الخلق، وأنّ هذه الأنواع كلّها خُلِقت خلقًا مستقلًّا، ووجدت عن كتم العدم ابتداءً، وأنّها لم تتغيّر عمّا كانت عليه في أوّل الخلق، فهذا أمر لم يرد فيه نصٌّ صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة، وسواء أكانت آباء الجمال جمالًا أو كانت ضفادع تنقّ في الماء، والجدّ الأعلى للفيل فيلًا أو سنونوًا يطير في الهواء، فإنّ أدلة الصنع عليهما في الحالين ظاهرة، وفيهما على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة»[٤٥].

وعليه، يستنكر على الملاحدة فرحتهم بفرضيّة دارون وغيرها بجعلها أساسًا للإلحاد، واصفًا لها بأنّها من أغرب الأشياء. ويتابع القول بأنّها أقصى ما يمكن أن تثبته –على علّاتها وضعف أدلّة أكثرها– ليس فيها إلّا بيان ترتيب المخلوقات وكيفيّة الصنع فيها، وأهل الدين لا ينكرون ذلك،

لأنّهم لم يدّعوا أنّ الله تعالى خلق جميع المخلوقات في وقت واحد مستقلًّا عن الآخر، فقانون النموّ التدريجيّ من مادّة قبليّة هو أمر صنعه الله تعالى بلطف حكمته، فلو كان النظام السابق بترتيبه حجّة للمعطّلين على مذهبهم، فالأَوْلى أن يستدلّوا بالنشوء والارتقاء الفرديّ الذي يشاهده كلُّ أحدٍ، فيستدلّوا مثلًا بترتيب خلق الإنسان وتنقّله عن مراتب كثيرة إلى مرتبة النطفة ثمّ المراتب التي يقطعها في الرحم والطوارئ الكثيرة التي تعتريها فيه إلى أن يخرج طفلًا، ثم تنقّله في مدارج الحياة إلى الممات...

ويدعم وجهة نظره بنماذج من تصريحات الآباء المؤسّسين لفرضيّة النشوء والارتقاء:

النموذج الأوّل: دارون نفسه، حيث نَسبَ إليه القول: «إنّ جميع هذه الأجناس أصلها من خمسة أو ستة، نفخ فيه الخالق روح الحياة»[٤٦]، معلّقًا: «دارون نفسه لا ينكر الخالق...»، مستشهدًا بقوله: «إنّ بعض الأفاضل يظهرون اقتناعهم التامّ بأنّ كلّ نوع خُلق بطريقة مستقلّة. أمّا أنا فعلى ما يظهر لي أنّ ما نعرفه من النواميس التي فرضها الخالق على المادّة يطابق بالأكثر ظنّنا»[٤٧].

ونضيف على ما ذكره أبو المجد، قول دارون: «العقل يقول لي: إنّه من الصعب جدًّا، بل من غير الممكن، أن نتصوّر أنّ هذا الكون الهائل الجميل بما فيه من مخلوق يتمتّع بقدرات إنسانيّة كبيرة، قد جاء كنتيجة لصدفة عمياء أو ضرورة؛ لذا عندما أتأمّل، أشعر بأنّي مدفوع للبحث عن سبب أوّل، لديه عقل ذكيّ يشبه بدرجة ما عقل الإنسان، ومن ثمّ أنا أقبل أن يُقال لي إنّي مُوحِّد»[٤٨]. وفي الحدّ الأدنى يكون دارون ربوبيًّا Deist.

النموذج الثاني: لامارك (جان باتيست ١٧٤٤-١٨٢٩م)، -والذي يعتبره أبو المجد بأنّ له الفضل في هذا المذهب والذي لولاه لم يكن دارون؛

ولذا يصحّ اعتباره أب هذا المذهب ومؤسّسه الأوّل- يسلّم بوجود الصانع وينسب إليه الهيولى المركّب منها الكون. ولكن لامارك يعتقد أنّ الخالق بعد أن خلق الهيولى بخصائصها لم يفعل شيئًا وأنّ الحياة والأجسام الآليّة والعقل جميعها نتائج الهيولى ونتائج قواها. ويعقّب أبو المجد بأنّ لامارك لا يخالف أهل الدين في وجود الخالق بل يخالفهم في كيفيّة الخلق، مع أنّ كلامه لا يرجع إلى محصّل[٤٩].

النموذج الثالث: الدكتور ولس (ألفرد راسل والاس ١٨٢٣-١٩١٣م)، شيخ علماء الطبيعة وشريك دارون في هذا الاكتشاف، ومقامه ظاهر لدى المعطّلين وهو سابق على دارون في إظهار فلسفة النشوء والارتقاء، وقد كتب أصولها في مقالة وبعثها إلى دارون، وطلب منه أن يرسلها بعد اطلاعه إلى ليل (تشارلز لايل ١٧٩٧-١٨٧٥م، مؤلف كتاب «مبادئ الجيولوجيا»)... صنّف كتابًا بالتوحيد وسمّاه كتاب عالم الحياة (The World of Life: A Manifestation of Creative Power، Directive Mind and Ultimate Purpose). وينقل أبو المجد عن المستر ستد: «لو قلت لرجال الدين منذ أربعين سنة إنّ شريك دارون في اكتشاف ناموس النشوء، يؤلف كتابًا يقيم أقطع الأدلّة وأصرحها على ألوهيّة الخالق وأزليّته وعنايته التامّة بمخلوقاته لهزئوا بك؟؟... وصدر من عقل ولس كتاب عالم الحياة وما من كتاب دينيّ أدلّته أقطع من هذا الكتاب»[٥٠].

النموذج الرابع: جوليان سوريل هكسلي ١٨٨٧-١٩٧٥م، والذي قيل فيه إنّه سعى لنشر مذهب الارتقاء أكثر من دارون نفسه، وهو ممّن نابذ الأديان، ولكنّه -من وجهة نظر أبي المجد- لا ينكر الصانع تعالى ولا يرى مذهب الارتقاء منافيًا لوجوده، ومن

قرأ كتابه المعنون داروينا (Darwiniana: Essays) علم أنّه أقرّ هنالك على رؤوس الأشهاد بأنّه يستحيل نقض الألوهيّة بحسب مذهب الارتقاء. ومن تمعّن في مقالته التي كتبها إلى ده كارت علم أنّه جلّى هنالك عن رسوخ في حقائق الفلسفة مسندًا تعاليمه إلى إدراك القوّة الفاعلة في هذا الكون. ناقلًا عن هكسلي قوله في مقالة ما نصّه: «إنّ من ينكر وجود الإله كما تصوّره سبينوزا لأحمق»[٥١].

يطرح أبو المجد قراءة جديدة للاأدريّة هكسلي، فلئن اعتُبِر أحد من ينسب إليه الإلحاد، ووضع كلمة أغنيستك Agnosticism وانتحلها، أوجب أن يعدّه المترجمون له في صفّ المتحيّرين، ولكن «بعد التأمّل في مجموع كلماته، والبحث عمّا دعاه إلى ذلك، تجده معتقدًا بالله تعالى أعظم اعتقاد، ومؤمنًا به أشدّ إيمان، وإنّما أراد بذلك الاعتراف بأنّه لا يعرف سرّ الخليقة، وأنّ عقله يقصر عن فهم بعض الحقائق الدينيّة، فكأنّه يرى العلم خصوص ما يعرف بالعقل معرفة تفصيليّة، ولا يعدّ منه ما يُعرف بالدين أو يُعرف بالعقل إجمالًا، فهو بهذا الاصطلاح لا يخالف أهل الدين، لأنّك لا تجد في عقلائهم من يدّعي معرفته أسرار الخلق وجميع حقائق الدين معرفة تفصيليّة بالعقل فقط»[٥٢]، مستشهدًا على ذلك أيضًا بخطبة سرجون لبوك أعظم أصدقاء هكسلي وأعرف الناس به في مناظرة أكسفورد الشهيرة سنة (١٨٦٠م Oxford evolution debate)، وفي تحرير مجلّة التاريخ الطبيعيّ، وفي عدّة جمعيّات علميّة كجمعيّة ما وراء الطبيعة التي أنشأت عام ١٨٦٩م، ينقل لبوك عن هكسلي قوله: «لست من المادّيّين لأنّني لا أقدر أن أتصوّر وجود المادّة من غير وجود عقل يكيّف صورة وجودها، ولا من المعطّلين لأنّ مسألة العلّة الأولى من المسائل التي لا تدركها عقولنا

القاصرة على ما أرى».

النموذج الخامس: هربرت سبنسر ١٨٢٠-١٩٠٣م، -الذي يطريه أهل التعطيل غاية الإطراء، ويعرفون كغيرهم مقامه في مذهب الارتقاء، حتى قالوا: إنّ رأسه قد امتلأ من مذهب النشوء قبل أن يخطّ دارون حرفًا واحدًا من كتابه- يقسم الوجود إلى قسمين: الأوّل: فيما لا يمكن معرفته؛ والثاني: في نواميس ما يمكن معرفته، وخلاصة رأيه في القسم الأوّل أنّ إدراك الإنسان محدود، فإذا بلغ حدّه استحال عليه معرفة ما وراء ذلك، وأنّ في الطبيعة قوّة يستحيل على العقل البشريّ إدراكها، ويردّ كلّ المسائل المتعلّقة بواجب الوجود وعلّة العلل أو العلّة الأولى والغاية الأخيرة إلى الدين، أو إلى ما لا يُدرَك بالعقل البشريّ، أو إلى ما هو وراء الطبيعة؛ لأنّ العقل مقيّد في بحثه بقيود لا يستطيع حلّها، فما يستطيع العقل إدراكه محصور في العلل والغايات الثانويّة، أي في الأسباب التي نراها مباشرة للمسببات وفي النتائج التي نراها تنتج عنها[٥٣].

وعليه، يمكن القول إنّ ما يرتّبه الملحدون على نظريّة دارون من إنكار وجود الخالق هو استنتاج عقليّ منهم لا يتّصل بالفرضيّة العلميّة بذاتها، ولا تكون معارضة هذا الاستنتاج معارضة للعلم على فرض التسليم بصحّة النظريّة. يقول أبو المجد: إنّ فلسفة النشوء والارتقاء لا تقتضي إنكار الخالق، والباحث فيها من حيث كونها ناموسًا طبيعيًّا لا ينبغي أن ينصرف إلى ما وراء الطبيعة. لكن، الجهّال جلبوا على الدارونيّة العار، ولو تركوا في فلسفة النشوء مجالًا لأفكار العقلاء والملّيّين يوضحون دلائلها ويمضون حقّها من باطلها، فتسري على ناموس الارتقاء حتى ترتقي ذروة مجدها[٥٤]. بل يقلب الطاولة على رأس الملحدين، ويعيد بناء الهرم على قاعدته بعد أن كان

واقفًا على رأسه، فيذهب أعمق من ذلك، معتبرًا هذه النظرية في النشوء والارتقاء على ما فيه من بديع هذا النظام والترتيب في الخلق لو تمّت وسلمت أدلّتها من الانتقاد لكانت أبدع في الصنع وإثبات وجود الصانع الحكيم[٥٥]. قائلًا إنّ كيفية وجود هذه الأحياء ونشوء بعضها من بعض دليل على وجود الصانع.

مناقشة أدلّة فرضيّة التطوّر

وفي المناقشة التفصيليّة لأدلّة فرضيّة التطوّر في ضوء نصوص دارون، ينقل أبو المجد عن دارون قوله: «... أمّا النتيجة التي توصلت إليها هنا، والتي يعتقد بها الآن جماعة من العلماء ذوي الأهليّة لبثّ الأحكام السديدة، فهي: إنّ الإنسان قد نشأ عن حيوان أحطّ منه بنية، والأركان التي شُيّدت عليها هذه النتيجة لن تتزعزع أبدًا، لأنّ المشابهة الشديدة بين الإنسان والحيوانات الدنيا في نشوء الأجنّة وفيما لا يحصى من أحوال البُنية والتركيب من كثير الأهمّيّة وقليلها والأعضاء الأثريّة الباقية فيه وتعرّضه من وقت إلى آخر للشرود عن المألوف والعودة إلى الأصل، جميع هذه الحقائق لا مراء فيها، وقد عُرِفت هذه الحقائق في زمن بعيد، ولكنها لم تُنبئنا فيما يختصّ بأصل الإنسان إلّا منذ عهد قريب...

والأدلّة التي سيقت على مذهب التحوّل هذا، هي:

أوّلًا: قابلية التغيير بشرط ارتقاء الإنسان.

أن يكون قابلًا للتغيير جسدًا وعقلًا.

وأن يكون خاضعًا لنواميس الإرث التي بمقتضاها تنتقل التغييرات التي تحدث فيه إلى نسله.

وأن تكون هذه التغييرات معلولات للعلل العامّة التي تشتمل بأسرها جميع الكائنات الحيّة.

فجميع هذه الشروط مستكملة فيه»[٥٦].

يفهم أبو المجد أنّ استدلال دارون على وقوع التحوّل قائم على دعوى قابليّة الإنسان له واجتماع شروطه فيه، فـ» الإنسان أحد الكائنات الحيّة التي هي قابلة للتغيير، وخاضعة للنواميس العامّة، ومتى ثبتت القابليّة وُعلِم وجود النواميس العامّة التي حوّلت غيره، فلا بدّ من تحويلها الإنسان أيضًا»[٥٧]. وأقصى ما تثبته رؤية دارون بقابليّة التغيير هو إمكان التحوّل وحصول الصورة الإنسانيّة به، لا نفي وقوعه بسبب آخر كالإبداع، فمجرّد القابليّة لا يثبت الحكم بالوقوع، فليس ثمّة ملازمة بين القول بنواميس التحوّل وبين وقوعها في الإنسان.

ويتابع دارون القول: «ثانيًا: مشابهة البنية. إنّ جسد الإنسان مركّب بوجه عامّ على مثال أجساد الحيوانات الأخرى ذوات الأثدي، فعظام هيكله لها مقابل في هيكل القرد والخفّاش وعجل البحر مثلًا، ويتمشّى هذا التمثيل على عضلاته وأعصابه وأوعيته الدمويّة وخلاياه الداخليّة ودماغه، وهو يشترك مع الحيوانات في قابليّته للعدوى ببعض الأمراض مثل «الجدريّ» و«الزهريّ» و» الكوليرا» وغيرها، مما يدلّ دلالة قاطعة على شدّة المشابهة بينه وبينها في الدم والأنسجة من حيث دقّة التركيب والبنية، وزد على ذلك أنّ القرد معرّض للزكام والصرع والتهاب الأمعاء وباكتيريا العين والحمّى، وأن العقاقير الطبيّة تفعل فيه فعلها في الإنسان، ومن النظر إلى شدة ميل بعض أنواع القردة إلى شرب الشاي والقهوة والمشروبات الروحيّة التي تسكر، وإلى الآلام العصبيّة التي تصاب بها على أثر السكر يتضح لنا شدّة مشابهتها للإنسان حتّى في الذوق والحسّ العامّ، وتسطو على الإنسان حليات خارجيّة

وداخليّة من نفس جنس الحليات التي تنتاب الحيوانات الأخرى من ذوات الأثدي. وجميع ذلك يدلّ على شدّة المشابهة بين الإنسان والحيوانات العليا، ولا سيّما القرود في عموم البنية ودقّة الأنسجة والتركيب الكيميّ والألفة...»[٥٨].

هنا، يناقش أبو المجد قرينة المشابهة من زاويتين:

الأولى: الزاوية الدينيّة من باب المحاججة، فيعتبر أنّ نظريّة دارون لا يمكن أن تُلزِم خصومه من أهل الدين بسبب الخلاف المبنائيّ بينهما، فشرْطَا فرضيّة دارون غير مسلّم عندهم؛ الأوّل: وجود أصل حيويّ للإنسان، وهو مما ينكره الملّيّون لاعتقادهم بالإبداع، والثاني: مرور ملايين السنين على هذا الأصل حتى تعمل النواميس البطيئة عملها، ولا يوافق عليه المليّون لذهابهم إلى أنّ اختراع خلقة الإنسان من مدّة قليلة بالنسبة إلى الزمان الذي يفرضه دارون لتصحيح آرائه، بمعنى أنّ ما يفرضه دارون من الزمان الطويل الذي استمرّ ملايين السنين لتأثّر النواميس التي يبنى عليها مذهبه في إحداث التغييرات التي نشاهدها في أصناف البشر لا يسلّم به الملّيّون.

والزاوية الثانية في نقده قرينة التشابه قوله: «كان الأولى أن يذكر بدلًا عن بيان وجوه المشابهة وجه الاستدلال بها، فإنّ مجرّد المشابهة بين شيئين لا يلزم [منه] تحوّلُهما عن ثالث، أو تحوّل أحدهما عن الآخر...»[٥٩].

ويُلفت إلى أنّ أئمة المسلمين وعلماءهم ملتفتون إلى هذا الشبه دون أن يجعلوا القرد أصلًا، طارحًا ثلاثة نماذج: **الأول**: الإمام الصادق عليه السلام، والثاني عن الدميري، والثالث عن إخوان الصفا، ونكتفي بنقل نصّ الإمام الصادق عليه السلام: «تأمّل خلقة القرد وشبهه بالإنسان في كثير من أعضائه، أعني الرأس والوجه والمنكبين

والصدر، وكذلك أحشاؤه شبيهة أيضًا بأحشاء الإنسان، وخُصَّ مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يؤمي إليه، ويحكي كثيرًا مما يرى الإنسان يفعله، حتى أنّه يقرب من خلق الإنسان وشمائله في التدبير في خلقته على ما هي عليه. أن يكون عبرة للإنسان في نفسه، فيعلم أنّه من طينة البهائم وسنخها إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب. وأنّه لولا فضيلة فضّله بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم، على أنّ في جسم القرد فصولًا أخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالخطم (مقدم الأنف والفم) والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله. وهذا لم يكن مانعًا للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطي مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه، والفصل الفاصل بينه وبين الإنسان -في الحقيقة- هو النقص في العقل والذهن والنطق»[٦٠]. »[٦١].

وفي هذا السياق، نِعْمَ ما قاله مصطفى صبري عن الدارونيّة: «لا يصحّ كونه مذهبًا علميًّا مبنيًّا على التجربة الحسّيّة، وإنّما هو مبنيّ على الفرض والتخمين؛ لأنّ تولّد الأنواع بعضها من بعض لا يكون في متناول الحسّ والمعاينة. وليست معاينة المستحاثّات المستخرجة من تحت الأرض المتوسطة بين نوعين موجودين من الحيوان معاينة التوالد، ولا معاينة كونها واسطة في التوالد، لاحتمال كون كلّ من الواسطة وطرفيها نوعًا مستقلًّا مخلوقًا برأسه، وليس من حقّ المجرّب أن ينتقل من التشابه المحسوس إلى التوالد غير المحسوس مهما وجد الوسائط المقرّبة بين المتشابهين، فإن انتقل كان خارجًا عن حدود التجربة التي يدعوان الوقوف عندها»[٦٢].

أمّا فيما يتعلّق بقرينة الأجنّة، فيسجّل أبو المجد على دليل الأجنّة في نظريّة النشوء والارتقاء، انعدام الثقة بالعلماء الطبيعيّين فيما يدّعونه من

عيّنات تجاربهم، لأنّ التجربة تشهد على أنّهم يلجأون إلى تزوير المعطيات لتوافق فرضيّاتهم المسبقة، مستشهدًا باعتراف هيكل (أرنست هاينرش فيليب أوغوست ١٨٣٤-١٩١٩م) بتزوير صور الأجنّة وقوله في مقالته المؤرّخة ٢٤ ديسمبر ١٩٠٨م: «فبعد هذا الاعتراف يجب أن أحسب نفسي مقضيًّا عليّ وهالكًا، ولكنّه يُعزّيني أن أرى بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمة، وبينهم عدد كبير من الفلاسفة المعوَّل عليهم في التجارب العلميّة وغيرهم من علماء الأحياء، فإنّ كثيرًا من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنّة المنتشر المعوّل عليها مزوّر مثل تزويري تمامًا...»[٦٣].

أمّا الدليل الرابع عند دارون فهو الأعضاء الأثريّة، حيث يقول: «لا يخلو فرد من الحيوانات العليا وفي جملتها الإنسان من وجود الأعضاء الأثريّة فيه، كالثندوتين في صدر الرجل، والناب الذي تحت اللثّة من المجترّات، فهذه الأعضاء وما شابهها تدعى أثريّة لعدم نفعها الآن لذويها، ممّا يدلّ على أنّها لم تنشأ تحت الأحوال الحاليّة، وهي شديدة التغيير لعدم نفعها، ويترتّب على ذلك عدم خضوعها لفعل الانتخاب الطبيعيّ واختفائها في غالب الأحيان... والظاهر أنّ السبب الأوّل في صيرورة بعض الأعضاء أثريّة هو عدم الاستعمال لها في إبان الاحتياج إليها... وتنتقل هذه الأثريّات بطريق الإرث إلى الأعقاب، ويكون ظهورها في نفس المدّة التي ابتدأ ظهورها فيها، وفي جسم الإنسان عضلات أثريّة وعضلات في حالة الظهور الكلّيّ لها مقابل في العجماوات».

ويناقش أبو المجد هذا الدليل بأنّ عدم الوجدان ليس دليلًا على عدم الوجود، قائلًا: من الواضح الذي لا يرتاب فيه أحد أنّ علم الفيسيولوجيا

لم يعرف البشر جميع مسائله دفعة واحدة بل بالتدريج، بدءًا من الواضحات، ثمّ سرى على ناموس الارتقاء حتى بلغ ما هو عليه اليوم، فمرّ زمان على البشر لا يعرفون سوى منافع بعض الأعضاء، ولم يكن جهلهم بمنافع أعضاء أخرى دليلًا على عدم نفعها، ثمّ مع تقدّم الزمن وتطوّر علم وظائف الأعضاء والتشريح تبيّن قليلًا قليلًا نفع أعضاء ما كان يجهله الإنسان، أترى والحال هذه أنّ الإنسان لا يظن إن لم يقطع بأنّ هذه العدّة من الأعضاء التي يسمّونها أثريّة كباقيها ذات منافع جمّة ولها وظائف مهمّة، وإن خفي عليه الوجه فيها كما خفي على من سبقه في أكثر منها!! أفليس الأولى به أن يسعى في معرفتها ويجهد في رفع حجاب الجهل عنها؟ ويؤدي فرضه المقدّس من إكمال نقصان العلم ما أمكنه ما فعله السابقون، ويقول إن لم يوفق لذلك إنّ وظيفتها مجهولة، أو لم تُعلم بعد، أو الأولى أن يجزم بأنّ جميعها أعضاء باقية من أدوار الإنسان البهيميّة وليست لها وظائف فعليّة، فيوصد باب العلم على الأفهام[٦٤]؟!!

ثمّ على فرض التسليم بعدم النفع الفعليّ لهذه الأعضاء، «فبأيّ دليل نسلّم لهم أنّ هذه الأعضاء كانت عاملة في الإنسان قبل ارتقائه وبقيت ضامرة لفقدانها وظايفها في حالته الحاضرة؟! ولِمَ لا تكون ابتداءً نشوءًا لأعضاء ذات أهمّيّة في تحوّلات الإنسان الآتية؟ وظاهر أنّ الأعضاء التي يحتاج إليها الحيوان في حال ارتقائه لا توجد دفعة، بل توجد وتكمل تدريجيًّا حتى تصير قابلة لأداء وظائفها في وقتها...»[٦٥].

والملاحظة الجديرة بالذكر - بالعودة إلى ما تقدّم من كون هدف أبي المجد في نقد فرضيّة دارون يتمركز في محورين: الأوّل: عدم منافاتها مع وجود الصانع الحكيم، والثاني: عجزه

عن نفي الخلق الابتدائيّ الإبداعيّ للإنسان- يعيد أبو المجد تسجيل ما تقدّم سابقًا أنّ هذه المظاهر التي يستشهدون بها لدعم فرضيّتهم هي أصلح ليستدلّ بها المتديّن لدعم إيمانه، فيعتبر أنّ أقصى ما يفيده دليل الأعضاء الأثريّة أنّ هذه الأعضاء كانت عاملة في الإنسان سابقًا وكان محتاجًا إليها وهو في غنى عنها الآن، وهذا لا يدلّ على أنّه كان حينئذٍ حيوانًا حتى على أصولهم، فإذا كان الإنسان محتاجًا إلى زيادة الأسنان قبل اهتدائه إلى الطحن والطبخ مثلًا وهكذا في بقية الأعضاء بسبب شروط البيئة، فإنّه بعد تقدّمه في الحضارة واستخدامه لقوى الطبيعة واهتدائه إلى تليين الطعام بالطبخ استغنى عنها، فأزالتها عنه يد الحكمة الإلهيّة التي أوجدتها له حين احتياجه إليها، فسبحانه من خالق ما أعظم حكمته وأجلّ قدرته وأعلمه بمصالح مخلوقاته وأرأفه بعباده»[٦٦].

ويقول: «إنّ الاستدلال بأثريّة هذه الأعضاء إنّما يصحّ من المؤمنين الذين يثبتون لهذا الكون صانعًا حكيمًا، تجلّ أفعاله عن العبث واللغو، ويقولون بالقصد والغرض الغائيّ في خلق الأشياء.

وأمّا خصومنا الذين ينسبون الخلق إلى الطبيعة، ويصفونها بأنّها عمياء، ويعزونها إلى الصدفة، وهي باعترافهم صمّاء، ويبنون فلسفتهم على أنّ الموجودات نتيجة الاضطرار لا القصد والاختيار، فأيّ مانع على مذهبهم من أن يدخل في تركيب السلحفاة أجزاء تختص بالجمل؟! أو يوجد حيوان تسعة أشعار أجزائه زائد لا ينتفع بها ولا تستعمل؟! وذلك لا يبعد من العمياء والصمّاء.

وايم الله، ما هذا إلّا لأنّ القصد والاختيار وأنّ الكون بأسره فعل الصانع المختار، أم أنكرته ألسنتهم واعترفت به فطرتهم»[٦٧].

والخلاصة في بيان أصل الإنسان وفق قوله: «الذي علمنا من ضرورة الدين أنّ الإنسان خُلق إنسانًا، ويبقى كذلك نوعه، وأمّا هذه التغيرات الطفيفة التي لا تضرّ بالصورة النوعيّة فمما لم يعلم من الدين عدمها، بل لعلّ فيه شواهد عليها، وكما لا يضرّ بنوعيّة الإنسان ما نشاهده في كثير من أفراده من زيادة عدد الأصابع أو نقصانه لا تضرّ بها أمثال هذه التغيرات، وإذا كان تعدّد الرأس واشتراك بعض الأعضاء بين شخصين متلاصقين ونحوهما من شواذ الطبيعة وأنواع الهولات العجيبة لا يضرّ بصدق اسم الإنسان، فبالأولى لا تضرّ به الزيادة في عضلات الرأس والأسنان ونحوهما من التغييرات الجزئيّة»[٦٨].

فالمعيار الكلّيّ -من وجهة نظره- في الفرق بين الإنسان وغيره هو في الكمالات النفسيّة والقوى العقليّة، وإن كان شديد المشابهة مع الحيوانات في المستوى الجسديّ، وليست للقوى العقليّة بقايا في الطبقات الجيولوجيّة لكي تعرّفنا بأنّه من أيّ الصنفين وملحق بأيّ المملكتين[٦٩]. ويخلص إلى أنّه: «لو زادوا عشرين على ما عدّوه للأرض من الطبقات، وبلغوا مركز الأرض في الحفريّات، وملؤوا معارض أوروبا بالعظام البالية، وادّعوا أنّها بقايا حيوانات عاشت في الأعصر الخالية، فلا يجدون شيئًا يوجب الوهم في تحوّل الإنسان ولا طريقًا إلى معرفة أصله، إلّا الإذعان بما أخبر به الدين وهو أنّ أبا البشر جميعًا إنسان مخلوق من الطّين»[٧٠].

ويضيف في مناقشة الأعضاء الأثريّة: «فهب أنّا سلمنا وجود الأعضاء الأثريّة في الحيوان، فهل هي إلّا أعضاء وُجدت بل أوجدت عند احتياج الحيوان إليها، وتوقّف معيشتها عليها؟! ثم دُفِع عنه ثقلُها عند استغنائه عنها ووُضع عنه عبؤها على ما اقتضته الرحمة الشاملة أوّلًا، والحكمة آخرًا، ولو لم يكن في صفحة

الإمكان شيء سواه لكان كافيًا لكلّ من منح أوّل درجة العقل ولم يفسد منه الوجدان بأن يعلم أنّ للكون مدبرًا حكيمًا يوجد الأشياء عند الضرورة ويعدمها لدى الاستغناء عنها تدريجًا كما أوجدها كذلك، على ما اقتضاه النظام الأعلى وجرت عادته المقدّسة في سائر الكون.

فانظر هداك الله تعالى إلى هذه الأشياء التي ذكرها، هل تعبث بالدين أو تعبث بلحيته ولحى أصحابه المادّيّين الذين يرون الكون نتيجة الصدفة العمياء؟! وماذا على الصدفة العمياء إن تبقّى في الجسم ما لا نفع فيه من الأعضاء؟ أتخشى أن يكون ذلك نقضًا في حكمتها أو منافية لقصدها[٧١]؟!

مسار التهافت

فلا يبقى أمام الداروينة إلّا أحد أمرين:

الأوّل: رفع اليد عن هذه الآراء والقول بالتحوّل الفجائيّ، وأنّ هذه الأعضاء تبدو دفعة واحدة عند التحوّل إلى النوع الذي يلزمه تلك، وهذا نقض لهذه الفلسفة من أساسه.

والثاني: الالتزام بالبديهيّات الثلاث أعني القصد والعلم والغاية في خلق الأشياء، فالطبيعة عمياء على مذهب الدارونيّة، فكيف تميّز الزوائد التي لا تنفع إلّا بعد أحقاب فتدّخرها ويحذف سواها؟!! فأكرم بعمياء غير شاعرة تعلم أنّ هذه الحشرة تعود جملًا بعد تحوّلات عديدة، وتلك تكون رجلًا بعد أجيال تعدّ بالملايين وتعلم ما يحتاجه كلّ منهما من الأعضاء الكثيرة المختلفة في الكم والكيف والوضع والتركيب و... في كلّ دور من أدواره الآتية، فلا تزال تدّخر النافع في كلّ دور من أدواره وتحذف المضرّ وغير النافع حتى يعود حيوانًا أو إنسانًا كامل الأعضاء تامّ التركيب متناسب الأعضاء[٧٢]. ألا سائلًا من هؤلاء عن هذه القوّة الشديدة ما

سببها؟ وبأيّ ناموس توصّلت الطبيعة إلى حفظ التناسب بها؟ وإذا طال عنق حيوان بالتنازع أو كبرت كفّه بالاستعمال بماذا يتبعه الجسم بتلك النسبة مع أنّه لا يشمله ذلك السبب؟ فلو أصابوا رشدهم لسمّوا نظريّتهم بالتحسين الإلهيّ بدلًا عن التحسين الطبيعيّ؛ إذ كيف تميّز الطبيعة بين الحسن وغيره وهي بزعمهم عمياء؟! وكيف تحسّن وهي عندهم غير شاعرة؟! ولذا تُبقي الحسن دون غيره وهي على مذهبهم لا تقصد غاية. وهل هذا إلّا خروج عن المذهب المادّيّ واعتراف بالأمرَين الأمَرَّيْنِ من العلقم في أذواقهم؟! بل نقض للغرض الذي أُسّست لأجله هذه الآراء، والتزام بعد الصخب واللغط وارتكاب فنون من الشطط والغلط بما التزم به سائر العقلاء.

وبالجملة هذا القول مما تبرّأ منه أهل الدين ولا ينطبق على أصول المعطّلين، فلا بدّ له من أحد أمرين: إمّا الإيمان بالخالق الجليل أو الالتزام بمجرد الصدفة وترك التعليل[٧٣].

ويسجّل عليهم في الجانب القيميّ والأخلاقيّ أنّهم إنّما يتبنّون هذه الفرضيّة على علّاتها بنحو يربطونها بالإلحاد وإنكار الصانع من باب التهرّب من المسؤوليّة التي يقتضيها الانتماء إلى الدين في الالتزام والانضباط السلوكيّ، فالانغماس في اللذّات مع أمن الفظائع لا يحصل إلّا بإنكار الصانع، ليأمن الوعيد فيفعل ما يريد[٧٤]، وإلّا لولا هذه الغشاوة التي هي وليدة الهوى والشهوة لما وافقوا على هذه الآراء واستهزؤوا بها، متمثّلًا قول الشاعر:

إنّما تنجح المقالة في المَرءِ
إذا وافقت هوىً في الفؤادِ

ويقول: «ومنهم من له في انتحال التعطيل مآرب وفي إنكار القصد [والغاية من الخلق] مقاصد؛ إذ الاعتقاد بالصانع يستلزم الانقياد

للشرائع، والشرائع الإلهيّة كما علمت تمنع القبائح وتردع عن الفضائح وتزع الأنفس عن كثير من شهواتها، وتحبسها عن البغي والبغاء ونحوهما من مبتغياتها، تذمّ الفحشاء والمنكر، ولا ترخص في البولندريّة[٧٥] Polyandry، ولا تسمّي السفاح بالحبّ الحرّ، ولا تقول إنّ الفضائل رذائل ولا تعدّ الغيرة على المحارم ضربًا من الحسد والبخل... وكيف يخضع للشرائع الإلهيّة من أقصى جهده قضاء شهواته البهيميّة؟[٧٦]

ومن النقاط المهمّة في نقده، مناقشة المقولة التي اشتهرت منذ أيّام أوجست كونت، بل قبله، في أنّ الإنسان إنّما يحتاج إلى التفكير الدينيّ ويلجأ إلى فكرة الإله باعتبار جهله بالأسباب الطبيعيّة والعلاقات القائمة بين الظواهر الماديّة، بحيث إذا اكتشف السبب الطبيعيّ بواسطة الملاحظة الحسّيّة والمنهج العلميّ تراجع الإله خطوة إلى الوراء، وشكر العلم سعيه على الخدمات التي قدّمها في هذا السياق، ويعرض أبو المجد وجهة نظرهم بقوله: من يقول إنّ تقدّم العلوم في هذا العصر بسبب أبحاث المتأخّرين لم يدع حادثًا من غير تعليل، وليس كما سبقه من الأعصار التي كان العلماء لا يهتدون إلى علل كثير من الحوادث فيفزعون إلى القدرة الإلهيّة، وقد علمنا الآن من نواميس الطبيعة ما يكفي لتعليل أكثر ما خفي على المتقدّمين الوجه فيه، وعلى المستقبل رفع الحجاب عما خفي علينا الآن، وبالتالي فلا حاجة إلى الله. ويردّ عليهم بأنّ تقدّم العلوم قد زادنا بصيرة في الدين، وأورثنا يقينًا على يقين؛ إذ تضاعفت به عندنا شواهد الإثبات، وببركته ظهرت لنا كنوز الآيات الخفيّات، فهل صنع تقدّم العلم شيئًا سوى أنّه كشف لنا تعدّد تلك الشواهد وأعطانا ألفًا بواحد، وأبان لنا تضاعفها، ولم تكن قطّ تلك الحوادث التي لا تعليل لها دليلًا يعتمد عليه المؤمنون كي يضعف هذا الدليل بتقدّم العلوم، بل

كان الدليل هو انتظام تلك العلل المرتّبة، فكلّما ازدادوا معرفة بها ازداد يقينًا بخالقها ومبدعها[٧٧].

ولذا يقول أبو المجد في نقد قولهم «إنّ الأحياء إذا كانت تتحوّل وترتقي بنواميس طبيعيّة، فلم يبق حينئذ احتياج إلى الله»، وهذا الكلام في غاية الأهمّيّة، حيث إنّ «أعظم شبهة دخلت في أمر التوحيد على هؤلاء وأكبر داعٍ لهم إلى التنويه بفلسفة النشوء والارتقاء هو: ظنّهم أنّ الموحّدين التجؤوا إلى الإقرار بالخالق حيث جهلوا الأسباب الطبيعيّة التي يجري الكون عليها، وأنّهم رأوا حوادث عجزوا عن تعليلها لنقصان علومهم فعلّلوها بالقدرة الإلهيّة، ولو عرفوا الأسباب الطبيعيّة أجمع لدانوا مثلهم بترك الدين واستغنوا عن الاعتراف بربّ العالمين، وحيث كانت هذه الفلسفة تتوسّع في بيان العلل الطبيعيّة للأحياء ولا تدع حادثًا فيها بلا تعليل، إن لم يكن بالممكن فبالمحال، أو باليقين فبالاحتمال، هاموا بها واعتنقوها وجعلوا وكدهم الإطراء عليها والذبّ عنها، ولو عرفوا حقيقة معتقد أهل الدين وأنّ معرفة الأسباب تزيدهم يقينًا على يقين، لتركوها ترك الظبي لكناسه وظلّه وزهدوا فيها زهد المسافر فيما جفّ من زاده إلّا قَدِمَ إلى أهله»[٧٨].

معتبرًا أنّ وجود الأسباب الطبيعيّة ممّا لا ينكره أحد من العقلاء فضلًا عن أهل الدين، فالمتديّنون لا ينكرون وجود الأسباب، بل يستدلّون بحسن ترتيبها وبديع انتظامها على وجوده وبديع حكمته وعظيم قدرته؛ ولهذا تراهم من أحرص الناس على معرفتها والبحث عن خباياها في خفاياها، فقد علموا أنّهم لا يتقدّمون فيها خطوة إلّا ويرتقون من المعرفة درجات، ولا يتجلّى لهم سرّ للطبيعة إلّا وللنور المقّدس فيه تجلّيات... وأهل الدين لم يعترفوا بوجود الخالق جلّت قدرته إلّا بما عرفوه ضرورةً بالأدلّة القطعيّة من حدوث المادّة وإمكانها وضرورة انتهائها إلى واجب بالذات، ومنها هذه

العلـل، ولم يسـتدلّ أحـد عـلى ذلـك بوجـود حـوادث لا يُعـرف لهـا علّـة طبيعيّة... فلا تـضرّهم معرفـة العلـل الطبيعيّة، ولا تضرّهم فلسفة النشـوء، بل فيهـا مـن النفـع لهـم أضـعاف مـا قدّروا من الضرر منها علـيهم. وأهـل الـدين إذا وصـفوا الله سـبحانه بأنّـه خالق الشيء فلا يريدون به أنّه أوجـد بمحض قدرته الكاملـة الابتدائيّـة ولم يوسّط فيـه غـير إرادتـه المقدّسـة، بـل يريدون به أنّه أوجد بإرادته واختياره، سواء أوجده بلا أسباب طبيعيّة أصلًا، كـما في العلّـة الطبيعيّـة الأولى، وهـي المادّة أو القوّة بزعم هؤلاء، أو بتوسّط ألوف من الأسباب المرتّبة والمركّبة كما في الأحياء الموجودة الآن[٧٩].

والخلاصة التي يخرج بهـا: «إنّ أهـل الـدين لا ينكـرون ترتيـب الأسـباب والمسبّبات، بل يمنعـون وجـود شيء في الكـون دقّ أو جـلّ إلّا بعلّـة كافيـة، ويبيّنون لتلك العلّة علّة أيضًا، وهكـذا، حتـى ينتهـي إلى علّـة العلـل، وهـم في المحافظة على الأسباب بمرتبة لا يبلغهـا هـؤلاء، فهـم يـدّعون الـضرورة عـلى بطـلان الصـدفة والاتفـاق... إنّ أهـل الدين يعترفـون بكـلّ نـاموس طبيعـيّ، اكتشـف إلى الآن أو يستكشـف مـدى الزمان، إن كان ممـا يثبتـه الاختيـار، ولا تكذبه شواهد الامتحـان، ولـيس ذلـك عندهم مما يضرّ بالدين بل يزيدهم يقينًـا على يقين»[٨٠].

الخاتمة

الحوزة العلميّة من أقدم مؤسّسات التربيـة والتعلـيم تجـذّرًا في التـاريخ. تميّزت منـذ محطاتهـا الأولى بالانفتـاح الفكريّ على محيطها الحضاريّ العـام، ولم تتعامل مع الآخـر في ضـوء عقليّـة المشاهِد، أو منطق الرفض، إنّما قرأت، نقدت، تمثّلـت، وحـدّثت في الحقـول المعرفيّة المختلفة. وأفضـل مـا يمكـن الاستشهاد به هو الأبحاث الكلاميّـة، المشـحونة بدراسـة الآخـر في ضـوء المنـاهج التوصـيفيّة، والنقديّـة،

والمقارِنة: كالأشاعرة، المعتزلة، الزيديّة، الخوارج، النصرانيّة، اليهوديّة، البراهمة، والدهريّة... وكذلك شدّة اهتمامها بالفكر اليونانيّ، كالطِّب، الفلك، الرياضيّات، المنطق، الأخلاق، والسياسة... ومن شديد أسف، أنّه ثمّة مرحلة تاريخيّة ضعف بل انقطع فيها ارتباط الحوزة العلميّة بمحيطها الحضاريّ داخليًّا وخارجيًّا، فلم نعد نشاهد ذلك الاهتمام الرسميّ بفكر الآخر وعلومه، ولو من باب إرادة فهمه للمقارنة أو النقد أو الردّ على شبهاته، خصوصًا الغرب الحديث الذي دخل إلى الحواضر الإسلاميّة من بوابة نوعين من الحروب: الفيزيقيّة بالسيطرة على الجغرافيا والديموغرافيا والثروات الطبيعيّة... والميتافيزيقيّة بنهب التراث والمخطوطات وإدارة الوعي وغزو العقول في ميادين الفلسفة والعلم والسياسة والاقتصاد والأدب والفنّ... عن طريق المؤسّسات التربويّة والتعليميّة والأحزاب السياسيّة والمجلّات العلميّة والكتب... نعم، لم تُعدَم المبادرات الفرديّة الرائدة في القرنين الماضيين في نقد الغرب معرفيًّا وفلسفيًّا، تمثّلت عند الإماميّة في تجارب: جمال الدين الأفغانيّ، وعلي المدرِّس الزنوزيّ ١٨١٨-١٨٨٩م في «بدايع الحكم»، وعبد الكريم الزنجاني، ومحمد حسين الطباطبائيّ ١٨٩٢-١٩٨١م وتلميذه مرتضى مطهّري ١٩١٩-١٩٧٩م في «أصول الفلسفة والمنهج الواقعيّ»، ومحمّد باقر الصدر ١٩٣٥-١٩٨٠م في «فلسفتنا» و«الأسس المنطقيّة للاستقراء»... وما أحوجنا اليوم، إلى إعادة تمثّل هذه التجارب وتجربة أبي المجد الأصفهاني في نقد فلسفة دارون، لإحياء إرادة فهم الآخر الغربيّ ونفخ الحياة في الحماسة النقديّة للردّ على شبهاته والإجابة عن إشكاليّاته.

لائحة المصادر والمراجع

The Autobiography of Charles Darwin.

اللاهوت المعاصر دراسات نقديّة، الدين والعلوم التجريبيّة، العتبة العباسيّة المقدسة، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، الدارونيّة، مرتضى فرج.

العقّاد، عباس محمود، الإنسان في القرآن، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.

باشميل، محمد أحمد، الإسلام ونظريّة داروين، دار الفتح، بيروت، ط٢، ١٣٨٨-١٩٤٨.

فرويد، سيغموند، محاضرات تمهيديّة في التحليل النفسيّ، ترجمة أحمد عزّت راجح، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ١٩٦٦م، ج٣، نقلًا عن: هوستن، سميث، لماذا الدين ضرورة؟ ترجمة سعد رستم، دار الجسور الثقافيّة، حلب، ٢٠٠٥م.

الجعفيّ، المفضّل بن عمر، توحيد المفضل إملاء الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، تعليق كاظم المظفر، مؤسّسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

الدميري، محمّد بن موسى، حياة الحيوان الكبرى، وضع حواشيه وقدم له أحزد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٥م، ج٢.

الطهرانيّ، آغا بزرك، طبقات أعلام الشيعة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ج١٤، وأنظر حول أقوال العلماء فيه: الصدر، حسن، تكملة أمل الآمل، تحقيق حسين علي محفوظ وآخرون، دار المؤرخ العربي، بيروت، ج٥، ترجمة رقم ٢٣١٠. الأميني، محمد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ط١، ١٣٨٤-١٩٦٤م، ج١، حرف الألف (الأصفهاني/ ٨٠).

الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، مصدر سابق، ج١٤، وأنظر: الطهرانيّ، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط٢، مجلد٢٤، تحت رقم ١٤٣٠.

المظفر، محمد رضا، المنطق، تعليق الشيخ غلام رضا الفياضي، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، ط١.

انظر حول قراءة دارون عربيًا: الشاكري، مروة، قراءة داروين في الفكر العربيّ ١٨٦٠-١٩٥٠، ترجمة محمد سعيد كامل. وللمؤلِّفة نفسها: إرث دارون في الشرق العربي: العلم والدين والسياسة-١٨٧٠-١٩١٤م.

انظر: الطهراني، آغا بزرك، طبقات أعلام الشيعة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م، ج١٤. والأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ، ج٣٢، ومقدّم

صبري، مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين، دار التربية، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م، ج٢.

نقد فلسفة دارون، أنظر:

Thomas H. Huxley، ١٨٩٤، Collected Essays، Vol. IX،

... the God so conceived is one that only a very great fool would deny، even in his heart.

الهوامش:

[١] يعتبر دينيت في كتابه Darwin's Dangerous Idea «فكرة دارون الخطيرة»: أنّ الانتقاء والتكيّف في الكائنات الحيّة في مدّة زمنيّة قد تستغرق مليارات السنين في عمليّة عمياء وسلسلة غير عاقلة من الحوادث المتعاقبة كفيلة في تحقيق التنوّع الأحيائيّ الموجود في كوكبنا حتى الكائن البشريّ بما يتمتّع به من ذكاء ووعي دون حاجة إلى افتراض مصمّم ذكي مبدع يشرف على هذه العمليّة.

[٢] أنظر: الطهراني، آغا بزرك، طبقات أعلام الشيعة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م، ج١٤، ص٧٤٧-٧٥٣. والأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ط٢، ١٤٠١ه، ج٣٢، ص١٩-٢٣. ومقدّمة السيّد محمّد رضا الحسينيّ الجلاليّ على كتاب نقد فلسفة دارون، الطبعة الحديثة ٢٠١٥م.

[٣] الطهرانيّ، آغا بزرك، طبقات أعلام الشيعة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م، ج١٤، ص٧٤٧-٧٥٣. وأنظر حول أقوال العلماء فيه: الصدر، حسن، تكملة أمل الآمل، تحقيق حسين علي محفوظ وآخرون، دار المؤرّخ العربيّ، بيروت، ج٥، ص٣٧١، ترجمة رقم ٢٣١٠. الأمينيّ، محمّد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ط١، ١٣٨٤-١٩٦٤م، ج١، حرف الألف (الأصفهانيّ/٨٠)، ص٣٦.

[٤] الطهرانيّ، طبقات أعلام الشيعة، مصدر سابق، ج١٤، ص٧٤٨-٧٤٩.

[٥] الطهرانيّ، طبقات أعلام الشيعة، مصدر سابق، ج١٤، ص٧٥٢. وأنظر: الطهرانيّ، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط٢، مجلد٢٤، ص٢٧٧، تحت رقم ١٤٣٠.

[٦] العقّاد، عبّاس محمود، الإنسان في القرآن، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص٩٦-٩٧.

[٧] باشميل، محمّد أحمد، الإسلام ونظريّة داروين، دار الفتح، بيروت، ط٢، ١٣٨٨-١٩٤٨، ص٥٥-٥٨.

[٨] نقد فلسفة دارون، ص٩.

[٩] نقد فلسفة دارون، ص٤.

[١٠] م. ن، ص٥-٦

[١١] م. ن، ص٦.

[١٢] م. س، نقد فلسفة دارون، ص٤-٥.

[١٣] نقد فلسفة دارون، ص٦.

[١٤] المظفر، محمد رضا، المنطق، تعليق الشيخ غلام رضا الفياضي، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ط١، ص٣٨٢.

[١٥] نقد فلسفة دارون، ص٧.

[١٦] م. ن، ص١٠١.

[١٧] م. س، نقد فلسفة دارون، ص١٨-١٩.

[١٨] م. ن، ص٦.

[١٩] م. ن، ص٧.

[٢٠] نقد فلسفة دارون، ص١١-١٣.

[٢١] م. ن، نقد فلسفة دارون، ص١٣-١٤.

[٢٢] م. ن، ص١٤-١٥.

[٢٣] نقد فلسفة دارون، ص١٧-١٨.

[٢٤] نقد فلسفة دارون، ص٣١.

[٢٥] ن. م، ص٣٣.

[٢٦] ن. م، ص٣٦.

[٢٧] م. س، نقد فلسفة دارون، ص٣٦-٣٧.

[٢٨] نقد فلسفة دارون، م. س، ص٣٨

[٢٩] نقد فلسفة دارون، ص٣٩.

[٣٠] م. ن، ص٤٦.

[٣١] نقد فلسفة دارون، ص٤٢.

[٣٢] نقد فلسفة دارون، ص٣١.

[٣٣] م. ن، ص٢١.

[٣٤] نقد فلسفة دارون، ص٢١. يقول دارون في خاتمة كتاب أصل الأنواع: «إنّ هناك جمالًا وجلالًا في هذه النظرة عن الحياة بقواها العديدة التي نفخها الخالق الأوّل مرّة في عدد قليل من الصور أو في صورة واحدة».

[٣٥] م. ن، ص٣١.

[٣٦] The Autobiography of Charles Darwin، 92p -93. نقلًا عن: اللاهوت المعاصر دراسات نقديّة، الدين والعلوم التجريبيّة، العتبة العباسيّة المقدّسة، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، الدارونيّة، مرتضى فرج، ص١١٥.

[٣٧] م. ن، ص٢٥.

[٣٨] م. ن، ص٢٥.

[٣٩] نقد فلسفة دارون، ص٢٧. أنظر:

Thomas H. Huxley، ١٨٩٤، Collected Essays، Vol. IX، p. ١٤٠

...the God so conceived is one that only a very great fool would deny، even in his heart.

[٤٠] نقد فلسفة دارون، ص٢٨.

[٤١] نقد فلسفة دارون، ص٣٠.

[٤٢] م. ن، ص٢٣.

[٤٣] م. ن، ص٢٤.

[٤٤] نقد فلسفة دارون، ص٤٧-٤٩.

[٤٥] م. ن، ص٤٩.

[٤٦] نقد فلسفة دارون، ص٥٠-٥١.

[٤٧] م. ن، ص٥٢.

[٤٨] الجعفي، المفضل بن عمر، توحيد المفضل إملاء الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، تعليق: كاظم المظفر، مؤسّسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٦٠-٦١:

[٤٩] الدميري، محمد بن موسى، حياة الحيوان الكبرى، وضع حواشيه وقدّم له أحزد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٥م، ج٢، ص٣٣.

[٥٠] صبري، مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين، دار التربية، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م، ج٢، ص٢٦٦.

[٥١] نقد فلسفة دارون، ص٥٨.

[٥٢] نقد فلسفة دارون، ص٦٤-٦٥.

[٥٣] م. ن، ص٦٥.

[٥٤] نقد فلسفة دارون، ص٦٨.

[٥٥] نقد فلسفة دارون، ص٧٠-٧١.

[٥٦] م. ن، ص٦٧.

[٥٧] م. ن، ص٨٦.

[٥٨] نقد فلسفة دارون، ص٩٨.

[٥٩] نقد فلسفة دارون، ص١٤٦.

[٦٠] م. ن، ص١٢١-١٢٢.

[٦١] نقد فلسفة دارون، ص١٢٥-١٢٦.

[٦٢] ن. م، ص١٣٤-١٣٥.

[٦٣] شكل من أشكال تعدّد الزوجات، الذي تتّخذ فيه المرأة زوجين أو أكثر في الوقت نفسه.

[٦٤] م. ن، ص٢٣٢.

[٦٥] نقد فلسفة دارون، ص٢١٧.

[٦٦] م. ن، ص١٥١.

[٦٧] نقد فلسفة دارون، ص١٥٣-١٥٤-١٥٦.

[٦٨] م. ن، ص٢٢٣.

السيد هاشم الميلانى
باحث إسلامي/ النجف الأشرف

معالم الإحياء الحضاريّ الإسلاميّ
المشروع الإصلاحيّ في فكر
السيّد جمال الدين الحسينيّ مثالًا

تمهيد[1]:

لم تكن حركة النهضة في العالم الإسلاميّ استجابة لضرورات داخليّة افترضها الحكم الاستبداديّ وحسب، بل هي ناجمة عن تحدّيات جوهريّة أيضًا، وذلك بفعل المطامح الاستعماريّة الغربيّة للسيطرة على البلاد الإسلاميّة مع بداية انهيار السلطنة العثمانيّة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومن البيِّن أنّ مواجهة العالم الإسلاميّ للغرب وتعرّفه على مسالكه مرَّت عبر سلسلة مترابطة من المحطّات: التبادل التجاريّ ثمّ العسكريّ الثقافيّ، وبالتالي الاستعمار المباشر.

وجرّاء هذا التعرّف والاحتكاك المستمرّ، تولّد سؤال النهضة (لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم الغرب)، وطفق

العلماء يبحثون عن الجواب، كلّ يدلو بدلوه ليقف على السبب الحقيقيّ، ومن هنا تولّدت النهضة والبحث عن سبيل الإصلاح والابتعاد عن التخلّف. فالإصلاح كان لا بدّ منه في تلك المرحلة الزمنيّة، فالعالم الإسلاميّ كان يعيش تخلّفًا مشهودًا على جميع الأصعدة الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة، وكان الغرب هو المسيطر والمهيمن والمستعمر بفضل علومه وتقنيّته؛ ومن هنا انبرى العلماء لحركة تجديديّة إصلاحيّة بهدف استنهاض الهمم والعقول، واسترجاع المجد والحضارة التي كان يتمتّع بها العالم الإسلاميّ في الماضي. ورغم أنّ كثيرًا من المجادلات قد انتهت اليوم والأولويّات قد تغيّرت، حيث لا داعي إلى ذكر محاسن الجرائد والصحف مثلًا، أو لزوم وجود القانون والدستور وغيرها من المباحث الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة، ولكن مع هذا فنحن بحاجة مستمرّة إلى رجال إصلاحيّين يعرفون الزمان والمكان وملابساتها، وكذلك يكون لهم قدم صدق في التراث الإسلاميّ، ليأخذوا بزمام الأمّة الإسلاميّة نحو الهداية والرشاد من دون أن تنزلق في هاوية باقي التيّارات والأحزاب المناوئة والمستغربة.

جمال الدين كرائد نهضويّ

يعدّ السيّد جمال الدين الحسينيّ الأسترآبادي المعروف بالأفغانيّ (١٨٩٧-١٩٨٨م) أحد أبرز روّاد النهضة والإصلاح في العالم الإسلاميّ، ورغم انتمائه إلى المذهب الإماميّ، ورغم كونه من السادة الأشراف، غير أنّه أخفى مذهبه رعاية لمصالح الأمة الإسلاميّة ولزوم توحّدها ونبذ الخلافات العقديّة التي كانت بحسب رأيه وسيلة لتمزّق الأمّة ونافذة لدخول الأعداء والغرب لبثّ الخلاف والحيلولة دون نهوضها.

وُلد السيّد جمال في قرية أسد آباد من

توابع همدان في إيران عام ١٢٥٤هـ، وتتلمذ على يد كبار العلماء في إيران والعراق، وأدرك محضر العالم والعارف الكبير ملّا حسين قلي الهمدانيّ.

كان يحمل بين جنبيه روحًا وهّاجة لم يتمكّن من الاستقرار في مكان واحد، سافر إلى أفغانستان والهند ومصر وتركيا وأوروبا إمّا باختياره وإمّا منفيًّا إليها من قبل السلطات التي توجّست منه خيفة، وقد زادته هذه الأسفار خبرة بالشعوب والنفوس، وتعرّف على الكثير من النخب ورجال السياسة والأدب والثقافة، وحاول استثمار كلّ هذه العلاقات في هدف واحد ما فتئ أن يفكّر فيه ويتكّلم حوله طول حياته وحتّى آخر أيّامه، كان يقول: «ليس لي من غاية في هذا العالم سواء في الشرق أو في الغرب سوى إصلاح دنيا المسلمين وآخرتهم، وآخر أمنيتي أن يُراق دمي في هذا الطريق كالشهداء الصالحين[٢]».

سوف نقارب مشروع السيّد جمال الدين على محورين: محور التخلّف ومحور الإصلاح؛ ولأجل هذا الهدف سيكون لنا أن نستقرئ آثاره وأعماله لنستخرج منها ما يناسب مع هذين المحورين، لتكون النتيجة التعرّف على أسباب تخلّف العالم الإسلاميّ والتعرّف على آليّات وسبل الإصلاح للخلاص من هذا التخلّف بغية الرقيّ والكمال.

أسباب التخلّف:

كان السيّد جمال الدين واسع الإطلاع على الجوامع الإسلاميّة بفضل تردّده على أكثرها ومكوثه فيها؛ لذا سيكتسب خبرة عميقة بأسباب التخلّف التي أحاطت بالمجتمع الإسلاميّ. وهنا نشير إلى أهمّ تلك الأسباب:

أوّلًا: التفسير الخاطئ للدين:

يؤكّد السيّد في موضوع الإصلاح مكانة الدين ودوره في تعالي الفرد

والمجتمع، فالتخلّف الحاصل إنّما هو ناشئ من سوء تفسير الدّين وجهل المسلمين بحقائقه، يقول السيّد: «وما تراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الإسلام، بل من جهل المسلمين حقيقة الدين[٣]».

وفي موضع آخر يرى أنّ الدّين جاء للدعوة إلى الحقّ والحثّ على الفضائل وفعل الخير والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف: «ولكنّا إذا نظرنا إلى الكثير من الذين اتّبعوهم [أي اتبعوا الأديان] فإنّا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق، واتّخذوها وسائط لإضرام الفتن ووسائل لإلقاء المِحَن[٤]».

فالمسلمون -كما يبيّن جمال الدين- من بعد أن تقدّموا بفضل الدين على كافّة الأمم «ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه، وخلطوا بأصوله ما ليس منها، فانتشرت بينهم قواعد الجبر، وضربت في الأذهان حتّى اخترقتها، وامتزجت بالنفوس حتّى أمسكت بعنانها عن الأعمال، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع، وما أحدثه السوفسطائيّون الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدّوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق، وما وضعه كَذَبَةُ النقل من الأحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع ﷺ ويثبتونها في الكتب، وفيها السمّ القاتل لروح الغيرة، وإنّ ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفًا في الهمم وفتورًا في العزائم، وتحقيق أهل الحقّ وقيامهم ببيان الصحيح والباطل. من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامّة خصوصًا بعد حصول النقص في التعليم، والتقصير في إرشاد الكافّة إلى أصول دينهم الحقّة ومبانيه الثابتة التي دعا إليها النبيّ وأصحابه. لقد كانت دراسة الدين على طريقها القويم منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة، ولعلّ هذا هو العلّة في وقوفهم، بل

الموجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم، وهو ما نسأل الله السلامة منه»[٥]. إلى ذلك فإنّ من جملة الأمور التي يؤدّي تفسيرها الخاطئ إلى التخلّف مسألة القضاء والقدر، وقد أولاها السيّد جمال الدين أهميّة خاصّة وأفرد لها بحثًا خاصًّا في مجلّته العروة الوثقى[٦].

يتطرَّق السيّد جمال الدين إلى تصوّر (الإفرنج) لمسألة القضاء والقدر، ويبيِّن زعمهم أنّ هذه المسألة ما تمكّنت من نفوس قوم إلّا وسلبتهم الهمّة والقوّة، وحكمت فيهم الضعف والضِعة، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا إليهم أطوارًا، ثمّ حصروا علّتها في الاعتقاد بالقدر، ثمّ ينقل عنهم قولهم: إنّ المسلمين في فقر وفاقة وتأخّر في القوّة الحربيّة والسياسيّة على سائر الأمم، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض، وتفرّقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة، وغفلوا عمّا يضرّهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضرّ أخاه لا يقصّر في إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى، رضوا بكلّ عارض، واستعدّوا لقبول كلّ حادث، وركنوا إلى السكون في كسور بيوتهم، يسرحون في مرعاهم، ثمّ يعودون إلى مأواهم، الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدّون منها شيئًا. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافًا وتبذيرًا، نفقاتهم واسعة، ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملّتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون، وينوطون المصالح العموميّة بمصالحهم الخصوصيّة، فربّ تنافرٍ بين أميرين

يضيّع أمّة كاملة، كلّ منهما يخذل صاحبه، ويستعدي عليه جاره، فيجد الأجنبيّ فيهما قوّة فانية وضعفًا قاتلًا، فينال من بلادهما ما لا يكلّفه عددًا ولا عدّة، شملهم الخوف وعمّهم الجبن والخور يشرعون من الهمس، ويألمون من اللمس، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم في العزّة والشوكة، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم، مع رؤيتهم لجيرانهم، بل الذين تحت سلطتهم، يتقدّمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون، وإذا أصاب قومًا من إخوانهم مصيبة أو عَدَت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيّات ملّيّة كبيرة لا جهريّة ولا سريّة، يكون من مقاصدها إحياء الغيرة، وتنبيه الحميّة، ومساعدة الضعفاء، وحفظ الحقّ من بغي الأقوياء وتسلّط الغرباء.

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا أن لا منشأ لها إلّا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهمّاتهم على القدرة الإلهيّة، ثم حكموا بأنّ المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزًّا ولن يعيدوا مجدًا، ولا يأخذون بحقّ، ولا يدفعون تعدّيًا، ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك. ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم، ويركس من طباعهم، حتّى يؤدّي بهم إلى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفني بعضهم بعضًا بالمنازعات الخاصّة، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجانب. ويستطرد السيد جمال الدين في شرحه لمزاعم علماء الغرب ومستشرقيهم، فيرى أنّ هؤلاء توهَّموا بعدم وجود فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر والاعتقاد بمذهب الجبريّة القائلين بأنّ الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله، وأنّ المسلمين الآخذين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلّقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما

تميل، ومتى رسخ في نفوس قوم أنّه لا خيار لهم في قول ولا عمل، ولا حركة ولا سكون، وإنّما جميع ذلك بقوّة جابرة، وقدرة قاسرة، فلا ريب تتعطّل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحوّلوا من عالم الوجود إلى عالم العدم[٧].

بعدما ينقل السيّد هذا المعتقد من الغربيّين ومن تبعهم من «المتغربنة» في الشرق، ينبري إلى الدفاع وبيان الرأي الصحيح في مسألة القضاء والقدر، وأنّها لا تعني الجبر المطلق والاستسلام «وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنّه أولئك الواهمون[٨]».

ثمّ يشرع السيّد بشرح مسألة القضاء والقدر، وأنّ الحوادث في نظام الكون تخضع لقانون الأسباب والمسبّبات، وأنّ إرادة الإنسان هي من تلك الأسباب، وبهذه الإرادة افتتح المسلمون البلاد وقاوموا الشرك: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[٩]، وهذا الاعتقاد هو الذي خلق في المسلمين روح الشجاعة والبسالة، وطبع النفوس على الثبات.

«الذي يعتقد أنّ الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقّه وإعلاء كلمة أُمّته أو مكثه، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر ممّا ينفق من ماله في تعزيز الحقّ وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهيّة وأصول الاجتماعات البشريّة»[١٠].

ثمّ إنّ ثمّة عاملًا آخر إلى جانب التفسير الخاطئ للدين، أدّى إلى تخلّف العالم الإسلاميّ عنينا به التّساهل في

أمر الدين، وعدم الالتزام بالشريعة، ففي هذا المورد يقول السيّد: «إنّ من ينسب الضعف للإسلام بنسبة مأخذه فقد أخطأ، لأنّ الكتاب والسنّة سار بهما الإسلام وعلا شأنه في التمدّن والتقدّم مبلغًا عظيمًا من القرون. ولمّا أن هجر العلم وحاد المسلمون عن اتّباع شريعتهم أخذت دولتهم في الانحطاط»[11]. ثم يتوجه بخطابه إلى الآباء والأجداد مشتكيًا ممّا جناه الأبناء والأحفاد، الذين: «انحرفوا عن سنّتكم، وحادوا عن طريقتكم، فضلّوا عن سبيلكم، استبدلوا كلّ فضيلة برذيلة، وأتوا على كلّ أمر لله بعكسه، نبذوا حكمة الدين واتّباع شرع سيّد المرسلين، وتفرّقوا فرقًا وأشياعًا»[12]. «فالسبب الأعظم والفاعل الأكبر في السقوط – كما يضيف- هو إهمال ما كان سببًا في النهوض والمجد وعزّة الملك، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها، وهي التي جمعت الأهواء المختلفة، والكلمة المتفرّقة، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوّته. نعم، لما فشى الجهل في الخلفاء، وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين وحكمته، وهن وضعف أساس الملك، وتزلزل أقوى دعامة له»[13].

١. الخمول والتواني وترك الإقدام والعمل:

يرى جمال الدين أنّ من أسباب تخلّف العالم الإسلاميّ -حسب أطروحات جمال الدين- تغيير أعمالهم بتغيير عقائدهم، إذ إنّه يعتقد بوجود حركة ديالكتيكيّة بين الأعمال والعقائد، من حيث تأثير كلّ واحد منهما على الآخر، ثم يبيّن أن الأفكار العقليّة والعقائد الدينيّة، وسائر المعلومات والمدركات والوجدانات النفسيّة، وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر، ولكن الأعمال هي التي تثبتها وتقوّيها وتطبعها في الأنفس، وتطبع النفس عليها حتّى يصير ما يعبّر

عنه بالملكة والخُلق، وتترتّب عليه الآثار التي تلائمها... ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح في الأجساد»[١٤]. أمّا العلّة في تباطؤ المسلمين عن نصرة إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، هي أنّه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلّا العقيدة الدينيّة مجرّدة عمّا يتبعها من الأعمال التي من آثارها جلب المنافع ودفع المضار، وما يستلزم ذلك من تعارف وتواصل وتبادل بالشعور والتحسّس»[١٥]. وهذه القاعدة من سنن الله تعالى في الكون، وأنّ الأمم ما بادت وتقهقرت إلّا بعد نكوبها عن تلك السنن، إذ إنّ الله تعالى لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، والمسلمون تخلّفوا بعدما تنازعوا وحادوا عن تلك السنن، «نرى الأجانب عنّا يغتصبون ديارنا، ويستنزلون أهلنا، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى في أحد منّا حراكًا»[١٦].

٢. ترك الفضائل والعمل بالرذائل:

وهذه من العلل الأشد خطرًا على الأمّة لجهة اتصالها بالجانب العقائديّ، فالله تعالى جعل «بقاء الأمم ونماءها في التحلّي بالفضائل، وجعل هلاكها ودمارها في التخلّي عنها»[١٧]. وهذه الفضائل كان أشار إليها السيّد في طيّات كتبه ورسائله ومحاضراته، وأشار في هذا الصدد إلى مجموعة فضائل من قبيل: التعقّل، التروّي، انطلاق الفكر من قيود الأوهام، العفّة، السخاء، القناعة والدماثة، الوقار، التواضع، عظم الهمّة، الصبر، الحلم، الشجاعة، الإيثار، النجدة، السماحة، الصدق، الوفاء، الأمانة، سلامة الصدر من الحقد والحسد، العفو، الرفق، المروءة، الحميّة، حبّ العدالة وغيرها من الفضائل، ثمّ يقول: «ألا ترى لو عمّت هذه الصفات الجليلة أمّة من الأمم، أو غلبت في أفرادها، أيكون سوى الاتّحاد والالتئام التامّ؟.. أما والله، لو نفخت نسمة من أرواح هذه

الفضائل على أرض قوم وكانت مواتًا لأحيتها، أو قفرًا لأنبتتها، أو جدبًا لأمطرتها من غيث الرحمة من ما يسبغ نعمة الله عليها، ولأقامت لها من الوحدة سياجًا لا يُغرق، وحرزًا منيعًا لا يُهتك»[١٨]. أمّا الرذائل فهي كما ورد في مؤلَّفاته الأخلاقيّة: قلّة الحياء، البذاء، السفه، البله، الطيش، التهوّر، الجبن، الدناءة، الجزع، الحقد، الحسد، الكبرياء، العجب، اللجاج، السخرية، الغدر، الخيانة، الكذب، النفاق، ويقول: «أمّا الرذائل فهي كيفيّات خبيثة تعرض للأنفس، ومن طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيّفة... هذه الرذائل إذا فشت في أمّة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها، وبدّدتها شذر مذر. وهذه صفات إذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديدًا، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتّى، تراهم أعزّة بعضهم على بعض، أذلّة للأجنبي عنهم، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم، ويفتخرون بالانتماء إليهم، يمهدون السبل للغالبين إلى النكاية بهم، ويمكّنون مخالب المغتالين من أحشائهم، ويرون كلّ حسن من أبناء جنسهم قبيحًا، وكلّ جليل منهم حقيرًا، إذا نطق أجنبيّ بما يدور على ألسنة صبيانهم عدّوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم، وإذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الأسرار عدّوه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم: ليس في الإمكان أن يكون منّا عارف، ومن المحال أن يوجد بيننا خبير. ويغلب عليهم حبّ الفخفخة والفخر الكاذب، ويتنافسون في سفاسف الأمور ودنيّاتها، يرتابون في نصح الناصحين، وإن قامت على صدقهم أقطع البراهين، يسخرون بالواعظين، وإن كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم، وجمع كلمتهم، ويقعدون له بكلّ سبيل، يقيمون في طريقه

العقبات، ويهيئون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ولا تنتظم لأعضائه حركة، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم، فتنفلت أعمالهم عن حدّ الضبط، وتخرج عن قواعد الربط. فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعًا ومبعثًا للضرّ، يصير الواحد منهم كالكلب، أوّل ما يبدأ بعضّ صاحبه قبل الأجنبيّ، بل كالمبتلى بجنون مطبق، أوّل ما يفتك بمربّيه ومهذّبه ثم يثنّي بطبيبه ومن يعالج داءه، تكون الآحاد منهم كالأمراض الأكّالة من نحو الجذام والآكلة، يمزّقون الأمّة قطعًا وجذاذات بعدما يشوّهون وجهها ويشوّشون هيئتها، أولئك قوم يسامون في مراعي الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم، فينتفخون على أبناء جلدتهم، ويذلّون لقزم الأجانب فضلًا عن عليتهم، وبهذا يمكنون الذلّة في نفوسهم، من دونهم، ويطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الأعداء الألداء من طبقة إلى طبقة حتى تضمحلّ الأمة وتنسخ هيئتها وتفنى في أمّة أو ملّة أخرى، سنّة الله في تبدّل الدول وفناء الأمم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[19]، أعاذنا الله من هذه العاقبة، وحرس أمّتنا وملّتنا من المصير إلى هذه النهاية[20].

وقد أفرد السيّد جمال الدين لبعض هذه الرذائل بحثًا مستقلًّا أقامه تحت اليأس، والوهم والجبن والخلاف والفرقة. أربعة عناوين هي:

أ. اليأس:

بعدما يشرح فضيلة الأمل، وما يترتّب عليها من المآثر والمحاسن، يعرّج السيد جمال الدين على اليأس والقنوط، ويذكر ما يعتري القانط من الانحطاط والعجز ممّا يكون مدعاة لتعاطي الرذائل وعدم النفور من

الإهانة والتحقير، وسلب جميع أنواع الإحساسات والوجدانيّات الإنسانيّة[٢١]. ثمّ يشير إلى عامل رئيسيّ في وصول الإنسان إلى اليأس والقنوط، وهو اعتماد الإنسان على نفسه بمعزل عن الله تعالى، فيظنّ أنّ جميع أعماله إنّما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال، وليس فوق يده يد تمدّه بالمعونة، فإذا صادفته الموانع وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه لزمه اليأس والقنوط لاعتقاده بعدم وجود قوّة أخرى تعينه وترفع له الموانع، أمّا لو أيقن بأنّ لهذا الكون مدبّرًا عظيم الشأن تخضع كلّ قوّة لعظمته، وأنّ بيده مقاليد الأمور، لما أصابه اليأس والقنوط؛ إذ إنّه يركن إلى الله تعالى، وكلّما اشتدّت عليه المحن زادت همّته وإرادته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[٢٢] وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[٢٣].

ب. الوهم:

يعرّف السيّد الوهم بوصفه حجاب الحقيقة، وغشاء عين البصيرة، يرى الضعيف قويًّا والقريب بعيدًا. والوهم هذا إذا تسلّط على قوم خفيت فيهم الحقائق وتسلّطت الأوهام على الإرادات، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة[٢٤]. بعد ذلك يعرّج السيّد على ما يتوهّمه الشرقيّون أمام دولة الإنكليز، فيحسبونها قوّة عظمى لا يمكن مكافحتها، وهكذا «يمثّل الوهم لكلّ شرقيّ أنّ الإنجليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم، فمثل الشرقيّين الإنجليز كمثل مارّ في مفازة يرى بها جثّة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك، فيتوهّمها سبعًا ضاريًا ومفترسًا قويًّا، فينكبّ عن الطريق وهمًا وريبة بدون تحقيق لما تخوّف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفًا أو يضلّ بعد ذلك عن الجادّة وتختلط عليه مسالك الوصول إلى غايته، وربّما صادف مهلكة في ضلاله

ومتلفة في غيّه»[٢٥].

في المقابل، كان الوهم متسلّطًا على الغربيّين أيضًا، حيث كانوا يهابون جانب الإنجليز، غير أنّهم بدّدوا هذا الوهم ونهضوا لردع الإنجليز، يقول السيّد: «ليس في الأمر شيء سوى الوهم، هذا الوهم تمزّقت حجبه عن بصائر الغربيّين، فعلموا من هم الإنجليز، ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء، صوت عال وشبح بال، قامت الدول على معارضتهم لعلمها أنّ الإنجليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحّة وتدمّر البنية. لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيّين حتّى يستفيدوا من هذه الحركات، ويستقلّوا بأمورهم ولا ينتقلوا من عبوديّة إلى أُخرى»[٢٦].

ت. الجبن:

يخصّص السيّد جمال الدين لموضوع الجبن مبحثًا خاصًّا في مجلّة العروة الوثقى، ويرى أنّه السبب في إحجام النفوس عن العمل والوقوع في الزلل، ويعرِّفه بأنه: «انخذال في النفس عن مقاومة كلّ عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الأمراض الروحيّة، يذهب بالقوّة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركنًا من أركان الحياة الطبيعيّة»[٢٧]. ومن الصفات السيّئة التي يورثها الجبن: أنّه يقطع روابط الأمم، يوهن عزائم الملوك، يضعف قلوب العاملين، يغلق أبواب الخير، يطمس معالم الهداية، يسهّل على النفوس احتمال الذلّة، يهوّن عليها العبوديّة وتلقّي الإهانة والتذليل، وغيرها من الصفات الذميمة[٢٨] وعليه «ينبغي أن يكون أبناء الملّة الإسلاميّة بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة، فإنّها أشدّ الموانع عن أداء ما يرضي الله»[٢٩].

ث. الخلاف والفرقة:

وهذه من الرذائل التي تشكل أحد أبرز عوامل التخلّف؛ بسببها ينقطع

التواصل والتعارف بين المسلمين ويهجر بعضهم بعضًا هجرًا غير جميل[٣٠]، «فالعلماء في شتّى أقطار العالم الإسلاميّ غير متواصلين، وكذلك الملوك والحكّام، وسرى هذا الداء بين عامّة المسلمين أيضًا، حتّى صحّ أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم، وبلد وبلد»[٣١]. «لا يحنّ أخ لأخيه، ولا يهتمّ جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلًّا ولا ذمّة»[٣٢]. وأمّا العلاج كما يراه السيّد جمال الدين إنّما هو الوحدة والتواصل والتعارف بين المسلمين، ليكونوا حلقات في سلسلة واحدة من حيث التعاضد والتكاتف، ينصر بعضهم بعضًا.

٣. الاستبداد وضعف السلطة السياسيّة:

لا شكّ في أنّ عامل الاستبداد السياسيّ هو من العوامل الأساسيّة التي أطاحت بالعالم الإسلاميّ، وحالت دون تقدّمه وازدهاره، حيث نرى الحكّام والملوك إمّا مستبدين وإمّا ضعفاء لا يقدرون على رعاية مصالح العباد أمام الأطماع الداخليّة والاستعمار الخارجيّ، مضافًا إلى ما ظهر منهم من المفاسد واللهو واللعب.

يقول في هذا الصدد: «كان حكّامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم، فتمكّن الضعف في نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيّات التي لا تتجاوز لذّته الآنيّة، وأخذ كلّ منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كلّ باب»[٣٣]. وممّا يدلّ على هذا الضعف والهوان أنّ أمراء الشرق «سلّموا أمورهم، ووكّلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم، حتّى ولّوهم خدمتهم الخاصّة بهم في بطون بيوتهم، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم»[٣٤]. والعامل المهمّ الآخر

إنّما هو استبداد الحاكم، يقول السيّد: «إذا سبرنا الموجودات سبرًا فلسفيًّا، فلا نجد لتأخّرنا غير سببين أصليّين: وهما التعصّب والاستبداد»[٣٥] ويعرّف الاستبداد بأنّه: «أن تكون أمّة من الأمم مقيّدة بسلسلة رأي واحد من الناس لا تتحرّك إلّا بإرادته ولا تفعل إلّا برضاه»[٣٦].

وهذا الداء يصرف عقول الناس وإرادتهم لطاعة شخص واحد، ربّما لا يتمكّن من جلب السعادة والنفع لنفسه فكيف لغيره ولأمّة بأكملها، وعليه فإنّ «الأمّة التي ليس لها في شؤونها حلّ ولا عقد، ولا تُستشار في مصالحها، ولا أثر لإرادتها في منافعها العموميّة، وإنّما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون، ومشيئة نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمّة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير»[٣٧].

ولأجل الخروج من تخلّف الاستبداد يدعو السيّد إلى حكومة شورويّة كما سيأتي.

٤. مناهضة مركزيّة الغرب:

لقد اتّخذ السيّد جمال الدين موقفًا صارمًا حيال تعدّيات الغرب، ولا سيّما بريطانيا على العالم الإسلاميّ، كان يقول في مقام الدفاع عن نفسه أمام من ينتقد صرامته في ذلك: «أمّا القول في نفرتي من الإنجليز أو بغضي لهم وتعريضي بسوء أعمالهم، فلا يفوتنّك العلم أنّني ما تناولت الإنجليز وحكومتهم إلّا من وجهة استعمارهم وتدخّلهم في الممالك الشرقيّة، كالهند ومصر، وسومهم أهلها سوء التصرّف، ومنتهى العسف والجور»[٣٨]. ربّما أمكن القول إنّ هجوم الغرب على العالم الإسلاميّ يعود إلى سببين كلّيّين: الأوّل دينيّ والثاني اقتصاديّ. أمّا السبب الدينيّ فيعود إلى سقوط بعض دول الغرب وتسخيرها من قبل المسلمين، كفتح القسطنطيّة وأسبانيا وما شاكل، حيث أجّج نار الحقد الطائفيّ والدينيّ وأثار

حفيظة المسيحيّين ملوكًا وعلماء[٣٩]، ودعاهم إلى ما دعاهم من حروب صليبيّة والتخطيط للسيطرة على العالم الإسلاميّ. أمّا العامل الثاني فجاء بعد الثورة الصناعيّة الغربيّة، وتوجّه الغرب نحو الشرق الغنيّ بحثًا عن أسواق للتصدير واستهلاك ما تمّ صناعته في الغرب، وكذلك العثور على المواد الطبيعيّة في مقام الإنتاج والصناعة.

لقد حاول السيّد جمال الدين أن يكشف ما أحاط بالمسلمين من التخلّف جراء تسلّط الاستعمار على البلدان الإسلاميّة، وكذلك كشف مخطّطاتهم لإحكام هذه السيطرة بشتّى الوسائل والادعاءات البرّاقة حول التنوير وحقوق الإنسان التي يطلقها الغرب – بريطانيا كقوّة عالميّة آنذاك، لا تنطلي على أحد فإنّها لا تتعدّى الأقاويل الفارغة، وإن كان لها مصداقيّة ما، فإنّها لا تتجاوز الإنسان الغربيّ، يقول السيّد: «الإنجليز كأمّة ليس من ينكر أنّها من أرقى الأمم، تعرف معاني العدل وتعمل بها، ولكن في بلادها ومع الإنكليز أنفسهم، وتنصف المظلوم إذا كان من الإنجليز، تعلم أنّ للإنسان حقًّا في الحياة، وهذا الإنسان في عرفهم هو الإنجليزيّ، وغيره من البشر ليس بإنسان»[٤٠].

وعليه عندما نستقرئ مواقف السيّد جمال الدين حول أسباب تأخّر العالم الإسلاميّ، نرى أنّ الغرب لعب دورًا بارزًا فيه، وذلك من خلال الأدوار التالية:

أ. الاستعمار:

يعدّ السيّد جمال الدين الاستعمار من أهمّ أسباب انحطاط المسلمين[٤١] فالاستعمار بمعناه الصحيح ومبناه الصريح، -كما يقول- هو تسلّط دول وشعوب أقوياء علماء، على شعوب ضعيفة جهلاء»[٤٢] وبعد الاستعمار مباشرة تحصل الدهشة لدى الشعوب المستعمرَة، فيذعنون بالطاعة والانقياد، ثمّ تسلّط المستعمِر على

خيرات البلاد جرّاء ذلك الخضوع وتلك الاستكانة، ثمّ يُثقّل كاهله بالضرائب وأنواع الاضطهادات[٤٣].

وطبقًا لمنظومة الأسباب والمسبّبات التي تحكم العالم، يرى السيّد جمال الدين أنّ الاستعمار سينتهي يومًا ما بحسب السنن الكونيّة، شريطة أن ينهض المسلمون لتفعيل تلك السنن والأسباب: «انقضاء أجل الاستعمار إنّما يتمّ بزوال الأسباب التي مكّنت أهله من التسلّط، وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم. نعم، متى ضعف ما كان سببًا في الصعود يحصل الهبوط والانحطاط، ومتى زال ما كان سببًا في السقوط يحصل الصعود، دور للحاكم والمحكوم، وقاعدة هي بحكم اللازم والملزوم»[٤٤].

ب. الطعن في الدين وإفساد العقائد:

من البيِّن أنّ الغرب أدرك أنّ العامل الوحيد الذي يقف حائلًا دون الهيمنة على العالم الإسلاميّ إنّما هو دين الإسلام. مع ما له من دور للفرد والمجتمع في الدعوة إلى التآخي وتوحيد الكلمة ونفي الذلّ والهوان، والدعوة إلى العصبيّة الدينيّة؛ لذا قاموا بمحاربة الدين.

يرى السيّد أنّ «الحكومة الإنجليزيّة تضمر للمسلمين عداء شديدًا... كأنّ لها لذّة في نكاية أهل الدين، وكأنّها تبتغي السعادة في تذليلهم، ومحو ما يكون من ملكهم، وكمال بهجتها في أن تراهم أذلّاء عبيدًا لا يملكون من أمرهم شيئًا»[٤٥]. كما أنّهم «أحسّوا أنّ المسلمين ما داموا على دينهم، وما دام القرآن يُتلى بينهم، فمحال أن يخلصوا في الخضوع لسلطة أجنبيّ عنهم»[٤٦]؛ لذا قاموا بشتّى أنواع الحيل لتفتيت هذا الأمر، وإيجاد التفرقة وبثّ العقائد الفاسدة والمادّيّة وشتم المعتقدات والمقدّسات[٤٧] وذمّ التعصّب الدينيّ[٤٨] مع أنّهم من أشدّ الناس عصبيّة في دينهم[٤٩].

ت. خطط الغرب في التسلّط على العالم الإسلاميّ:

حين نستقرئ المدوّنات الفكريّة والثقافيّة للغرب نجد أنّ الانطباع الموجود عند الغربيّ عن العالم الإسلاميّ أنّه خامل جاهل متعصّب، ولديه أراض خصبة، معادن كثيرة، مشاريع كبيرة، هواء معتدل، ولكن نحن أولى بالتمتّع بكلّ هذا»[٥٠].

لذا وضع خطّة للاستيلاء على هذه البلاد عبر طرق شتى:

١. إقصاء كلّ وطنيّ حرّ يمكنه الجهر بمطالب وطنيّة.

٢. تقريب الأسقطِ همّةً والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحقّ.

٣. الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعًا، فتؤثْر طائفة على الأخرى ولو بأمور طفيفة تافهة، حتّى تستحكم النفرة من بعضهم، فيضعون بأسهم بينهم... بل يجعلون أبناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضًا»[٥١].

ثمّ يذكر السيّد بعض المبرّرات التي يتمسّك بها الغربيّ للنفوذ والاستيلاء على العالم الإسلاميّ، منها: حفظ حقوق السلطان، إخماد فتنة قامت على الأمير، حريّة الشعب، تعليم أصول الاستقلال، حماية الأقلّيّات الدينيّة أو المذهبيّة، إغناء الشعب الفقير وغيرها من الخدع والمبرّرات الواهية، وعلى الرغم من تظاهره بالرحمة والشفقة ومحاولة مساعدة الدول الإسلاميّة للوصول إلى الاستقلال الاقتصاديّ والسياسيّ والاجتماعيّ، إلّا «أنّ الغرب في الحقيقة ليس من مصلحته إصلاح سير ولا إصلاح سيرة المسرف المبذّر لترجع إليه حقوقه، بل من أقصى أمانيه أن يتمادى الشرقيّ في غيّه وإسرافه لكي يطول عهد الحجر... فما لبث الشرقيّون في السفه والسرف يلبث حكم تلك الوصاية»[٥٢]. «فالغربيّون ولا ريب يمانعون بطرق خفيّة ترقية الشرقيّين لأنفسهم على طريقة وطنيّة خاصّة

بهم، ويعرقلون مساعيهم بأشكال نصح غريبة، ولا يسهلون وسائل تهذيب أخلاق مجموعهم، بل يعملون على العكس... بأساليب غاية في المكر والمغالطة والسفسطة والاستعانة ببعض أهل البلاد على ذلك»[٥٣].

د. مكر بريطانيا وخداعها:

كان السيد جمال الدين وإنطلاقًا من فكره النهضويّ الإصلاحيّ على دراية عميقة بجدليّة التأخّر والهيمنة الاستعماريّة؛ وهذا ما دعاه إلى كشف ما ينطوي عليه السلوك الاستعماريّ لبريطانيا في ذلك الوقت. وقد كان ذلك واضحًا في مطالعاته حين رأى أنّ بريطانيا تمثّل الروح الاستعماريّة الغربيّة. ثمّ راح يكشف للمسلمين خططها الماكرة في أكثر من مكان ومقال، ويقول: «هذه دولة الإنجليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفًا لا يحسّ به عند بدئه، ثمّ يذهب في البدن، فيفسده ويبليه من دون أن يشعر المصاب بالألم. وهكذا شأن الإنكليز في لينهم وتلطّفهم، وحلاوة وعودهم وتملّقهم وخضوعهم»[٥٤]. فلقد هيمن الإنجليز على نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة، ولا صرف أموال وافرة، وإنّما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة»[٥٥].

وفي سياق رؤيته للسلوك الاستعماريّ يسجل أنّ بريطانيا أوّل ما اتّجهت للنفوذ في الهند، بذريعة تخليص الشعب الهنديّ من ظلم فرنسا وهولندا والبرتغال وإيصالهم إلى التحرّر والاستقلال[٥٦]، ثمّ بعد هذا ذهبت بريطانيا مذهب «اللين واللطف وخفض جناح الذل والظهور في ألبسة الخضوع والخشوع»[٥٧]، وبهذا تمكّنت من النفوذ من جهة، ونقض أساس السلطنة التيموريّة من جهة ثانية[٥٨]، كما أنّ بعض الإنجليز كان يتظاهر بالدخول في الإسلام حتّى يستميل قلوب المسلمين، ويتجسّس عليهم ويستكشف ما يحملونه من عداء وخطط ضدّ

الإنجليز[٥٩]. أمّا في مصر فكانوا يثيرون الفتن ثمّ يأتون لإخمادها[٦٠]، وأعطوا الوعود وزخرفوا الأماني لبعض النخب المصريّة كي تعينهم على الوصول إلى بعض المآرب، ثمّ قلبوا لهم ظهر المجنّ تحت أستار الحجج والتعلّلات[٦١]، ولّما رأوا أنّ المصريّين لو كانت لهم ماليّة وعسكريّة قويّة ما أمكنهم إحكام القبضة على مصر، «فضيّقوا على الماليّة في تلك الأوقات، وألجأوا الحكومة لتمزيق قوّتها العسكريّة ليحصل الضعف في القوّتين الماليّة والجنديّة، فتمدّ لهم طريق ما طمحوا إليه»[٦٢]، وفي الأزمة الماليّة التي أطاحت بمصر جرّاء سياساتها قامت بريطانيا بتنقيص فائدة الدَّيْن المصريّ الذي أعطته لها، بحيث سبّبت اعتراض باقي الدول الأوروبيّة، ولم يكن عملها هذا رحمة وشفقة لمصر وأهلها، وإنّما لكي تسود على مصر، وتستعبد أهلها وترى أنّ بقاء الحالة الماليّة على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة، فلا يكون حظّ الخزينة الإنجليزيّة الخاصّة من ثروة مصر وافرًا؛ ولهذا بادرت قبل إعلان الحماية أو السيادة أو الاستملاك بالسعي في تخفيض فائدة الدين، لتستأثر فيما بعد بما تزعم التفضّل به الآن على المصريّين، فهي تسعى لفائدتها الخاصّة ليس إلّا»[٦٣]. ولقد ظهر من خداعهم أيضًا التشويش على الحاكم أو الأمير الذي لا يتوافق معهم، «فإمّا أن يفسدوا عليه قلوب رعيّته، ويثيروا عليه أحقادها، أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأسر، أو يتّفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة، ثمّ ينصبون بدله إمّا ضعيفًا أحمق، وإمّا صبيًّا لم يبلغ الرشد، ليتمكّنوا من بلوغ مقاصدهم»[٦٤]. ويشرح السيّد جمال الدين كيف نافقت بريطانيا في نقض أسس السلطنة التيموريّة في الهند، من خلال تأجيج الخلاف بين الأمراء والراجوات، وإلقاء الفتن وضرب هذا بذاك[٦٥]. واتّخذت السياسة نفسها في

مصر أيضًا، وأعادت هذه المسرحيّة «فتارة إلى جانب الخديوي توفيق، وطورًا إلى جانب الحزب الوطنيّ المصريّ، حيث لم تعد تعرف أيًّا من الاثنين هو تحت حمايتها نهائيًّا»[٦٦].

وأخيرًا يهيب بالشعب المصريّ ويقول لهم: «إنّ الإنجليز لو ثبتت أقدامهم في الديار لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم، وخطرات قلوبهم، بل على استعداد عقولهم ولما عساه يخطر ببالهم... إنّ الإنكليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء، والأحفاد بجرائم الأجداد، ويطلبون الدراري بدفائن أسلافهم، وإن لم يكن للخلف علم بما ترك السلف»[٦٧].

٥. المتغربنون:

العامل الأخير للتخلّف في العالم الإسلاميّ والذي نذكره هنا، إنّما هو خطر المتغربنين الذين تعلّموا في الغرب ويريدون تطبيق ما توصّل إليه الغرب في العالم الإسلاميّ من دون رعاية الخلفيّات والمستلزمات والفوارق الشاسعة، في هذا المجال يرى جمال الدين: «إنّ أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجّم أولي المطامع من الغربيّين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة الذين بمجرّد تعلّمهم لغة القوم والتأدّب بأسفل آدابهم، يعتقدون أنّ كلّ الكمال إنّما هو فيما تعلّمونه من اللسان على بسائطه، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سير ومسير من قطع مراحل من الغربيّين في سبيل الأخذ في ترقية أمّته بدون أن يسبروا من ذلك غورًا أو يفهموا لتدرجهم معنى، ويعتقد الناشئ الشرقيّ أنّ كلّ الرذائل ودواعي الحطّة ومقاومات التقدّم إنّما هي في قومه، فيجري مع تيّار غريب من امتهان كلّ عادة شرقيّة، ومن كلّ مشروع وطنيّ يتصدّى له فئة من قومه أو أهل بلده، ويأنف من الاشتراك في أيّ عمل لم يشارك فيه الأجنبيّ ولو اسمًا، ويسارع لتقديس وتصويب خطأ

يأتيه الغريب، ويسهل له كلّ صعب في مطلبه، ويطلعه على هنات قومه وزللهم وموقع الضعف منهم»[٦٨]. ثمّ إنّ هؤلاء المتأثّرين بالغرب لم يكتفوا بهذا، بل قاموا بإفساد عقائد المسلمين وبث الزندقة والماديّة فيهم، وحاربوا روح التعصّب الدينيّ وهوّنوه[٦٩].

بل أكثر من هذا، إذ إنهم قاموا بضرب اللغة والتاريخ، فذهبوا بإيعاز من أربابهم الغربيّين «بأن ليس في لسانهم العربيّ أو الفارسيّ أو الأوردو الهنديّ آدابًا تؤثّر، ولا في تاريخهم مجدًا يذكر. وإنّ المجد كلّ المجد لذلك الشرقيّ الخامل أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنّه لا يحسن التعبير بها، وإنّ ما تعلّمه من الرطانة الأعجميّة هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشريّة»[٧٠].

ثانيًا - الإصلاح:

لا شكّ في أنّ عوامل تخلّف العالم الإسلاميّ التي مرّت الإشارة إليها، هي أهمّ ما تمّ تقييده وأرشفته من كلام السيّد جمال الدين في كتبه ورسائله، وطبع ضمن مجموعة مؤلّفاته، وإلّا فإنّ عوامل التخلّف كثيرة ولا تنحصر بما مرّ. من ذلك، لا بدّ من الإشارة إلى ما ورد عن السيّد جمال الدين حول سبل الإصلاح وأسباب التقدّم والخروج من التخلّف، وهي كثيرة ويمكننا إيرادها وفقًا للعناوين التالية:

١. الدين:

الدين هو المحور الأساسيّ في حركة السيّد جمال الدين الإصلاحيّة، وعلى ضوء موقفه من الدين تمّ تصنيفه ضمن التيّار الإسلاميّ الإصلاحيّ، يرى السيّد جمال الدين «أنّ الدين وضع إلهيّ ومعلّمه والداعي إليه البشر... وهو عند جميع الأمم أوّل ما يمتزج بالقلب، ويرسخ في الأفئدة، وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات،

وتتمرّن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها، فله السلطة الأولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبّر به بدنها، وكأنّما الإنسان في نشأته لوح صقيل، وأوّل ما يخطّ فيه رسم الدين، ثمّ ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده»[٧١]. وعليه، يعدّ الدين في تفكير الإصلاحيّ أوّل معلّم، وأرشد أستاذ، وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسّع في المعارف، وأرحم مؤدّب، وأبصر مروّض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة، والخلائق الكريمة، ويقيمها على جادّة العدل، وينبّه فيها حاسّة الشفقة والرحمة، خصوصًا دين الإسلام، فهو الذي رفع أمّة كانت من أعرق الأمم في التوحّش والقسوة والخشونة، وسما بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنيّة في أقرب مدّة»[٧٢].

ثمّ إنّ السيّد جمال الدين يرى أنّ الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد تعدّ من أركان وجود الأمم وازدهارها وبناء هيئتها الاجتماعيّة، وأساس محكم لمدنيّتها تدعو الشعوب إلى التقدّم والكمال ورقي السعادة:

العقيدة الأولى: التصديق بأنّ الإنسان ملك أرضيّ وهو أشرف المخلوقات، فإذا كان كذلك فإنّه سوف يترفّع عن الصفات البهيميّة، ويرقى بروحه إلى العالم العقليّ، وكلّما سما عقله أوفى على المدنيّة، وهي ترفع التقاطع بين بني البشر.

العقيدة الثانية: يقين كلّ ذي دين بأنّ أمّته أشرف الأمم، وكلّ مخالف له فعلى ضلال وباطل. وجرّاء ذلك ينهض أحاد الأمّة لمكاثرة الأمم في مفاخرها ومسابقتها في الفضائل، والتقدّم عليها في المزايا الإنسانيّة عقليّة كانت أم نفسيّة، وهو عندما يرى الفخر والشرف في أمّة أخرى، يسعى جاهدًا لينقلها إلى أمّته؛ إذ يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل ما يعدّ شرفًا

إنسانيًّا، فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنيّة.

العقيدة الثالثة: جزمه بأنّ الإنسان إنّما ورد في هذه الدنيا، لاستحصال الكمال والتهيّؤ للعروج إلى عالم أرفع من العالم الدنيويّ، ومن أُشربت هذه العقيدة قلبه ينساق لإضاءة عقله بالعلوم الحقّة والمعارف الصافية، كما أنّه ينفق ساعاته في تهذيب نفسه وتطهيرها من الرذائل[٧٣]. ثم إنّه يرى أنّ الإسلام يحقّق السعادة البشريّة، وذلك أنّ سعادة البشر مرهونة بعدّة أمور والإسلام حقّقها بنحو أفضل وإليك بيانه:

١. صفاء العقول من الخرافات والأوهام، إذ إنّها تحول بين الإنسان وبين الواقع والحقيقة وتسبّب توقّف الحركة الفكريّة والتعقّل والرضى بالظنون والأوهام، أمّا الإسلام فإنّ ركنه الأوّل صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام، وإنّ الله تعالى بيده أزمة الأمور.

٢. أن تكون الأمّة طامحة لبلوغ الشرف والكمال، وحينئذٍ يتسابق الأفراد لنيل الكمال والشرف، أمّا لو اعتقدوا بأنّ نصيبهم من الفطرة والخلقة نقص الاستعداد وخسّة المنزلة ولا سبيل لهم إلى الكمال، فلا ريب أن تسقط هممهم، أمّا الإسلام فقد فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس، وقرّر التفاضل على قاعدة الكمال العقليّ والفضائل المكتسبة.

٣. ابتناء العقائد على البراهين القويّة والأدلّة الصحيحة دون التقليد، والإسلام ربّما يكون متفرّدًا بين باقي الأديان في توبيخ اتّباع الظنّ وتقليد الآباء والأجداد، بل يأخذ عليهم بالبحث والبرهان.

٤. اختصاص طائفة من الأمم بتعليم الناس وتنوير عقولهم وتهذيب نفوسهم، وقد تبنّى الإسلام ذلك، ففي القرآن ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾[٧٤]، وكذلك قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٧٥].

لقد كثر الكلام بين المفكّرين حول أنّ الدين هل جاء لبناء الآخرة فقط، أم أنّه ينفع لسعادة الدنيا أيضًا، ومن هذه الفكرة المحوريّة تشعّبت الاتّجاهات والتيّارات، أمّا السيّد جمال الدين، فإنّه كغيره من المصلحين على مدى التاريخ، يرى أنّ الدين الإسلاميّ جاء لسعادة الدنيا والآخرة، إنّه يقول: «الدين الإسلاميّ لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط، ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة، وهذا المعبّر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين»[٧٦]. «فالدين هو السائق إلى السعادة في الدنيا كما يسوق إليها في الآخرة»[٧٧] «ولو أمكن للناس أن يعملوا بها [أي تعاليم الدين] لتوفّرت لديهم السعادة وأنواع الخير، ولخفّ عنهم كثير من الويل والشرّ»[٧٨].

في مقال نشره جمال الدين في مجلّته العروة الوثقى، يبحث عن أنجع السبل وأفضلها لإصلاح الأمم، حيث يرى بعض الناس أنّ أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنّها تتكفّل إنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق، غير أنّ السيّد لم يرتض هذا الرأي، إذ لا يوجد قارئ للصحف والجرائد، ولو وُجد فقلّما نجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير المراد، على أنّ الأمّة الخاوية التي لا همّة لها كيف يمكن إنهاضها لتقرأ الجرائد وتستوعبها. وهناك فريق آخر زعم أنّ الخلاص من التخلّف يتمّ من خلال إنشاء مدارس عموميّة في كلّ بقعة ومكان، بشرط أن تكون على الطراز الأوروبيّ، حتّى تعمّ المعارف بين جميع أفراد الأمّة، وعند تعميم المعارف تكمل الأخلاق وتجتمع القوّة وتتّحد الكلمة. وهذا

الرأي والظنّ غير مقبول عند السيّد أيضًا، ويسهب في نقده وبيان نواقصه، فهذا الأمر بحاجة إلى قوّة قاهرة ومال كثير يدعم المشروع، وهذان الأمران مفقودان، وإلّا لما سقطت الأمّة، وثانيًا هب لو تعلّم بعض الناس ذلك، فإنّ هذا لا ينفع الأمّة للبعد عن أسباب نشأة تلك العلوم، والوقوف على بيئتها وغاياتها، فحينئذٍ يكون هؤلاء القوم في الأمّة «كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلّا فسادًا».

وثالثًا يذكر السيّد بعض الأمثلة لتشييد هكذا مدارس في مصر والدولة العثمانيّة، ويتساءل هل حلّت هذه المدارس مشاكل البلاد؟! نعم، تغيّرت بعض المظاهر في المآكل والملبس والمسكن، غير أنّها لم تكن إصلاحات حقيقيّة بل ظواهر ونقل حرفيّ وتقليد للغرب، «وما كان هذا إلّا لأنّ تلك العلوم وُضعت فيهم على غير أساسها، وفاجأتهم قبل أوانها، علّمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأنّ المقلّدين من كلّ أمّة المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرّق الأعداء إليها... بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلّدوهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤمًا على أبناء أمّتهم، يذلّونهم ويحتقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلّت.. ويصير أولئك المقلّدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهّدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب»[79].

ثمّ بعد هذا يرى السيّد أنّ السبيل الوحيد إنّما هو «دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبّة، مزكٍّ للنفوس، مطهّر للقلوب من أدران الخسائس، منوّر للعقول بإشراق الحقّ من مطالع قضاياه، كافل لكلّ ما يحتاج إليه الإنسان من مباني في الاجتماعات البشريّة، وحافظ وجودها وينادي بمعتقده إلى جميع فروع المدنيّة»[80].

وأمّا دليل السيّد على مدّعاه، فهو أنّ

الإسلام أنّ هذا الدين قد أوصل العرب إلى العلوّ والتقدّم على باقي الأمم، وتقهقر المسلمون بعدما تركوا تعاليمه، وليس لهم سبيل إلى الإصلاح إلّا بعد الرجوع إلى تلك التعاليم، «فعلاجها الناجع إنّما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته... ومن طلب إصلاح أمّة -شأنها ما ذكرناه- بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا... ولا يزيد الأمّة إلّا نكسًا ولا يكسبها إلّا تعسًا»[٨١]. وفي مبحث آخر يعدّد السيّد جمال الدين أسباب صيانة حقوق الأمّة، وسوقها نحو الكمال والتقدّم، فيحصرها في أربعة أمور:

١- أن يدافع كلّ ذي حقّ عن حقّه بالسيف ليل نهار

٢- الاعتماد على شرافة النفس وكرامتها

٣- وجود حكومة قويّة

٤- الدين ثمّ بعد هذا يقيس مدى صلاحيّة كلّ واحد منها لإصلاح الأمّة، ثم يبيِّن أنّ لكلّ من هذه الأمور المذكورة وجهًا تطبيقيًّا يورده على النحو التالي:

الوجه الأوّل: مآلُه الفوضى، وسيلان الدماء في الشوارع، وتعدّي القوّي على الضعيف.

الوجه الثاني: وهو ما لا يمكن تحديده بالضبط عند الأمم المختلفة، فهناك بعض الأمور تعدّ دنيئة عند بعض الأمم وعند بعضها الآخر شريفة وكذا العكس، كما أنّ الطبقات العليا ربّما ترى الشرافة بما يناسبها ويخدمها في تأمين حقوقها؛ لذا تقوم بالتعدّي والإجحاف على الضعفاء، وهي ربّما تنفع أيضًا في تعديل الأمور ظاهريًّا، غير أنّها لا تمنع التعدّيات الباطنيّة والخيانات المخفيّة؛ لأنّها توافق الأهواء والشهوات، ومن جهة ثانية حصول تزلّف الضعفاء أمام الأقوياء، وكثرة النفاق والرياء.

الوجه الثالث: فإنّ الحكومة

تتمكّن من إصلاح الظاهر، أمّا الأمور الخفية والباطنيّة والدسائس والأهواء والشهوات فلا سبيل للحكومة القويّة إلى إصلاحها، مضافًا إلى أنّ الحاكم وطبقته ربّما يغرقون هم أنفسهم في الشهوات فيكونوا أساس الداء.

أمّا **الوجه الرابع**، فهو الدين أي «الإيمان بأنّ للعالم صانعًا عليمًا قديرًا، والاعتقاد بأنّ للخير والشر جزاء في عالم آخر، وهذان الاعتقادان هما من أفضل الطرق لكبح الشهوات ورفع التعدّيات الظاهريّة والباطنيّة، وأقوى ركن لدحض الحيل والتدليس والتزوير، وأفضل ركن لإحقاق الحقوق وتحقيق الأمان والرفاهيّة التامّة، ومن دونها لا تتحقّق الهيئة الاجتماعيّة، وتلبس المدنيّة لباس الوجود، ولا تستقيم المعاملات والمعاشرات»[٨٢].

ومن المعلوم أنّ السيّد جمال الدين هو من دعاة الرابطة الدينيّة والعصبيّة الدينيّة والعقديّة، وعليه نراه يدحض التعصّب الديني الذي يعيق كلّ مسعى نهضويّ وإصلاحيّ في الأمّة، حيث التقدّم والإصلاح حول التعصّب الديني ويقول: «التعصّب يراد منه النعرة على الجنس، التي مرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد، وقد توسّع أهل العرف فيه، فأطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضًا»[٨٣].

والتعصّب الديني حسب السيّد جمال الدين من مفاعيله أنّه «يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعدّدة، ويصل فيما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال، وكذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات، بل المتباعدة في الصور والأشكال، ويحوّل أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد، وهو تأصيل المجد والشرف، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لها»[٨٤]. ربّما يحصل غلوّ في التعصّب الديني، فتؤول الأمور الى الظلم والتعدّي على

باقي الأديان، غير أنّ هذا عند السيّد جمال الدين غير أصيل، ويلزم أن ترجع الأمور إلى نصابها؛ لأنّه يخالف أصول الدين[٨٥]. ونظرًا إلى خطورة التعصّب الدينيّ في عمليّة الإصلاح، بات منفورًا لدى الغرب، لأنّ لهم مطامع في العالم الإسلاميّ لا يصلون إليها إلّا بتمزيق العالم الإسلاميّ شيعًا وأحزابًا، وبإماتة روح العصبيّة الدينيّة[٨٦]. وقد تأثّر المتغربنون بهم وقاموا بمحاربة العصبيّة الدينيّة تقليدًا للغرب[٨٧]. ويبدي السيد استغرابه من أنّ بعضًا من سذّج المسلمين... يسفكون الكلام في ذمّ التعصّب الدينيّ، ويهجرون في رمي المتعصّبين بالخشونة والبعد عن معدّات المدنيّة الحاضرة، ولا يعلم أولئك المسلمون أنّهم بهذا يشقّون عصاهم، ويفسدون شأنهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين، يطلبون محو التعصّب المعتدل، وفي محوه محو الملّة ودفعها إلى أيدي الأجانب»[٨٨]. والأدهى من كلّ ذلك في المقابل أنّ من النخب الغربيّة من يمقت التعصّب الإسلاميّ في حين أنّ «الإفرنج أشدّ النّاس في هذا النوع من التعصّب، وأحرصهم على القيام بدواعيه، ومن القواعد الأساسيّة في حكوماتهم السياسيّة الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره، ومساعدتهم على نجاح أعمالهم... وتراهم على اختلافهم في الأجناس، وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات، وترقّب كلّ دولة منهم لعثرة الأخرى حتّى توقع بها السوء، يتقاربون ويتآلفون ويتّحدون في توجيه قواهم الحربيّة والسياسيّة لحماية من يشاكلهم في الدين، وإن كان في أقصى قاصية من الأرض، ولو تقطّعت بينه وبينهم الأنساب الجنسيّة»[٨٩].

بعد هذا نرى أنّ السيّد جمال الدين يدعو إلى التمسّك بالقرآن: «ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتّى تقيموا القرآن، وتعملوا بها فيه من

الأوامر والنواهي، وتتخذوه إمامًا لكم في جميع أعمالكم»[٩٠]. وعند تطبيق القرآن وتلاوته حقّ تلاوته يمكن أن ترجع الأمّة من تخلّفها وتحيي مجدها السابق[٩١]، كما يرى أنّ القرآن هو القانون الصحيح الموجود بين ظهراني الأمّة[٩٢]. وفي سياق مساجلاته مع الفكر الاشتراكيّ الغربيّ يدعو إلى ما يسميه «الاشتراكيّة الإسلاميّة في مقابل الاشتراكيّة الغربيّة التي هي محض الضرر[٩٣]. «أمّا الاشتراكيّة في الإسلام، فهي خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكن الأخذ بها، لأنّ الكتاب الدينيّ وهو القرآن أشار إليها بأدلّة كثيرة»[٩٤]. ويذكر من تلك الأدلّة إشراك غير المحاربين في الغنائم، الإيثار للغير ولو كان بهم خصاصة، عقد الأخوة الإيمائيّة بين المهاجرين والأنصار، وكذلك الحثّ على التصدّق ومواساة الآخرين، ثمّ يقول: «هذا مختصر ما عمل به الدين الإسلاميّ من الاشتراكيّة المعقولة النافعة للمجموع الإنسانيّ، وكلّ اشتراكيّة تخالف في روحها وأساساتها اشتراكيّة الإسلام، فلا تكون بنتيجتها إلّا ملحمة كبرى وسيل الدماء... أكرّر القول إنّ اشتراكيّة الإسلام عين الحقّ، والحقّ أحقّ أن يُتّبَع»[٩٥].

ويظهر من طيّات كلمات السيّد، وبعض خطبه أنّه من دعاة التجديد في الاجتهاد والفهم الدينيّ، ولم يبيّن معالم هذا التجديد بشكل واضح كي نحكم عليه ونصنّفه ضمن التيّارات المختلفة في تعاملها مع الدين والشريعة، وعلى سبيل المثال نراه يقول: «بلى، نحتاج إلى عمل جديد نربّي به جيلًا جديدًا بعلم صحيح وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأوّل على الأجساد والأرواح وهو الدين»[٩٦]. أمّا في مقام الاعتراض على انسداد باب الاجتهاد والاكتفاء بتقليد السلف والدعوة إلى الاجتهاد. فسنجده يسعى جاهدًا إلى توسيع آفاق فهم[القرآن والحديث] والاستنتاج

بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصريّة وشروط الزمان وأحكامه، وبما لا ينافي جوهر النصّ»[٩٧].

وفي نصّ آخر ينتصر فيه للتأويل مشيرًا إلى أنّ مبدأ انحطاط الإسلام بدأت وقائعه منذ عهد السلطان سليمان القانونيّ، وخصوصًا لجهة تصميمه على عدم تأويل السنّة بما يوافق مواقع الإسلام حوال في أوقاتها، مع أنّه سئل النبي ﷺ: فيما نقول في المستقبل، أنتّبع نصّ القرآن أم نتّبع ما فسّر به القرآن والأحاديث؟ فقال ﷺ: شهادة الرجل خير من شهادة عشرة من الأموات. فيفهم من ذلك أنّ شريعة الإسلام كالثوب المرن تقبل التمدّد والتشكّل بأشكال التمدّن والتقدّم، بخلاف دين النصرانيّة لتحكّم النفس وتشديدهم، وعدم الإباحة في التأويل، فبقيت غير منتجة»[٩٨].

وهذه الكلمات كما نرى هي ذات حدّين؛ إذ لا يمكن أن نحكم على قائلها بأنّه من أنصار علمنة الدين والشريعة، كما يذهب إليه اليوم علمانيّو العالم الإسلاميّ، من خلال دعوى مواكبة الدين مع التقدّم والحداثة، وذلك أنّ هذه المباحث لم تتبلور بشكل جيّد آنذاك، والدعوة إلى التجدّد حينذاك تختلف عنها في عصرنا الراهن، إذ المصلحون في عصر النهضة الأولى كانوا يعانون من حركات سلفيّة قويّة، ومن سدّ باب الاجتهاد والتوقّف على ما قاله الأئمّة الأربعة في الفقه السنّي؛ لذا نرى أنّ السيّد يكسر هذا الحاجز عن طريق التمسّك بالقياس الحنفيّ تارة، وبفتح باب الاجتهاد أخرى، وبالتأويل للتخلّص من بعض الفتاوى الجامدة التي حكمت بحرمة كثير من مظاهر العصر الراهن بتبرير أنّها لم تكن في صدر الإسلام تارة ثالثة، غير أنّ الاجتهاد الحقيقيّ ينفي حكم الحرمة ويقول بالإباحة.

٢. الفقهاء:

يولي السيّد جمال الدين أهمّيّة كبرى

للعلماء والفقهاء باعتبارهم خَزنَة الدين وحماتُه وحرّاسه، وكان يحاول جهد إمكانه استنهاض العلماء للقيام بواجبهم تجاه إصلاح شأن الأمّة، كما كان ينصب اهتمامه في البعد السياسيّ وتدخّل العلماء لإصلاح شأن السلطة، وسوف نشير إليه. ولأهمّيّة دورهم النهضويّ والإحيائيّ يصف العلماء بأنّهم: «حملة القرآن، وحفَظَة الإيمان، ظهراء الدين المتين، ونصراء الشرع المبين، جنود الله الغالبة في العالم، وحججه الدامغة لضلال الأمم»[٩٩]. وأنّهم: «أنتم نصراء الله في الأرض،... أنتم جميعًا يد واحدة يذود بها الله عن صياصي دينه الحصينة، ويذبّ بقوّتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة»[١٠٠]. «وحماة الدين، وقادة المؤمنين، حزب الله في العالم، وجنوده الغالبة على الأمم، نصر الله بهم الإسلام، وخذل بعزائمهم أعداءه الطغام»[١٠١]. فالعالم عند السيّد جمال الدين نائب الإمام المعصوم، وقد كتب في رسالة إلى الميرزا الشيرازيّ: «إنّ الله اختصك بنيابة إمام الزمان، واختارك من بين الطائفة الشيعيّة، وأوكل إليك زمام الأمّة وحفظ حقوقها عن طريق الرئاسة الدينيّة»[١٠٢]، ثمّ إنّ وظيفة العلماء الحائزين لهذه الأوصاف، القيام بأمر الإرشاد والوعظ كي يستقرّ الدين في نفوس الناس: «لن يتمّ أثر الدين في نفوس الآخذين به، فيصيبوا حظًّا وافرًا ممّا يرشد إليه، فيتمتّعوا بحياة طيّبة وعيشة راضية، إلّا إذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه، وتثبيتها في العقول، ودعوة الناس إلى العمل بها، وتنبيه الغافلين عن رعايتها، وتذكير الساهين عن هديها»[١٠٣]. أمّا إذا لم يعمل العلماء بوظائفهم، فسوف تتغيّر الأمور ويتفشّى الجهل والفساد وتحكم الأهواء والشهوات، وهي أمور تدعو كلّها إلى خراب الأمم.

ومن وجهٍ آخر يرى أنّ العلماء إذا

قصّروا في أداء مهامهم، وضعفت سلطتهم الدينيّة والروحيّة، لتمكّن الغرب من النفوذ والتسلّط على مقدرات البلاد، إذ كلّما ضعفت قوّة العلماء في دولة من الدول الإسلاميّة، وثبت عليها طائفة من الإفرنج، ومحت اسمها وطمست رسمها»[١٠٤]. ثمّ يستشهد بحال الهند، حيث ركنت تحت حكم الاستعمار بعدما أذلّ أمراء الهند العلماء، أمّا الأفغانيّون فإنّهم صانوا بلادهم ببركة متابعة العلماء وقوّتهم في تلك الديار، وفي إيران يحاول الغرب بمعونة الشاه تضعيف العلماء للسيطرة على البلاد[١٠٥]؛ لذا كان جمال الدين يحاول استنهاض علماء إيران لخلع الشاه، إذ إنّهم حفظة الدين ولهم الحقّ في خلعه، وإنّ النّاس سوف تتابعهم وتذعن إلى أحكامهم، وقد جُبل في نفوسهم «إنّ الراد على العلماء راد على الله»[١٠٦]. وقد أكّد السيّد في كثير من مراسلاته للعلماء على خلع شاه إيران، كما أكّد لهم أيضًا ضرورة عدم حصول فوضى في البلاد؛ لأنّ الناس كبيرهم وصغيرهم يذعنون لحكم العلماء، وبإمكانهم تولية شخص أمين للقيام بأعباء الأمّة[١٠٧].

٣. الوحدة:

لقد قضى السيّد جمال الدين عمره داعيًا لتحقيق وحدة العالم الإسلاميّ، وبثّ روح الإخاء بين أبناء المجتمع الواحد أو الدين الواحد للوقوف أمام المخاطر ومطامع الأعداء، وكان يرى أنّ «الإلهام الإلهيّ، والإحساس النظريّ، والتعليم الشرعيّ»[١٠٨]. يدعو إلى التئام الأفراد والتحام الآحاد، حتّى «إنّ العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكّرون في جعل القوى المتفرّقة قوّة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكلّ»[١٠٩]. وكان يرى «أنّ الاتّفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلاميّة من أشدّ أركان الديانة المحمّديّة، والاعتقاد به من أوّليّات العقائد عند المسلمين»[١١٠].

«وإذا أحسست من أمّة ميلًا إلى الوحدة، فبشرها بما أعدّ الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا، والسلطة على متفرّقة الأمم، إذا تصفّنا تاريخ كلّ جنس واستقرأنا أحوال الشعوب في وجودها وفناها، وجدنا سنّة الله في الجمعيّات البشريّة، حظّها من الوجود على مقدار حظّها من الوحدة... وما أهْلَكَ الله قبيلًا إلّا بعدما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلًّا طويلًا وعذابًا وبيلًا، ثمّ فناء سرمديًّا»[111].

ومن طريفِ ما يذكره السيّد جمال الدين أنّه يصف حاله في مقام التعّرف على داء الشرق ويصرِّح بأنّه خصّصت جهاز دماغه لتشخيص دائه، وتحرّي دوائه، «فوجدت أقتل أدواءه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه، داء انقسام أهليه وتشتّت آرائهم، واختلافهم على الاتّحاد واتّحادهم على الاختلاف، فقد اتّفقوا على أن لا يتّفقوا، ولا تقوم على هذا القوم قائمة»[112].

والدعوة إلى الاتّحاد ونبذ الافتراق لم تكن دعوة شخصيّة أطلقها السيّد لتحسين حال المجتمع الإسلاميّ، بل هي دعوة تضرب بجذورها في عمق الدين؛ لذا يخصّص السيّد مبحثًا في العروة الوثقى للبحث عن الأدلّة القرآنيّة والروائيّة الداعمة للاتّحاد، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[113]، وكقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾[114]، وكقوله ﷺ: «إنّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا»، وكقوله أيضًا: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانًا»[115]؛ ذلك بأن «كلّ هذه الرزايا التي حطّت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها، ورامينا بسهامها إلّا افتراقُنا وتدابرُنا»[116]. ومضافًا إلى الوحدة الاجتماعيّة، كان السيّد جمال الدين

يدعو إلى التقريب بين المذاهب، فتكلّم عن الفرقة بين السنّة والشيعة، ودور بعض السلاطين لإلقاء الخلاف بين المسلمين وإراقة الدماء، ونددّ بذلك ونهى عنه[١١٧].

كما أنّه كان يدعو أرباب الأديان السماويّة الثلاثة: الموسويّة والعيسويّة والمحمّدية إلى الاتّحاد، ويرى أنّهم «على تمام الاتّفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية»[١١٨].

فبعد الدعوة الاجتماعيّة والدينيّة والمذهبيّة للاتّحاد، يتّجه السيّد جمال الدين للدعوة نحو الاتّحاد السياسيّ، فيدعو زعماء الدول للاتّحاد ونبذ الخلاف، وقد خصّص بحثًا في مجلّة العروة الوثقى وعنونه بـ «دعوة الفرس إلى الاتّحاد مع الأفغان» وبيّن فيه محاسن هذا الاتّحاد، وحاول ترغيب كلّ واحد منهما ليبادر إلى الإقدام، فيذكر دور ايران في الإسلام ودور علمائها في الفقه والحديث والتاريخ، كما يشيد بالأفغان، وأخيرًا يستشهد بالغرب ويذكر حالة الألمان وما آل إليها من الضعف بسبب اختلاف ديانتها مع باقي الدول الغربيّة، ثمّ لما رجعت وامتدت معهم قوي أمرها وذاع صيتها»[١١٩].

٤. الإصلاح السياسيّ:

لقد خاض السيّد جمال الدين غمار السياسة إلى أبعد حدودها وآفاقها، فدخل سلك الوزراء والمستشارين الكبار في مختلف الدول الإسلاميّة، وعرف نقاط الضعف والخلل، لذا كان يولي اهتمامًا بالغًا بإصلاح الشأن السياسيّ.

كان يرى أنّ الوضع السياسيّ تشوبه عدّة أمور أهمّها ما يلي:

أوّلًا: الحاكم المستبدّ: وقد أشار إلى موضوع الاستبداد في كثير من كتبه ورسائله، ذكر في مجلّة العروة الوثقى تحت عنوان: الأمّة وسلطة الحاكم المستبدّ «إنّ الأمّة التي ليس لها في

شؤونها حلّ ولا عقد، ولا تستشار في مصالحها، ولا أثر لإرادتها في منافعها العموميّة، وإنّما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون، ومشيئته نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمّة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير، فتعتورها السعادة والشقاء، ويتداولها العلم والجهل... وكلّ ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرّها، فهو تابع لحال الحاكم...»[120].

ثانيًا: دور الأجانب في خراب البلاد:

وقد حارب السيّد جمال الدين هذا الأمر كثيرًا أيضًا، وأشار إلى ما يتركه تدخّل الأجنبيّ في مقدّرات البلاد من الخراب، وعلى سبيل المثال يذكر ما قام به المترجمون الأجانب في البلاط العثمانيّ من تحكّم وخراب[121]، وهكذا فإنّه يصف دور الأجانب في البلاد بأنّهم أولئك الذين لا يتّصلون بصحاب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس، فمثلهم في الدولة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمّه إلّا استيفاء أجرته، ثمّ لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكّته الزلازل»[122]. يضيف: إنّ الدول ما كانت مصونة إلّا برجال منها، وأنّها «ما انخفض مكانها، ولا سقطت في هوّة الانحطاط إلّا عند دخول العنصر الأجنبيّ فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها، فإنّ ذلك كان في كلّ دولة آية الخراب والدمار»[123]. والسبب في ذلك أنّ هؤلاء وإن صدقوا وراعوا الأمانة، غير أنّهم يخدمون مقاصد دولهم ويمهّدون لها طرق الولاية والسيادة[124].

أمّا بخصوص نظام الحكم، فيدعو السيّد إلى الحكومة الشوروية، كما صرّح بذلك في خطبةٍ خطبها بالإسكندريّة[125]، وذلك عندما طلبه شاه إيران ليستفيد منه في أمر إصلاح البلاد، فقام جمال الدين بسنّ (حكومة ملكيّة شوروية) وإن رفض الشاه ذلك المخطّط لتحديد قدرته[126]. وكان يرى جمال الدين أنّ الإسلام أوّل من

عمل بالحكم الشورويّ كما ورد في القرآن: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١٢٧].

ثمّ إنّ السيّد ينفي الحكومة المطلقة[١٢٨] ويرى أنّ أسهل طريقة للعالم الإسلاميّ إنّما هي تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابيّ الشورويّ، فيحفظ حقّ الملك وحقّ الشعب في الاستشارة والمشاركة في الحكومة، «فيكون للمُلك الدستوريّ عظمة التملّك»[١٢٩].

وفي سياق بيان موقفه السلبيّ من الحكومات المطلقة يبيِّن محاسن الحكومة الجمهوريّة، ويتحسّر أنّ الشرقيّ لا يتمكّن من تبيين حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها، وإنّ المسوسين بها أعلى شأنًا وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم، فإنّ الإنسان الحقيقيّ هو الذي لا يحكم عليه إلّا القانون الحقّ المؤسّس على دعائم العدل[١٣٠]. ومع هذا فإنّه يدعو إلى حكومة رحيمة عالمة متنطّسة أي خبيرة تعتمد على النخب، وهذه الحكومة وإن لم تخرج عن نطاق الاستبداد بزعم جمال الدين، غير أنّها تعتمد على الخبراء وتستفيد من آرائهم، بيان ذلك:

لقد قسّم جمال الدين الحكومة الاستبداديّة باعتبار عناصرها الذاتيّة وأقانيمها الحقيقيّة (أي السلطان والوزراء والكادر الإداريّ) إلى ثلاثة أقسام:

ـ **القسم الأوّل**: الحكومة القاسية التي تشبه قطّاع الطريق، تنزع من الناس كلّ ما لديهم.

ـ **القسم الثاني**: الحكومة الظالمة التي تجعل الناس كالعبيد لها تسومهم أنواع العذاب والبلاء.

ـ **القسم الثالث**: الحكومة الرحيمة، وهي تنقسم إلى حكومة رحيمة جاهلة، وحالها حال الأب

الرحيم الجاهل، وإلى حكومة رحيمة عالمة، والعالمة هذه تنقسم أيضًا إلى قسمين حكومة رحيمة عالمة أفينة وهي كالأب العالم المأفون وناقص العقل، وإلى حكومة رحيمة عالمة متنطسّة، يكون أساطينها الحكماء، تضارع الأب المتدبر المتبصّر[١٣١]، ثمّ يقول بعد هذا السرد والوصف: «فهاك يا أيّها الإنسان الشرقيّ صاحب الأمر والنهي حكومة رحيمة حكيمة، وعليك بها والقيام بشأنها وحفظ واجباتها»[١٣٢].

٥. العلم:

يُعدّ العلم من الأركان الأساسيّة في تقدّم الأمم، وقد حثّ الإسلام أيضًا على طلب العلم كثيرًا؛ ولذا نرى أنّ السيّد جمال الدين يهتمّ بهذا الجانب أيضًا في مشروعه الإصلاحيّ، ويجعل العلم هو الطريق للخلاص من التخلّف والظلم والاضطهاد[١٣٣] ويقول: «لا يوجد أيّ عمل من أعمال الإنسان أشرف وأقوى من إعمال الفكر في طرق السعادة، واستعمال النظر في دقائق العلوم الحقّة والمعارف الصادقة»[١٣٤]. كما أنّ «جميع الترقيات الحاصلة في أوروبا إنّما كانت بسبب العلم»[١٣٥].

إنّ الدول الإسلاميّة فيما مضى غلبت الحكومات النصرانيّة بالعلم، أمّا اليوم فإنّهم يغلبوننا بالعلم[١٣٦] وهذا في حين أنّ الدول الإسلاميّة هي التي كانت رائدة في العلم وملهمة للغرب[١٣٧]. ويتأسّف جمال الدين ويتمنّى أنّ المبالغ التي تصرفها الحكومات الإسلاميّة لشراء السلاح والعتاد تُصرف لطلب العلم[١٣٨]، كما أنّه ينتقد بعض مسلمي الهند الذين دعاهم التعصّب الدينيّ لترك اقتباس العلوم الغربيّة بشكل مطلق[١٣٩].

صحيح أنّ السيّد جمال الدين من دعاة العلم، غير أنّه يرى ما أنتجه العلم في الغرب من تقدّم وازدهار من جهة، ومن دمار وحروب من جهة

ثانية؛ لذا يقوم بتأسيس أساس يحاكم على ضوئه العلم ويقيّده به، فليس العلم بمفرده حسن إلّا إذا اقترن بشيء، يقول السيّد بهذا الصدد: «لا تقدّر المكتسبات العلميّة إلّا بنسبة ما ترتب على ذلك من الفائدة»[١٤٠].

والفائدة التي يبحث عنها ليست الفائدة الماديّة الصرفة، بل «إنّ العلم الصحيح الذي للآدميّ أن يصل إليه، هو العلم الذي به ينتهي الإنسان عن الفساد في الأرض وسفك الدماء»[١٤١]. أمّا ما وصل إليه الغرب من «الرقيّ والعلم والتمدّن على ذلك النحو وفي تلك النتيجة، إنْ هو إلّا جهل محض وهمجيّة صرفة وغاية التوحّش. وعندي أنّ الإنسان اليوم هو أحطّ درجة من إنسان عصر الجاهليّة حتّى، ومن الحيوان الناهق،... لعدم استفادته من حقيقة العلم أو العلم الحقيقيّ... إذن فالإنسان في مدنيّته الحاضرة وفي مكتسباته العلميّة والأدبيّة والعمليّة، وفي بذل ثمرات سعيه في سبيل الحروب، أو استثمار ثروته منها وفي مرضاة موقدها... أحطّ منها [أي من الحيوانات] وليس ثمّة مدنيّة ولا علم، بل جهل وتوحّش»[١٤٢].

ويوجد أمر آخر في غاية الأهمّيّة يشير إليه السيّد، وهو الاكتفاء بنقل العلوم الغربيّة من دون وجود أرضيّة لها، فحينئذٍ لمّا دخلت هذه العلوم تغيّرت ظواهر الحياة وشكل المدن والمأكل والملبس، وتضرّرت الصناعة المحلّيّة، وعادات الأمّة وتقاليدها في الوقت نفسه[١٤٣]، والسبب في ذلك أنّ «تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها، وفاجأتهم قبل أوانها»[١٤٤] فأصبحوا بذلك (نقلة وحملة)[١٤٥] وأبوابًا لتدخّل الأجنبي من خلالهم[١٤٦].

٦. اكتساب الفضائل:

العامل الأخير الذي نشير إليه هنا من عوامل الإصلاح في العالم

الإسلاميّ، هو موضوع اكتساب الفضائل، فالأمّة التي تبحث عن الفضائل وتتحلّى بها لا يمكن أن تبقى متخلّفة ومنحطّة، ويشير السيّد جمال الدين إلى هذا الأمر ويقول: «الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتّصفين بها»[١٤٧] ويقول بعدما يشير إلى مجموعة من الفضائل كالتعقّل والتروّي والعفّة والسخاء والقناعة والتواضع وغيرها: «ألا ترى لو عمّت هذه الصفات الجليلة أمّة من الأمم، أو غلبت في أفرادها، أيكون بينها سوى الاتّحاد والالتئام التامّ؟ هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرّين صادقين وفيّين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين؟ أمّا والله، لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتًا لأحيتها... وإنّ أولى الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمّة قال نبيّهم: «إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[١٤٨].

***

وبهذا المقدار ننهي رحلتنا مع مشروع السيّد جمال الدين الحسينيّ الإصلاحيّ، ومشروعه هذا وإن لم يؤت ثماره في وقته؛ ربّما لأسباب ذاتيّة، أو لعدم تهيئة الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة آنذاك. ومهما يكن من أمر فقد استطاع أن يشكل مناخًا ثقافيًّا ومعرفيًّا محوريًّا في الكفاح ضدّ المستعمر وفي تفعيل الفكر الإصلاحيّ والدعوة إليه وإعادة روح الدين لتتفاعل بين نخب ومفكّري العالم الإسلاميّ.

الهوامش:

[١] مرجع الدراسة: كتاب: «العروة الوثقى».
المؤلّف: السيّد جمال الدين الحسينيّ الأفغانيّ والشيخ الإمام محمّد عبده.
إعداد وتقديم: سيد هادي خسروشاهي.
مكتبة الشروق الدوليّة- الطبعة الأولى- القاهرة.
— تاريخ النشر» ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م.
[٢] مجموعة الآثار ٨: ٥١.
[٣] ٦: ١٨٠.
[٤] مجموعة الآثار: ٣: ١٠١.
[٥] ١: ١٢١.
[٦] ١: ١٤٠-١٤٧.
[٧] مجموعة الآثار: ١: ١٤٠-١٤٢.
[٨] م. ن، ١: ١٤٢.
[٩] سورة آل عمران، الآية ١٧٣.
[١٠] مجموعة الآثار: ١: ١٤٤.
[١١] م. ن، ٣: ٥١.
[١٢] مجموعة الآثار: ٦: ٢٤٩.
[١٣] م. ن، ٦: ٢٠٧.
[١٤] م. ن، ٦: ٢٥١-٢٥٢.
[١٥] م. ن، ٦: ٢٥٣.
[١٦] م. ن، ٦: ٢٤١.
[١٧] مجموعة الآثار: ٦: ٢٤١.
[١٨] م. ن، ١: ١٥١-١٥٢.
[١٩] مجموعة الآثار: سورة هود، الآية ١٠٢.
[٢٠] ١: ١٥٢-١٥٣.
[٢١] ١: ١٧٢.
[٢٢] سورة يوسف، الآية ٨٧.
[٢٣] سورة الحجر، الآية ٥٦، ١: ١٧٢-١٧٤.
[٢٤] مجموعة الآثار: ١: ٢١٧.
[٢٥] ١: ٢١٨.
[٢٦] ١: ٢٢٢.
[٢٧] مجموعة الآثار: ١: ٢٢٤.
[٢٨] م. ن، ١: ٢٢٤-٢٢٥.
[٢٩] م. ن، ١: ٢٢٥.
[٣٠] م. ن، ١: ١٢٤.
[٣١] ١: ١٢٥.
[٣٢] ٦: ٢٤٢.
[٣٣] م. ن، ١: ١٤٧.
[٣٤] م. ن، ١: ١٧٩.
[٣٥] م. ن، ٣: ١٠١.
[٣٦] م. ن، ٣: ١٠٢.
[٣٧] م. ن، ١: ١٩١.
[٣٨] م. ن، ٦: ٣٤٣.
[٣٩] مجموعة الآثار، ٦: ١٨٤
[٤٠] م. ن، ٦: ٣٤٣-٣٤٤.
[٤١] م. ن، ١: ١٤٧.
[٤٢] م. ن، ٦: ٢٤٤.
[٤٣] م. ن، ٦: ٢٤٥.
[٤٤] مجموعة الآثار: ٦: ٢٤٤.
[٤٥] م. ن، ١: ٣٩٠.
[٤٦] م. ن، ١: ٤٣١.
[٤٧] م. ن، ١: ٤٣١-٤٣٢.
[٤٨] م. ن، ١: ١٣٦-١٣٧.
[٤٩] م. ن، ١: ١٣٨.
[٥٠] م. ن، ٦: ١١٨.
[٥١] مجموعة الآثار: ٦: ١١٨.
[٥٢] م. ن، ٦: ١١٧.
[٥٣] م. ن، ٦: ١٢٣-١٢٤.
[٥٤] مجموعة الآثار: ١: ٣٩٣.
[٥٥] م. ن، ١: ٤٢٣.

[٥٦] م. ن، ١: ٢١٩.
[٥٧] م. ن، ١: ٢٩٣.
[٥٨] م. ن، ١: ٢٩٣.
[٥٩] م. ن، ١: ٤٠٧.
[٦٠] م. ن، ١: ٣١٧.
[٦١] م. ن، ١: ٣١٥.
[٦٢] م. ن، ١: ٣٢٩.
[٦٣] مجموعة الآثار: ١: ٤٦٣-٤٦٤.
[٦٤] م. ن، ١: ٤٢٣.
[٦٥] م. ن، ١: ٢٩٣، ٣٢٩؛ ٥: ١٩٧-١٩٨.
[٦٦] م. ن، ٣: ٧٠.
[٦٧] م. ن،: ١: ٢٩٦.
[٦٨] م. ن، ٦: ٢٥٦-٢٥٧.
[٦٩] م. ن، ١: ١٣٧، ٤٣٢.
[٧٠] م. ن، ٦: ١٢١.
[٧١] مجموعة الآثار: ١: ١١٧.
[٧٢] م. ن، ١: ١٣٤.
[٧٣] م. ن، ٢: ١٤٦-١٥٠.
[٧٤] سورة آل عمران، الآية ١٠٤.
[٧٥] سورة التوبة، الآية ١٢٢، ٢: ١٩٠-١٩٦.
[٧٦] مجموعة الآثار: ١: ١٠٦.
[٧٧] م. ن، ١: ١٥٤.
[٧٨] م. ن، ٦: ١٣٧.
[٧٩] مجموعة الآثار: ١: ١١٢-١١٣.
[٨٠] مجموعة الآثار: ١: ١٠٩-١١٤؛ ٦: ٢٦٠ فما بعد.
[٨١] م. ن، ١: ١١٤-١١٥.
[٨٢] مجموعة الآثار: ٩: ٩٥-٩٩.
[٨٣] م. ن، ١: ١٣٣.
[٨٤] م. ن، ١: ١٣٤.
[٨٥] م. ن، ١: ١٣٥.
[٨٦] م. ن، ١: ١٣٦.
[٨٧] م. ن، ١: ١٣٣.
[٨٨] م. ن، ١: ١٣٧-١٣٨؛ وأيضًا ١: ١٣١.
[٨٩] مجموعة الآثار: ١: ١٣٨.
[٩٠] م. ن، ١: ٢١٥.
[٩١] م. ن، ١: ١٢١.
[٩٢] م. ن، ٥: ١٠٤.
[٩٣] م. ن، ٦: ١٦٠.
[٩٤] م. ن، ٦: ١٦٢.
[٩٥] م. ن، ٦: ١٦٩.
[٩٦] ٦ مجموعة الآثار: ١٢٠.
[٩٧] م. ن، ٦: ١٥١.
[٩٨] م. ن، ٣: ٥١.
[٩٩] مجموعة الآثار: ٤: ١٠٣.
[١٠٠] م. ن، ٤: ١٠٥.
[١٠١] م. ن، ٤: ١٩٠.
[١٠٢] م. ن، ٨: ٦١.
[١٠٣] م. ن، ١: ١٥٤.
[١٠٤] م. ن، ٤: ١٠٤.
[١٠٥] م. ن، ٤: ١٠٤.
[١٠٦] م. ن، ٤: ١٠٦.
[١٠٧] مجموعة الآثار: ٤: ١٩٣.
[١٠٨] م. ن، ١: ٩٦.
[١٠٩] م. ن، ١: ٩٧.
[١١٠] م. ن، ١: ١٦٠.
[١١١] م. ن، ١: ١٦٣؛ ونحوه ٣: ١٤١.
[١١٢] م. ن، ٦: ٧٧.
[١١٣] سورة الحجرات، الآية ١٠.
[١١٤] سورة آل عمران، الآية ١٠٥.
[١١٥] مجموعة الآثار: ١: ١٦٣-١٦٨.
[١١٦] م. ن، ١: ١٦٦.

[١١٧] م. ن، ٦: ١٥٢-١٥٣.
[١١٨] م. ن، ٦: ٧٦.
[١١٩] م. ن، ١: ١٩١-١٩٦.
[١٢٠] مجموعة الآثار: ١: ١٩١.
[١٢١] م. ن، ٦: ٢٠٤.
[١٢٢] م. ن، ١: ١٧٨.
[١٢٣] م. ن، ١: ١٧٩.
[١٢٤] م. ن، ١: ١٧٨.
[١٢٥] م. ن، ٣: ١٠٣.
[١٢٦] م. ن، ٦: ٥٥.
[١٢٧] سورة الشورى، الآية ٣٨، ٦: ٥٩.
[١٢٨] مجموعة الآثار: ٨: ١٥٣.
[١٢٩] م. ن، ٦: ٨٣.
[١٣٠] م. ن، ٣: ٥٧-٥٨.
[١٣١] م. ن، ٣: ٥٨-٦٢.
[١٣٢] م. ن، ٣: ٦٥.
[١٣٣] مجموعة الآثار: ٨: ١٠٣، ٩: ١٢٥.
[١٣٤] م. ن، ٩: ١٢٣.
[١٣٥] م. ن، ٨: ٩٩.
[١٣٦] م. ن، ٦: ١٨٥.
[١٣٧] م. ن، ١: ١٥٨، ٥: ١٠٤، ٦: ١٤٣.
[١٣٨] م. ن، ٣: ٥٢.
[١٣٩] م. ن، ٩: ١٥١.
[١٤٠] م. ن، ٦: ١٢٩.
[١٤١] م. ن، ٦: ١٣٢.
[١٤٢] مجموعة الآثار: ٦: ١٣٠-١٣١.
[١٤٣] م. ن، ١: ١١٠-١١٣.
[١٤٤] م. ن، ١: ١١٢.
[١٤٥] م. ن، ١: ١١١.
[١٤٦] م. ن، ١: ١١٣.
[١٤٧] م. ن، ١: ١٤٩.
[١٤٨] مجموعة الآثار: ١: ١٥١-١٥٢.